مصطفى عبيد

ابنة الديكتاتور

مستوحاة من أحداث حقيقية طُمست عن عمد

رواية

الدار المصرية اللبنانية

عنان، مصطفى عبيد محمد أحمد، 1976 - 000.
ابنة الديكتاتور : مستوحاة من أحداث حقيقية طُمست عن عمد: رواية / مصطفى عبيد. - ط2. -
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2024.
296 ص؛ 20 سم.
تدمك: 3 - 485 - 795 - 977 - 978
ا- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 16408 /2024

©
الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى - الطبعة الثانية: 2024م

تصميم الغلاف الفنان: أحمد مراد

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز، بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

«إن أسوأ ما في الأمر ليس تبصر المرء بأخطائه الواضحة، بل تبصره بتلك الأعمال التي اعتبرها ذات مرة أعمالًا صالحة».

فرانز كافكا

فيروز الصاوي

ربيع 2022

ولولة اخترقت أُذني، فلم أنكرها، فكم قابلتها في هذا المكان المتسربل بأردية الحزن، المُزدحم بأجساد هزيلة، تصلح صفرتها لونا رسميا لأبناء ريف مصر على مدى قرون. صعدت سلالم المُستشفى الجامعي بالمنصورة، مبنى عتيق مُرمم، تبث جدرانه كآبة واسعة تناسب زمنا محزنا نندهش أننا عشناه. امتلأت ضجرا من هذا المُدير كالح الوجه الذي تستفزه كُل أنثى طموح، فيزدريها كزائدة دودية لا يعرف طبيب متخصص في الأمراض الباطنية قيمة وجودها.

أتاني صوت مس نبيلة، كبيرة الممرضات، وهي تُخبرني النبأ المعتاد بأن الدكتور حسام بليغ -النائب الجديد بالمستشفى- اعتذر لظروف طارئة، وأنه يرجوني أن أحل محله في نوبته المسائية. على السلالم العتيقة، صعدت مس نبيلة، التي يقارب سلوكها اسمها ببنيان يظن الغريب أنه لرجل من فرط قوته، وعلى وجهها الداكن رسم الدهر تجاعيد خمسينية، زادها كبرا لفة محكمة لحجاب بلدي دار حول الرأس مُغطيا شعرا لا يشك أحد في جفافه. هززت رأسي موافقة، فطالما تحليت بالصبر في هذا العمل، وبت أعذر كل زميل مستجد تخرج في كلية الطب بعد انقضاء الجائحة، فلم يشهد معنا مشاهد الهلع التي شهدناها، ولم يعتد تلك المسئوليات المضاعفة التي ارتمت فوق أكتافنا -معشر

الأطباء- وقت عصفت بنا كوفيد.

قُلت لنفسي: ستمر الأوقات المجهدة سراعا وعليّ أن أتحمل قليلا حتى أنهي المعادلة التي تسمح لي بالهجرة إلى بلاد الإنجليز لأستشرف مستقبلا حقيقيا. سرنا معا مسارنا التقليدي، نبيلة الثرثارة، وأنا الشغوفة بسماع الحواديت، وسألتها السؤال المتكرر عن بناتها، فردت بالشكوى ذاتها التي طالما سمعتها عن ضيق الحال، وعزوف الخُطاب تحت وطأة الأحوال الصعبة، فالأولى تخرجت في كلية التربية، قسم اللغة الإنجليزية وتعمل مُدرسة في مدرسة بطلخا، ولم يتقدم لها أحد، والثانية تخرجت بعدها بعام في كلية الحقوق، لكنها تعمل أيضا مدرسة ابتدائي في دكرنس، ولم يلتفت لها مخلوق. أما الثالثة فما زالت في السنة الأولى من معهد التمريض، وتواجه حظي شقيقتيها في الشبان العزاب الذين باتوا يفرون من المسئولية الذكورية فرارهم من الجائحة. علقت مس نبيلة قائلة:

- "بختهم وحش زي أمهم. وأديك شايفة أبوهم نقاش على ما تفرج، شغال يوم وعشرة لأ، واللي بيكسبه ضايع كله عالسجاير".

- "ربنا كبير".

- "ونعم بالله".

لم أرد أن أخبرها بالحكم القاطع الذي يردده كثير من الأطباء بأن دخل الممرض أفضل كثيرا من أي طبيب.

سألتها عن آخر الحالات في قسم الطوارئ، فعددتها لي بآلية باردة جافة وخالية من أي مشاعر قائلة:

- "في ولد صغير بلع قلم رصاص، وجالنا رجل كبير عنده استسقا، وشكله بيودع، وفي كمان عندنا ست كبيرة عندها اشتباه تسمم...".

وكررت عرض باقي الحالات بالرتابة ذاتها، فلم أكترث بحُكم الاعتياد، فمن يعمل بالطب في مصر يُدرك أن الأنباء السارة غير مسموح لها أن تُعكر صفو حكايات الوجع ومشاهد الحزن ومواقف الخطر المهيمنة على الأجواء كل يوم.

طافت بخاطري عبارة جدي حمد الغريبة التي قالها لي في الصباح الباكر عندما لمحته يُسبح الله على سجادته الخضراء: *"سامحيني يا سناء. كان لازم أعمل كده عشان بنتك متطلعش مقهورة زينا"*. فزعت لوهلة أن يكون حبيبي قد مسه خرف الشيخوخة، واستغربت اسم سناء الذي لم أسمع به أبدا من قبل لا من جدي ولا من غيره. لقد حكى لي قبل سنين أن جدتي التي ماتت وهي تلد أمي كان اسمها ثريا وكانت تعمل بالتدريس مثله.

مررت على العنابر، متفقدة الحالات القديمة والجديدة، ومراجعة لكشوف البروتوكول المفترض للتعامل مع كل حالة. حافظت على الابتسامة الكاذبة التي نجحت في رسمها على وجهي مُد عملت في مهنة المداواة، التي تعلمتها من صديقي المقرب أبي الطيب المُتنبي بقوله *"ولما صار ود الناسِ خِبًا... جازيتُ على*

ابتسامٍ بابتسامٍ".

درست الطب عن محبة ذاتية رغم انقطاع حبل محبتي مع والدي الطبيب البارع، عبد العزيز الصاوي الذي حقق شهرة واسعة، وثروة معقولة في الكويت حيث عاش وما زال يعيش. اخترته عن قناعة مصدقة ما حكاه لي جدي العظيم حمد، معلم العربية والشاعر الفطحل كما اعتاد تلامذته في مصر والكويت أن يلقبوه بأن أمي الغالية، التي لم أرها كانت تتمنى أن تراني طبيبة أداوي الناس. ولدت في خريف العام ذاته الذي تصدع فيه شعار الأمة العربية الواحدة، ذات الرسالة الخالدة، حين غزا الجيش العراقي بقرار من قائده الأغر صدام حسين ديار جيرانه تحت جُنح الظلام، مُبيحا لجنوده ارتكاب كل ما يحلو لهم من موبقات في حق المدنيين العزل رجالا ونساء وأطفالا. قبلها بسنوات كان أبي طبيبا عاما بالمستشفى الأميري بالكويت، عندما أتاحت جلطة مفاجئة أصابت قلب جدي حمد، فرصة مثالية ليرى كريمته الوحيدة التي تعمل مثل والدها بالتدريس. ودون قصة حب ملتهبة، وكما هي براجماتية العاملين في الغربة، تقدم الطبيب الأربعيني للزواج بابنة المدرس المريض بعد تعافيه، ووافقت العروس، وكنت أنا ثمرة هذا الزواج. ماتت أمي فجأة وعمري ثلاث سنوات بسبب مرض نادر قيل أنه نتاج تلوث كيماوي خلفته أسلحة الحرب العراقية التي تم اختبارها في الكويت، وعندما قرر جدي التقاعد والعودة إلى مصر بعد ثلاثين عاما من الغربة، خاض غمار مفاوضات صعبة مع والدي ليسمح له باصطحابي

معه. وفي ليلة وضحاها عُدت مع جدي إلى المنصورة حيث اختار السكنى بها هروبا من القاهرة التي لا يُحبها، ولم يلبث والدي أن تزوج من سيدة أخرى، وأنجب، وأنشأ أسرة جديدة، وصار كل ما يربطه بي هو مكالمة شهرية فاترة للسؤال عن أحوالي، ومبلغا ماليا جيدا يُرسل به إلى جدي مطلع كل شهر لأحصل على تعليم مناسب، وحياة هانئة.

رغم نشأتي في المنصورة، وندرة زياراتي للقاهرة، تربيت تربية استثنائية، حيث أتقنت اللغتين الإنجليزية والفرنسية تماما منذ السابعة، والأعظم من ذلك أنني أجدت اللغة العربية كتابة ونطقا وبلاغة بحكم عشق جدي العظيم للأدب العربي. كُنت بالنسبة له أمثل كل شيء في حياته، فهو مقطوع من شجرة، وأصوله تعود إلى محافظة الوادي الجديد، إذ أرسله والده صغيرا للقاهرة ليتعلم، فدرس الأدب، وأحب اللغة العربية، وكتب بعض القصص للأطفال، قبل أن يُقرر التفرغ التام للتعليم، ثم سافر بعد وفاة زوجته مطلع الستينيات إلى الكويت، وائتلف بأهلها فصاروا أهله، وعندما عاد كان لديه ما يكفي للعيش بكرامة، وغمري بكل نفيس، وتدليلي كوني أميرته الوحيدة. وإن كان لي أن أعترف له بفضائل عظيمة، فإن من أهمها نسج حبل صداقتي المتين مع أعظم شعراء العرب أبي الطيب المُتنبي، الذي أحلم به، وأتحاور معه، وأستشيره في كثير من أموري، لتمنحني ردوده شعرا خالدا. وفيما بعد اخترت بنفسي ودون تدخل من جدي ثاني صداقاتي مع المطربة الساحرة فيروز ليس لتشابه اسمي معها وإنما لقناعتي

بقدرة صوتها الرقيق على مُغالبة قسوة العالم.

بعينين غريبتين أبصرت الناس، وخُضت غمار التعرف على بواكير الأمور، واستفزني الصديق المُتنبي كثيرا بقوله "*وعذلت أهل العشق حتى ذُقته... فعجبت كيف يموت مَن لم يعشق*" فبحثت بسذاجة قلب عن ذلك الفارس المغوار الذي يُشبه جدي، طيبة وحنانا ليعقد معي شراكة حياة تزيدني بهجة وتعوضني يُتمي الدائم، بموت الأم وغياب الأب. كنت في الثالثة عشر من عمري عندما تجاوبت مع نظرات زميل مراهق يشاركني درس اللغة الإنجليزية خارج المدرسة، واستطبت لمساته الدافئة وهو يُطيل النظر نحوي فور رؤيتي. كدت أذوب بين يديه وهو يُحدثني يوما بِوَله مكتمل عن سحر عيني العسليتين، وكدت أحتضنه يوما ما عندما التقط بإصبع رقيق رمشا ساقطا فوق خدي الأيمن، ولو قال لي وقتها "*أحبك*" لجاوبته بمثلها وأكثر من فرط مشاعري الصاخبة. ولكن العالم أظلم فجأة عندما سمعته يوما ما بأذني المتلصصتين يتحدث إلى زميل آخر في الدرس، حاكيا له قصصا خيالية عن ارتمائي بين أحضانه، وتقبيلي لشفتيه بنهم مروع، فانجرحت كبريائي وترجرجت كرامتي وسقط من قلبي للأبد، وصارحت جدي بما فعل، فاحتضنني ومسح على رأسي مطمئنا قبل أن يلقنه درسا أخلاقيا أمام والده. ومن بعدها وأنا صلبة وجافة ومنغمسة في العلم والأدب فقط، وساخرة من كل رجل يكذب ويراوغ ويتاجر بالمشاعر.

ذات يوم قالت لي مُنى زين الدين، التي صاحبتني طفلة، ثم مراهقة، ثم شابة، وخريجة بأنني أشبه جدي كثيرا في أسلوب كلامه، وزهده، وتسامحه، وربما كان هذا هو مسمار الخلاف الأكبر بيني وبين أول مَن دق باب الارتباط بي رسميا، وهو زميلي الدكتور وجدي محروس، الذي كان يتصور أن تحقق إيمانه لا يكتمل إلا بدون كراهية مَن لا يؤمن بعقيدته. وقال لي يوما وكنا نسهر في المستشفى الجامعي عندما رآني مُتيمة بسماع فيروز عبر سماعات موصولة بهاتفي: *"أغاني فيروز كلها كفر ومجون، وأكبر دليل أغنيتها اللي بتقول فيها: وأنين الناي يبقى بعد أن يفنى الوجود"*. وكان رأيه أن القرآن الكريم حسم الأمر بقوله *"كُل مَن عليها فان"*، لكنني استفززت خلايا تعصبه، عندما قلت له: *"ومَن قال لك أن تؤمن بما تقوله فيروز؟! هي تُغني كلمات جميلة فقط، ثم من قال لك بأنها تقول حقائق كونية؟! هي تُغني والمفترض في الأغنية أنها مثل الشعر تحمل كذبا وخيالا"*. كنت أشعر بأن نظراته تجاهي شهوانية خالصة، ورغم التزامه بأدب حديث ظاهري كُنت أوقن أنني لو اخترقت دماغه لرأيته يضاجعني بخياله.

لم يكن وجدي محروس، مُتدينا بالمعنى الشائع، ولكن فهمه للدين كان مثل كثير من أبناء جيله مستمدا من تويتات الدعاة الجدد، لذا كثيرا ما كرر أمامي تصوره بأن *"الحجاب أمر أساسي لأي فتاة حتى لو لم تكن تلتزم بالصلاة في مواقيتها، فهو البداية التي تنطلق منها النساء للتعبد في رحاب الله"*. وكُنت أرد على ذلك الكلام بأنه شأن خاص لا ينبغي التدخل فيه، لكنه كان يفعل

ويغضب ويُكرر بأن كل إنسان مأمور بتغيير المُنكر ولو بالنصيحة والكلام، وكما علمني جدي فقد تجنبت الانجرار في محاوراته الجدلية الفقهية، التي غالبا ما تنتهي بتخويفي من عذاب الله. وكان من الممكن للحكاية أن تمضي إلى منتهاها لأجد نفسي يوما زوجة للدكتور وجدي محروس الذي يعمل صباحا في المستشفى الجامعي، ويمر مساء على مركز طبي بالمنصورة ليزيد دخله، لولا أن انكشفت ستوره تماما في يوم ضبطته فيه بغرفة الرعاية المركزة بالمستشفى يُلقن مريضة مُسنة، عرفت أنها مسيحية، شهادة الإسلام. قُلت له بأن ما يفعله يعتبر خيانة للأمانة وحنثا لقسمه الطبي، لأنه يستغل تيه المريضة ليدفعها أن تغير ملتها التي لم تكن لتفعله لو أتيح لها الاختيار في وقت طبيعي، لكنه كان حادا في دفاعه عن فعله معتبرا نفسه منقذا لروح إنسان من النار. وقتها حكيت لجدي حمد عنه وعما عرفت عنه، فاشمأز بقسمات وجهه، وحمد الله أن انكشف أمره.

كان جدي حمد هو مرشدي الأول على هذه الأرض، طويلا، وسيما، هادئ القسمات، يحمل في عينيه رقة شديدة وحكمة طاغية، لم تفقد ملامح وجهه حيويتها رغم اقترابه من التسعين، يبدو باشًّا، وقادرا على الاستماع بحُسن لما أقول. ومنه تعلمت أن أخضع كل فعل وقول لمعيار أخلاقي صارم فأسمي الخداع خداعا والكذب كذبا مهما ارتدت النوايا ثياب التدين. وكثيرا ما ردد أمامي أن الدين لا ينفصل عن الأخلاق، لذا فإنه يرفض تدين أي شخص يكذب أو يخدع أو يعتدي

على الغير. وفي لحظة الاستقطاب الكبرى التي تعرضت لها البلاد قبل عقد من الزمن، كان جدي واضحا ومباشرا عندما قال لكل من يعرفه *"إن أكثر من أساءوا إلى الإسلام هم من يسمون أنفسهم إسلاميين"*.

اعتاد جدي الاستيقاظ مبكرا قبل دقائق من مطلع الفجر، حيث يحرص على تناول إفطار جيد، ثم يمارس رياضة خفيفة، انخفضت وتيرتها مع كبره، ليكتفي بالمشي البطيء، ثم يجلس في الشرفة المطلة على النيل يتناول قهوته التي تعدها أم إبراهيم خادمتنا المسنة، وتقدمها بدعاء طيب وابتسامة مودة. ونسمع الجد بعدها يقرأ الفاتحة لأصدقاء ومعارف عمره، الذين يحتفظ بأسمائهم في مفكرة صغيرة لا تفارقه، وربما تهمر دموعه وهو يكرر هذا الطقس اليومي الغريب. وهكذا كنا نراه مصاحبا وحدته في الشرفة، متأملا في السماء، ومتفرجا على السائرين على الكورنيش الذي يصر أنه تغير كثيرا خلال السنوات الأخيرة، ثم يقرأ بعد ذلك الصحف، ويقلب في بعض الكُتب، وربما يفتح بعضها ليقرأ بصوت مرتفع. ولما ضعف بصره في السنوات الأخيرة، ولم يقرأ حتى الصحف، استعنت بتطبيقات صوتية حديثة ليستمع للكتب الجديدة، واعتدت أن أسمع منه تعليقا واحدا بأن قراء الأدب العربي لا يحسنون نطق الكلمات، وأنه لو حل محلهم لبزهم جميعا.

حرضني جدي على مقاومة الذكورية المُتفشية في أروقة الوطن، وفي محل شُغلي حيث يتكور الكائن القروسطي المعروف بـ الدكتور محمود شديد رئيس قسم

الباطنة والذي يرى الأنثى مُجرد طاهية، لدرجة تدفعه للسخرية من رأي أي زميلة حال التشاور فيما يخص تقسيم العمل، سائلا إياها إن كانت تُجيد عمل المحشي، وأي الأنواع تُفضل. أما أنا فقد كُنت أجيبه على السؤال بسؤال مماثل إن كان يُجيد هو عمل المحشي أم لا، وأي الأنواع يُفضلها، فيستغرب جرأتي وينعتني في غيابي بالوقاحة وقلة التربية.

سافر الدكتور وجدي إلى بلاد الخليج للعمل هناك، وسألني قبل السفر إن كُنت أقبل الزواج منه، فأخبرته بوضوح بأن طريقينا مختلفان، فأنا أحب الموسيقى، أنفتح على الناس، أعشق فيروز، وأقرأ الشعر والروايات وأتابع الدراما العالمية، وأتصور أن مستقبلي الحقيقي في أوروبا لا في العالم العربي، لذا فإن وجهتي القادمة هي إنجلترا بعد إنهاء معادلتي التي أصبر على العمل المُضني، والصراعات التافهة، ونظرات الذئاب، ومضايقات الدكتور شديد الحين الفوز بها. أنا أرى العالم الغربي مُعلما وهاديا، وهو يراه متآمرا، وعدوا، وشيطانا رجيما. وأنا أُقيم الإنسان بأخلاقه وعمله ومدى نفعه للآخرين، وهو يُقيمه بمظهره وأقواله، والمساحة المشتركة الوحيدة بيننا هي المهنة، وهذا ليس كافيا للشراكة في الحياة. وقتها هز وجدي رأسه مقتنعا، وانسحب مستخفا بفتاة غبية ترفض رجلا لا يُرفض مثله.

اعتدت استثمار وقت فراغي، خاصة في المستشفى مساء في مشاكسة كبار الكُتاب من خلال حساب وهمي أطلقت عليه "القارئة الشريرة"، وكنت أجد متعتي

في مجادلة ومشاغبة بعض مشاهير الكتابة مثل أحلام مستغانمي ويوسف زيدان وعلاء الأسواني وأحمد مراد وإبراهيم عيسى وإبراهيم عبد المجيد وأشرف العشماوي وغيرهم. كنت أدرك أن حسابات كثير من هؤلاء يديرها آخرون غيرهم، لكني كنت أجد سعادة في نقد كتابات أعجبت بها لأقول لنفسي أنني حاضرة.

***

"أنا لحبيبي وحبيبي إلي.. يا عصفور بيضا لا بقي تزعلي..

لا يعتب حدا.. ولا يزعل حدا.. أنا لحبيبي وحبيبي إلي".

دندنت مع فيروز، وأنا أقود سيارتي الستروين الصغيرة نحو مطعم "سوشي باي" المقابل للجامعة. ما كل هذا الضجيج! تغيرت المنصورة، ومن عليها. عولمتها العولمة، ففيرت أزياء نسائها، وبدلت عادات رجالها. زحف العمران على ضواحيها المهجورة، فدبت فيها الحيوية وعلاها الصخب. تلاصقت المحال واحدا جوار الآخر عارضة شتى السلع والخدمات، تكونت حلقات الباعة، وتمددت كروش الرجال معبرة عن بحبوحة عيش خلفتها أرباح التجارة، ولم يعد غريبا أن نجد مطاعم سوشي، وكافتيريات فخمة، وأماكن ترفيه مبهرة في هذه المدينة البعيدة عن العاصمة.

جاءتني مُني تسعى على استحياء، لتسألني في تردد إن كان لدي مبلغ فائض تقترضه لنهاية العام، حيث ترغب في دفع أقساط متأخرة على سيارة زوجها الذي

انتابته نوبة تعثر بسبب ظروف المعيشة. كُنا قد اتفقنا على اختطاف ساعتين دردشة بعد طول غياب في ظل تقلبات ظروف الشغل. قلت لها في مودة تستحقها: *'مفيش زي الزوجة المصرية، مُخلصة بجد. شايلة هم مصاريف البيت والعيال وبتجري ورا جوزها تسدد عنه. قطع الحب وسنينه".*

- *"الحقيقة يا فيروز هو يستاهل".*

- *"يا رب يا مُنى.. قولي لي عاوزة كم؟".*

- *"خمسة وعشرين.. هارجعهم آخر السنة أول ماخد الجمعية".*

- *"بس كده. ماشي رغم أني آخر السنة دي مش هاكون هنا".*

- *"برضه. مُصره تسيبينا".*

- *"صوت المستقبل يا مُن مُن. العلم الحقيقي بره البلد دي".*

تعمل مُنى منذ تخرجها في كلية الحاسبات، مصممة مواقع إلكترونية في شركة خليجية لها فرع في مصر، لكن مُعظم عملها يتم عبر الدوام الرقمي من المنزل، أما زوجها عُمر كريم، فيعمل بالمحاماة، ولديهما ولد وبنت توأم في الصف الأول الابتدائي.

قالت لي إنها تشعر بالملل وترغب أن تفضفض معي كما كانت تفعل قبل ست سنوات. تذكرت جيدا تاريخا من الفضفضة جمعنا مُد تصادقنا في المدرسة الثانوية قبل عواصف يناير 2011 التي بدلت كل شيء. فقبل

سنوات، وعلى بعد خطوات من هُنا، في كافيتريا أخرى صغيرة خططنا معا للإيقاع بـ"عُمر" الذي أحببته هي منذ رأته للمرة الأولى في المكتبة الكبرى يسأل عن روايات إليف شافاق. أخبرته "مُنى" أن "إليف" هي كاتبتها المفضلة، وأنها منذ قرأت "قواعد العشق الأربعون" وهي تلتهم كل ما يقع في يدها لهذه المبدعة الاستثنائية. وزارتني وقتها لتنتزع من مكتبتي ثلاث روايات لأورهان باموق، وإيزابيل الليندي، وجوزيه ساراماجو لتهديها له ونُثبت له أنها مثقفة كبيرة مثله. كان أطيب ما جذبها في "عُمر" أنه يطبع على وجهه ابتسامة دائمة لا تفارق شفتيه. وكُنت مثلها أكره الرجل النكدي، ما جعلني أشجعها على فرصة نادرة للاقتران بهذا الرجل الاستثنائي بين جنسه.

جلست تُفضفض لي عن تكلس المشاعر بعد ست سنوات زواج، وانشغال الطرفين بهموم أكل العيش، وتداخل أوقات العمل، والملل من الاعتياد. قالت لي وهي تمصمص شفتين مكتنزتين تناسبان وجها طفوليا:

- *"حتى العلاقة بقت كل فين وفين.. وباحس إنها مطفية وسريعة".*

سألتها كيف تقاوم؟ فردت بكلمة واحدة أحببناها ولاحقناها أنا وهي لسنوات طويلة، وهي القراءة. قالت لي مبتسمة:

- *"لو حبيت أجدد ذكريات أيام الحب، وأفكره بوجودي، باقوله الرواية دي تحفة ولازم تقراها وأديله رواية جديدة تكون لسة طالعة، فيرجع يتكلم معايا عنها*

ونفتكر أيامنا الجميلة".

زارني قول صديقي المُتنبي "أعزُ مكانٍ في الدُنى سرج سابح.. وخير جليس في الزمانِ كتابٌ" وتذكرت كيف حفظت البيت بعد مناقشة مطولة مع جدي أنبأني فيها أن السفر والقراءة غيرا حياته كلها.

قُلت لجليستي، وأنا أنظر في قائمة السوشي:

- "تاخدي إيه؟ أنا عازماك".

اخترنا معا بضع قطع متنوعة من هذه الأكلة اليابانية الشهية التي تُشعرنا برياح العولمة حيث نبتنا في ظلالها، قبل أن تفتح معي محاورة معتادة تحاول فيها إثنائي عن قراري بالسفر، مُلمحة أن جدي لن يحتمل صقيع أوروبا.

قلت لها، وقد حسمت جميع أموري:

- "أنا درست موضوع جدي بعناية شديدة. لازم أقولك إن جدي دا هو كل شيء ف حياتي. مش ممكن أكون ف حتة وهو في حتة. أنا مشفتش أمي لكن شفته هو، كان أمي وأبويا وأستاذي. طبعا فكرت زيك ف الأول وقلت مش هيرتاح ف إنجلترا، والجو برد، لكن لما بحثت وسألت كويس لقيت إن حياته ف المنصورة محدودة جدا ومبيعملش حاجة غير أنه يشوف أفلام قديمة ويسمع أم كلثوم ويتكلم معايا. وتقريبا بطل يخرج م البيت حتى لصلاة الجمعة. أنا هوفر له كل ده في إنجلترا، وكمان هتبقى في رعاية صحية أحسن بكتير. هناك كمان في نوادي للمسنين وللمثوبين

يدردشوا سوا، وهو داخل على التسعين لكن دا هناك عادي".

- "وباباك؟".

- "اتعود أنه ميعترضش على حاجة وبقاله فترة ما بيسمعنيش إسطوانة الجواز والعيشة في الخليج. تقريبا رمى طوبتي".

نظرت إلى محمولها، فضحكت على رسالة كوميك ساخر وصلت إليها تظهر فيها فتاة مغتاظة ومكتوب تحتها 'حبيت أعمل لنفسي مفاجأة جبت علبة شيكولاتة وحطيتها عالباب، فتحت ملقيتهاش".

وعلقت قائلة:

- "الناس مُصرة تضحك وهي بتموت م العذاب. تقريبا مفيش شعب بينكت على نفسه زينا".

جاريتها الابتسام بعد أن نظرت إلى الكوميك المضيء بهاتفها ثم عُدت لقصة السفر مُعددة مزايا المنحة لأقول:

- "بصي يا مُنى: المنحة دي بالنسبة لي طاقة نور، وطوق لنجاة. هي فرصة حقيقية أرتاح م السحلة اللي أنا فيها، وأتعلم بجد وأشوف ناس تانية ومجتمع مختلف. أبني نفسي، وممكن هناك ألاقي نصي الغايب، وحتى لو ملقيتش مش مشكلة. راحة البال أهم م الجواز. برضه نفسي أرجع للدكتور شديد، وأنا شديدة زيه وأثبت له تفاهة كلامه عن الستات".

هزت صاحبتي رأسها الذي بدا لي كأنه كبر كثيرا منذ أيام المدرسة بفضل إيشارب ليكرا غطى نصف

شعرها البني. والتقطت قطعة سوشي مقلية، وكررت قولها بأن أسوأ ما في الأمر أنها ستفتقدني.

سرحت قليلا ثم قلت لها:

- *"عارفة يا مُنى في حاجة غريبة باحس بيها من فترة. رغم أن كل الردود اللي جت لي بخصوص المنحة إيجابية والمفروض خلال أقل من شهر تكون كل الأوراق جاهزة وسليمة، بس أنا حاسة إن ف شيء تاني أنا مش عارفاه رابطني هنا، وإني مش هأسافر بسهولة".*

- *"تفتكري السياسة؟".*

مصمصت شفتيّ في امتعاض وقلت:

- *"لأ طبعا. إنتي عارفة. أنا رميت طوبتها من زمان".*

***

شكى لي الطبيب المستجد حسام بليغ تبلد مشاعره بعد قضائه شهرين فقط في العمل بالمستشفى. قص عليّ واقعة وفاة امرأة بين يديه قبل أيام وأخبرني أنه كان فيما مضى يهاب الموت، ويشعر بكآبة شديدة عندما يشهده، غير أنه شعر بأن السيدة البالغة من العمر خمسا وسبعين عاما ارتاحت بخروج آخر نفس وسكون خلاياها تماما كما لو كانت دُمية توقفت بطاريتها. جس يدها بأصابع مرتعشة بحثا عن بقايا نبض دون جدوى. استخدم كل الحيل البروتوكلية لإنعاش القلب دون جدوى، وتركها لعشرين دقيقة ساكنة كمقبرة، ثم عاد لها، وامتدت كفه لتُغمض عينيها في برود، ثم

قلب تقريرها المعلق بجوار فراشها كعلامة وفاة. بين لحظتين لا يُمسكهما المرء تنفلت الحياة، فتجف الدماء وتنسحب الرؤية ويتلاشى الوعي. سألني مُترددا إن كنت أؤمن بالآخرة، فهززت رأسي بالإيجاب، ثم قلت له بثقة: *"دي فرصتي الوحيدة أشوف أمي"* وأضفت حاكية كما لو كان صديقا: *"عمري يا حسام ما شفتها. عرفتها بس من حكايات جدي عنها"*.

تغير وجه حسام، وصوته، وأداؤه عن اليوم الأول الذي استلم فيه العمل. غابت البسمة، وتلاشت نظرات الأمل والجدية، وصار كلامه متقطعا، وكأنه طفل صغير يتدرب على الحديث. فارقته الحيوية، وانكسرت نظراته، وانتابته رعشة خفيفة كلما سمع اسم الدكتور شديد على لسان أي من الممرضات. كان وجهه يحمر خجلا كلما داعبته إحداهن بسؤاله عن نواياه في الزواج، وصار وجهه جافا بلا لون كتمثال من الشمع. ضبطته يوما في غرفته وهو يدلق رشفات من "فودكا فولجا" في جوفه فعلمت أنه استقل مبكرا قطار السُكر سعيا لتهدئة الأعصاب.

كان أطيب ما في هذا الطبيب الذي يصغرني بثلاث سنوات أنه مثلي يحب القراءة لكنه لا يتابع الروايات الحديثة، وانما كتب السير والمذكرات، وأحيانا الفلسفة. حكى لي أنه ثالث ثلاثة حظوا بتربية مدللة من والدهم التاجر الثري الذي يسيطر على نصف تجارة الأدوات الصحية في المنصورة. اتجه شقيقاه إلى البزنس، فاكتفيا بتعليم متوسط، وأقام الأول مطعما كبيرا على الطريق

الزراعي، وأنشأ شركة لتجارة المنتجات الغذائية، وافتتح الثاني مركزا رياضيا كبيرا في المدينة المزدحمة، أما هو فقد فضل طريق العلم فتفوق، واختار كلية طب عين شمس ليدرس فيها، ويتخرج فيها، ثم يعود إلى مسقط رأسه مكلفا بالعمل في مستشفى مدينته.

"نادم؟" سألته وأنا أقرأ في وجهه ملامح الاكتئاب، فرد بشكل قاطع: "لأ"، ثم سكت قليلا، وعاد ليقول لي: "*لكن لو رجع بي الزمن تاني مكنتش درست طب. كنت اخترت دراسة السينما، وكملت بره مصر، وبقيت مخرج كبير*".

بدا حسام ككتلة كبيرة من المتناقضات. يبحث عن البهجة، ويشعر بالخوف الدائم من المجهول. لا يتأقلم سريعا مع من حوله، ويخجل من كل الناس، ورغم ابتعاده التام عن الدين، فإنه يؤمن أن الإنسان خلق ليتعذب. يحب القراءة، لكنه يمقت الإمساك بالقلم، ويسخر من أي طبيب يكتب خواطره. يتعامل بآلية اللوائح في علاج المرضى ويخاف من تحمل المسئولية.

قالت له مس نبيلة مداعبة، وهي تتحسس عظام كتفيه بخبرة امرأة مجربة:

"*لازم يا دكتور تدخل دُنيا. أنت محتاج واحدة شاطرة تأكلك أكل حلو نضيف بدل الساندوتشات اللي بتجيبها، تسمنك شوية، وتروقك كده وتدلعك. ما هو الراجل عندنا لو ما ادلعش ميعرفش يشتغل*".

وتابعت محاولات قنصه قائلة: "*أنا عندي لك بنوتة محصلتش. بنتي مُدرسة شاطرة وقمر. وسطها ده مرسوم*

رسم. بياضها يمكن أكتر من البالطو اللي أنت لابسه، وشعرها حرير نازل لحد الهنش".

تلعثم الطبيب الشاب، وأشاح بوجهه مكررا بصوت خفيض: *"مبفكرش في الجواز دلوقتي"*، وهرب مدعيا المرور على العنابر.

ضحكت مس نبيلة لتبدأ جلسة تميمتها المعتادة معي، فحكت لي كيف رأت دكتورشديد يراقب مؤخرة البنت هيام وهي تتقصع أمامه، وعلقت بأنها تلاعبه حتى يمنحها إعفاء من التوقيع والعمل مثل باقي الممرضات، ثم أسرت لي بأن هذه البنت تحديدا ليس لديها مانع أن تمنح الرجل قبلة أو حضنا مقابل ذلك. وحكت لي عن نبيهة، مريضة الفشل الكلوي، التي طلبت منها الاتفاق مع طلبة الطب القادمين للتدريب العملي ليتابعوها وتخبرهم بمرضها مقابل مئة وخمسين جنيها عن كل طالب، وعرضت عليها نسبة الثلث. وكلمتني عن أختها التي استسمحت طبيب العظام بالعيادة الخارجية ليصرف لها مضادات حيوية لتعطيها للصيدلي صاحب البيت الذي تقيم فيه مقابل إيجار شقتها. ثم همست لي بأنها تشك أن زوجها النقاش يتعاطى الأفيون، وأنها شعرت بذلك وهو يعاشرها آخر مرة. وعادت مس نبيلة تتحسر على بكريتها التي ذبلت وتكرمش جلدها لأنها لم يمسسها رجل، فعلقت على قولها ضاحكة: *"يا ولية بطلي فتي.. بنتك دي لسه صغيرة. دا أنا أكبر منها"*. لكنها هزت رأسها قائلة: *"إنت حاجة تانية يا دكتورة. مهما كبرتِ ما يبانش عليك.*

العز بيفرق برضه" قلت لها: "بس أنا وبنتك أحرار يا بلبلة. الحرية دي شيء عظيم جدا. ستنا فيروز بتقول إيه. بتقول: يا حرية يا زهرة ندية يا طفلة وحشية"، ثم دندنتها بصوتي قبل أن يرن هاتفي حاملا اسم أم إبراهيم لتندلع حرائق القلق في قلبي. ضغطت الزر لأسمعها تنبئني بأن جدي انتابته حالة هذيان غريبة وسأل بإلحاح شديد عن سيدة تدعى "سناء"، قبل أن يدخل في نوبة بكاء متواصل، وقالت بأنني يجب أن أحضر ليهدأ قليلا. طمأنتها بعد أن تذكرت أنني أحصيت شرائط أدويته دواء دواء قبل نزولي عصرا، لم ينس حبة "كونكور" أو "جاسبرين" أو "بلافيكس" أو "فاكساتو"، ومنحني ابتسامة محبة معتادة، ونظرة إعجاب رائقة وقال لي بيت المتنبي الشهير: "من كان فوق محل الشمس موضعه.. فليس يرفعه شيء ولا يضع".

قلت لنبيلة: " بلغي دكتور حسام إني عندي حالة طارئة ف البيت، وإني هاضطر أنزل أطمن على جدو وهارجع تاني". سألتني باهتمام: "هو تعبان ولا إيه؟"، فأجبت قائلة: "الظاهر كده رغم إني متابعة حالته كويس. بس السن له أحكام".

***

كان صامتا كجدار مهجور منذ زمن الحرب. قياس الضغط طمأنني، غير أن وجهه ظل غائصا في لجج الحزن. رسمت الدموع خطين بنيين على خديه المكرمشين. نظر لي في ذهول ولم ينطق. سألته ما به. لم يرد. وجلت أن يكون قد فقد نطقه نتيجة ذكرى عابرة

أو اكتئاب مفاجئ. قبلته، واحتضنت رأسه في حنان، فتجددت الدموع على محجريه، وبكى بصوت متقطع ثم لم يلبث أن سكن مُرتاحا لرأسه بين ذراعي. لم ينبس بكلمة، وغفل وأنا أهدهده وأغني له بترقيق مقطعا من أغنية لفيروز تقول فيها "هل تحممت بعطر؟ وتنشفت بنور؟".

أخبرتني أم إبراهيم بما حدث لجدي. كان جالسا في الشرفة يتناول شايا، وقرأ قليلا في مصحفه، ثُم دخل غرفته وقلب بعض أوراقه، وعاد إلى الشرفة، وهو يتحدث في الهاتف. ثم جلس لساعة ساكنا يتأمل السماء، وسمعته السيدة يتحدث إلى شخص غير موجود، فشعرت بالقلق عليه، ودخلت تسأله إن كان يرغب أن تقطع له تفاحة، فوجدته يبكي ثم نادى على امرأة غير موجودة باسم "سناء"، وازداد نحيبه مع الوقت، وانحبس صوته تماما.

جلست أفكر فيما طرأ على صاحب القلب الطيب، والعقل الفذ، السارح في الجمال، والناعس في فراش المعارف، حبيبي، وصديقي، وجدي، وكل شيء، كل شيء. لا أصدقاء له، فآخر صاحب مقهى له رحل إلى الدار الآخرة يوم تنحي مُبارك، ولا أقارب ألبتة، فما علمته وتربيت عليه كونه مقطوعا من شجرة، وأنه عندما سافر في الستينيات انقطعت وشائجه مع الجميع، وعاد آخر، جديدا كوليد. ورغم أدبه وأناقته ولباقته، لم يختلط الأستاذ حمد بجيرانه، وظل يتردد على المقهى للعب الطاولة لبضع سنوات قبل أن يزهد الخروج تماما

ويُفضل البيت وجدرانه وشرفته، ويكتفي بوجهي ووجه الخادمة. وحتى هاتفه الصغير غير الذكي، فلم يسجل به سوى أرقام البواب، والصيدلي، والحلاق، ومُنى زين الدين، وبابا، أما رقمي فيحفظه كما يحفظ اسمه. هل كان بالفعل يتحدث لأحد؟ ومَن هي سناء التي يناديها؟ وهل هي حبيبته الأخرى؟ ولم لا أرى صورة واحدة لجدتي ثريا التي ماتت وهي تلد أمي؟ ولماذا هو مقطوع من شجرة تماما؟ ولم بذل كل ما يستطيع من أجل أن يُريني؟ وكيف اكتفى بصحبتي عن العالمين؟

ذهبت إلى مكتبته علني أجد جوابا. رُصت المجلدات بتنميق يُعبر عن محبة حقيقية للكتب. كان هذا الرجل في شبابه وأواسط عمره مُتيما بالقراءة. نظرت إلى الصف الأول في أدنى رف لأجد مجلدات تاريخ الطبري، متجاورة مع البداية والنهاية، وخلفهما تراصت أجزاء ألف ليلة وليلة، والأغاني، والعقد الفريد، ودواوين المُتنبي، وأبي العلاء، والشريف الرضي. في الصف الأعلى انتبهت لطبعة قديمة من كتاب تاريخ الجبرتي، وكتاب قصة الحضارة لديورانت. فتحت الضلفة الموصدة لأرى صفوفا من الكتب والمجلات والصحف المكدسة، ميزت بينها بعض روايات الهلال الصادرة في الستينيات والسبعينيات، وكُتب حلمي مراد، والسلسلة الاشتراكية، فضلا عن أعداد من مجلات "روزاليوسف"، و"صباح الخير"، و"المصور"، و"أقلام جديدة". لم يثر أي شيء لافت انتباهي، فعدت إلى غرفة نوم جدي لألقي نظرة على هاتفه الصغير،

الذي أمسكت به واستدعيت المكالمات الصادرة لأجد بالفعل اتصالا وحيدا برقم غريب غير مسجل، قمت بنقله لهاتفي، ثم راجعت اتصالات الأيام السابقة، فوجدت الرقم يتكرر معي كثيرا. بعثت برسالة صوتية لبابا سألته فيها عن أحواله وصحته، ثم سألته إن كانت المرحومة أمي أخبرته بأي شيء عن جدتي ثريا، وكررت له السؤال المحير عن سبب عدم وجود صورة واحدة لها. بعثت برسالة صوتية أخرى لمنى وأخبرتها بما حدث، وغازلت شعيرات الشغف لديها، فصارحتها بأنني أشعر أن جدي يخفي سرا عظيما. دلفت غرفة الرجل الناعس مرة أخرى وتناولت مفكرته الصغيرة التي يدون فيها أسماء موتاه ليقرأ لهم الفاتحة كل يوم، وشعرت أنها المرة الأولى التي أفتحها. سريعا قلبت الصفحات وصولا لحرف الثاء، وكما توقعت لم أجد اسم ثريا، ثم ذهبت إلى صفحة السين لأجد اسم سناء مكتوبا بلون أحمر، وبخط طفولي يدل أن جدي كتبه حديثا بعد أن سكنت الرعشة أصابعه.

حادثت شيطاني لأرسم سيناريو خياليا افترضت فيه أن اختفاء ثريا أو جدتي التي لا أوقن باسمها من حياة جدي حمد في مطلع الستينيات لم تكن طبيعية. سألني الشيطان هل من الممكن أن يكون وراء الأمر جريمة ما؟ خيانة مثلا؟ هل قتلها، ثم سافر إلى الكويت؟ هل انتقم لشرفه وهو ابن لمجتمع بدوي؟ هل ندم بعد ذلك، وشعر أنه تسرع في حكمه وأنه لم يتيقن من جرمها؟ هل أنا أمام شخص آخر غير الذي عرفته عمري كله؟

استبعدت الطرح وقلت لذاتي إن هذا الرجل نموذج مثالي للسماحة والعفو، وأنا شخصيا لم أره سوى موصول بالسماء، ساعيا للخير. إنه لا يُمكن أن يكون قاتلا بظلم، ولا بحق أيضا. لكن ذهني عاد متشيطنا ليسأل ما الذي جد لديه ليطلب الصفح من هذه "السناء" بعد مرور سنوات طويلة على وفاتها؟ فكرت وفكرت وانتهيت إلى أن رقم الاتصال المجهول على هاتفه ربما يحوي السر. الصباح رباح كما يقولون. سأتصل وسأعرف كل شيء.

جددت تعليماتي للصبورة أم إبراهيم، وأعطيتها عقار" أوركاليون" لتعطيه حبة واحدة بعد كوب حليب دافئ في الصباح الباكر. أعددت كوبا من النسكافيه، حملته معي إلى سيارتي وعدت إلى نوبتي الليلية في المستشفى، فأنا أحتاج كلمة "ممتاز" في التقرير الدوري، المفترض أن أرسل منه صورة لجهة المنحة. وتذكرت وقتها فقط حلم إنجلترا ورحلة العلم المنتظرة، وخطتي لاصطحاب جدي معي، وتوجست أن تفسدها قصة "سناء"، هذه المرأة الغامضة التي ظهرت فجأة في حياة حمد نور الدين أيوب، معلم اللغة العربية الفصيح الذي حفظ مئات القصائد واستوعب آلاف الصفحات من السير وقصص التاريخ.

***

من باب المواءمات العملية استشرت رئيس القسم في حالة جدي بناء على نصيحة زميلي حسام بليغ، لأن استشارة الدكتور شديد هنا تعني أنني أعترف له بكفاءة ما، على عكس ما يشيعه البعض بأنني أستعلي عليه. كما

تلزمه الاستشارة أديبا بتخفيف سلسلة التكليفات اليومية الموجهة لي من باب الواجب الإنساني من رئيس تجاه مرؤسه في حال مرض أقرب ذويه، فضلا عن كونها تساهم في نفخ بالون الذكورة المبهج داخل نفسه. بالفعل ابتسم الرجل ذو الجسم المكور، والصلعة الملساء ابتسامة رضا، وأخذ يُعدد لي أمارات ألزهايمر وسلسلة الأمراض النفسية الواردة لكبار السن، لكنه توقف بثقة الخبير المخضرم عند ملاحظة صحيحة تشير إلى وجود الشخصية المكرر اسمها في الواقع حتى لو كان صاحب الحالة يذكرها لأول مرة.

جاءني اتصال صباحي من الدكتور عبد العزيز الصاوي، والدي البعيد، المنشغل دائما، والمُقتنع باستحالة العيش في مصر. سألني عن جدي، وعما حدث، ثُم أخبرني بأنه لم يعرف أحدا من أقارب جدي سوى أمي، المرحومة نادية. أما جدتي فلم يرها لأنها توفيت فور إنجابها أمي. أخبرني أنه لم ير أبدا صورة لثريا، وعلق بأن ذلك منطقي لأنها توفيت في مصر، بينما تعرف هو بجدي في الكويت. ثم خلص إلى أن جدي رجل محترم، وطيب واستخدم مصطلح "ولي من أولياء الله الصالحين" في وصفه.

جربت الاتصال بالرقم الذي نقلته من هاتف جدي، فلم يرد، وأعدت المحاولة مرتين ولم أتلق إجابة، ثم بحثت عن اسم صاحب الرقم المسجل إلكترونيا فظهر لي اسم "الحاجة".

قضيت نهارا ثقيلا في العمل، مررت خلاله على

مرضى الحالات الحرجة، وتابعت تقاريرهم اليومية، ثم قفلت إلى البيت، لأجد مُنى تنتظرني أمامه ووجهها مخطوف، غير أنها اصطنعت ابتسامة طمأنينة وقالت لي: *'قلت أشوفك وأطمن على جدك"*، ثم أردفت في تلقائية عودتني عليها: *"واحشني الرجل الأمور ده. قلت لازم ابوسه"*. وأضافت ونحن نصعد معا في المصعد في محاولة للتخفيف عني: *"إنت عارفة أنا محرومة م البوس. كل ما باشوف عُمر بالاقيه مشغول. ف حتة تانية"*. وواصلت صديقتي كلامها قائلة: *"بيتهيألي جدك دا وهو صغير كان أجمل شاب ف مصر. وأكيد أي واحدة كانت بتتهبل عليه"*. سألتني عن الرقم الغريب الذي شككت فيه، فقلت بأن صاحبه لا يرد، فجربت هي الاتصال من هاتفها، فرد صوت هادئ لامرأة، فقالت مُنى إنها تسأل عن الدكتور عزت، ثم تأسفت لخطئها في ضرب الرقم. ونظرت نحوي، وقالت: *"أديها ردت عليّ. صوتها مريب جدا بس أكيد وراها سر"*.

جلسنا في الشرفة بعد أن منحتني أم إبراهيم تقريرا شاملا مفاده استيقاظ جدي في السابعة صباحا، ثم تناوله فطورا مثاليا دون كلمة، ولم يخرج كعادته إلى الشرفة، بل استلقى مرة أخرى ودخل في نوبة نوم جديدة بعد أذان الظهر.

قُلت لمُنى: *"تفتكري الست اللي ردت عليك دي هي سناء اللي بيتكلم عنها جدي؟"*. ردت بنبرة تقصي، وكأنها أجابا كريستي: *"لأ. دا مستبعد طبعا. سناء دي غالبا مش موجودة عشان كده بيطلب تسامحه. لو هي*

دي كان هيطلب منها علطول". شخصت مُنى ببصرها بعيدا وكأنها تُفكر، ثم قالت لي: "بُصي يا فيروز. لو حبيتي تخلص لك الموضوع بسرعة. بس دا طبعا هيدفعك تخلي للحظات عن مبدأ مهم ف حياتك، وهو احترام الخصوصية".

- "مش فاهمة".

- "يعني تسمحي لي أدخل أنبش ف مكتبة جدك وأقلب في ورقه يمكن ألاقي حاجة، وطبعا أنت نيتك هنا مساعدته وعلاجه لو في أي شيء يأثر على حالته النفسية لازم تعرفيه".

حاولت التهرب قائلة:

- "ما اظنش هتلاقي حاجة مهمة. أنا بصيت إمبارح على الكتب والروايات القديمة ومفيش حاجة لفتت نظري".

قالت:

- "يا فيروز يا حبيبتي: صاحب المكان دايما أعمى. عشان أنت متعودة على منظر الكتب والمجلات صعب تلاقي حاجة. أنا غريبة، والغريب بيشوف أحسن".

فكرت لبرهة ثُم قلت لها:

- "تاكلي شاورمة؟".

قالت: "آكل".

قُلت: "هابص على جدو وأحضر لك شاورمة نعمل سندوتشين تكوني بصيتي بصة".

ابتسمت. وغادرت مُسرعة.

مسحت وجه جدي بمنديل رقيق ليمتص عرقا مُتصببا على جبهته وخديه. انفتحت عيناه قليلا، لكنه بدا غاصا في النوم. لم ينطق، وشعرت أن قسمات وجهه أقرب للابتسام. قبلته وقُلت له هامسة: *"مالك يا حبيبي. في أي حاجة تعباك. قولي. أنا بنتك"*. هز رأسه قليلا، وكأنه يقول لي أنه يعرف. أمسكت يده وقبلتها وكررت *"اتكلم يا جدو. قولي كل اللي عاوزه. أنت تؤمر امر، وأنا هاعملك كل حاجة"*. ابتسم وفتح فمه محاولا الكلام، لكن صوته ظل مُنحبسا، وتصورت أنه ينطق بصعوبة حروف *"ســـ نـــــ اء"*، فقلت له سائلة: *"مين سناء دي؟ مش تيتا اسمها ثريا؟"*، هز رأسه نافيا، وانهمرت دمعتان على خديه وقبضت يمينه على يدي.

"جدو تعالى نقوم نقعد شوية ف البلكون. هناكل شاورمة ونشرب شاي وهافرجك على تسجيل لحبايبك". كان أحباب جدي الذي سعد جدا بظهورهم على يوتيوب هُم "طه حسين"، و"توفيق الحكيم"، و"نجيب محفوظ" في اللقاء التاريخي الذي نظمه "أنيس منصور" في الستينيات وصوره التلفزيون وعرفه الناس مجددا بعد ميلاد تطبيق "يوتيوب". ابتسم جدي لكنه ظل صامتا، ثُم رجع بظهره قليلا للخلف، واستلقى مرة أخرى على الوسادة، ولم يلبث أن أغمض عينيه، وذهب في سبات جديد.

سكنت مُتفكرة، وسرحت في رحلتي المرتقبة إلى بلاد الإنجليز. لو تطورت الحالة، سيكون صعبا أن أسافر به

إلى هناك. تذكرت قول صديقي المُتنبي "*جمح الزمان فما لذيذ خالص .. مما يشوب ولا سرور كاملُ*". لم أتمن أن أخيّر بين طموح جامح وعاطفة تُمسك تلابيب القلب وتُسيره كيفما شاءت. من قبل اخترت جدي بدلا من والدي رغم بحبوحة العيش في ظلال الوالد، إيمانا بأن الحنان الفائر من عيني إنسان تجاهك أعظم من ثروات الدنيا، وأن الحياة منقوصة الرفاهية، والمُزدحمة بالضجيج والهموم إلى جوار مَن تحب يُمكن قبولها واستيعابها. منحت الجسد النحيل المُمدد بصوت أنفاسه المسموعة نظرة محبة حقيقية.

جاءني صوت مُنى صارخا من الغرفة الأخرى "*فيروز فيروز.. تعالي بسرعة*". وجدتها مشرقة الوجه، منكوشة الشعر، مفترشة الأرض، وإلى جوارها روايات قديمة ومجلات وصورة فوتوغرافية صغيرة لامرأة جميلة لها عينان ساهيتان، ونظرة اعتزاز غريبة. حملقت في الصورة، ونظرت لصاحبتي مستفسرة فأنبأتني اكتشافها قائلة:

- "*سناء بكاش.. حبيبة جدك القديمة كانت كاتبة شهيرة جدا.. ولها روايات كبيرة*".

- "*مين سناء بكاش دي؟*".

- "*صاحبة مجلة فنية كان اسمها "أقلام جديدة" وكتبت روايات وكتب وأفلام. ودي صورتها. واضح أنها كانت جميلة جدا*".

رمقتني صاحبة الصورة بعينين ماكرتين، شعرت معهما أنها تحوي حكايات وحكايات، وبدا وجهها مُشرقا

مستبشرا وجميلا.

فتحت لي مُنى مجلة من المجلات القديمة، ثم قالت لي:

- "بُصي ف حاجة غريبة جدا. المجلة دي كان بيكتب فيها جدك. بس واضح أنه كان بيكتب باسم مستعار أو إنهم يكونوا غلطوا ف اسمه".

نظرت إلى المجلة فقرأت اسم أحمد نصر الدين أيوب.

قُلت مستغربة:

- "فعلا في لُغز مُحير في الموضوع. لو دا اسم مستعار، ليه يغيره التغيير البسيط ده؟ ليه غير من حمد نور الدين أيوب لأحمد نصر الدين أيوب بس؟".

سرحت أفكر وتابعت أسئلتي قائلة:

- "لكن فين ثريا دي؟ هي فعلا حاجة غريبة. لو قلت إن جدو أصلا من البدو وجه القاهرة وساب أهله ومقطوع فعلا من شجرة. طيب فين بقى عيلة جدتي؟ مفيش إخوات لثريا أو أولاد اخوات. إزاي؟".

ابتسمت صديقتي واكتسى وجهها بحمرة التوهج وقالت:

- "أخيرا لقيت لُغز نستخدم قدراتنا العظيمة في حله. متقلقيش يا فيروز. زي ما بيقول أصدقاءنا اللبنانيين: أنا حدك".

***

سألت مُحرك البحث العبقري "جوجل" عن سناء بكاش، فلم أعثر على شيء. بحثت عن اسم "بكاش" فوجدت إشارات قليلة تشير إلى عائلة لها فرعان في

المنيا وأسيوط، وذكرت الإشارات أن العائلة اشتهرت بتخريج علماء الأزهر، وأن بعضهم تولى مناصب القضاء الشرعي خلال عهد محمد علي باشا. كتبت اسم مجلة "أقلام جديدة" فلم تظهر مجلة بهذا الاسم. راجعت قائمة الكتب التي وجدتها في المكتبة تحمل اسم الكاتبة وعددها سبع كُتب، وفشلت أيضا في العثور على شيء. بدا لي أن محرك البحث لا يعترف بوجود هذه الكاتبة الجميلة. استجبت لنصيحة زميلي الطبيب غريب الأطوار حسام بليغ بتصوير الصورة التي عثرنا عليها وعرضها على جروبات الثقافة على مواقع التواصل سائلة إن كان أحد يعرف هذه الكاتبة، فليرسل لي على الخاص، لكن أحدا لم يقدم شيئا سوى محاولات دردشة من صائدي الفتيات انجذابا لمصطلح "القارئة الشريرة" الذي يحمله حسابي.

عُدت إلى كُتب الكاتبة، وأعدت تصفحها، كان الأول بعنوان "بحث في السعادة" وبدا عرضا مجمعا لمقولات الأدباء والكُتاب عن تصورات كل منهم للسعادة، لكنني استغربت أن أجد في مقدمته كلمة للشاعر إبراهيم ناجي تحمل ثناء على الكتاب. نظرت إلى ثاني كتاب فوجدته قصة شجر الدر، مُقدمة إياها باعتبارها ملكة حكمت مصر، وكان الثالث عن السيدة خديجة بنت خويلد، والرابع عن أشهر المساجد في العالم العربي، والخامس عن الشعر في العصر المملوكي، والسادس عن نفرتيتي، والسابع عن معركة حطين. بدا لي واضحا أن محتوى الكُتب ضعيف علميا إذ يعتمد على نقولات من كُتب أخرى بلغة غير عصرية تصيب

قارئها بالملل. حملقت كثيرا في صورة الكاتبة الموضوعة في الصفحة الأولى بعد الغلاف، فوجدتها واحدة، وإن اختلفت قليلا عن الصورة الفوتوغرافية المنفصلة التي وجدتها صديقتي. أمعنت النظر فوجدت المرأة تشبهني كثيرا. كانت تحمل عينيّ ذاتهما، ونظرتهما المرحة، وحتى تقاطيع الوجه تشابهت معي كثيرا عدا ميل صاحبتها للامتلاء قليلا. شعرت بأن هذه السيدة ترتبط بي جينيا، أكثر من ارتباط صورة أمي بي، فنادية أيوب أشبه بوالدها النحيل ذي العينين الزرقاوين، والحاجبين الكثيفين، والشعر البني المسترسل. هذه المرأة قد تكون جدتي، واسمها سناء بكاش، وكانت كاتبة مشهورة في زمنها، وامتلكت مجلة فنية، ومن مراجعة بعض أعداد المجلة وجدت أسماء كتاب مشاهير مثل حبيب جاماتي، وعبد الرحمن الأبنودي، وعبد المنعم شميس، وميكي ماوس.

عادت لي منى بعد غياب امتد ساعتين، قضتهما في مكالمات هاتفية، ثُم قالت لي: *"عرفت الخبر اليقين. سناء دي مواليد 1929، يعني أكبر من جدك بتلات سنين. وهي كانت مكسرة الدنيا في الأربعينات والخمسينات وأخدت جوايز كتير، ولها بعض الأفلام والمسلسلات الإذاعية. وتقريبا كانت هي وبنت الشاطئ بس اللي في الستات بيكتبوا ولهم كتب معروفة في الوقت ده".*

قُلت: *"غريبة عمري ما سمعت عنها. فاكرة يا مُنى إحنا قريبا عن مي زيادة، وعن درية شفيق، لكن دي*

معدتش علينا خالص".

- "صحيح بس في شيء مهم جدا لازم تعرفيه، ويمكن دا السر ف إن ملهاش ذكر".

- "إيه هو؟".

- "بعض الناس بتقول إن الست دي كانت شغالة في مجال العمل السري مع مؤسسات عُليا، واسمها موجود ف قضية انحراف المؤسسة بعد هزيمة يونيو 67".

سألت وكلي قلق:

- "شغالة إيه يا مُنى؟ مش فاهمة".

- "كل حاجة".

- Prostitute.

- "مش عارفة يا فيروز بالظبط".

سقطتُ من قمة الهرم الأكبر، تهشمت كبريائي فتافيت صغيرة أمام صديقة عمري. صفعتني أكف لم أستبن أيا منها ليدور رأسي عدة مرات، ويستدعي ذهني مشهدا قديما أذكره لسناء جميل في فيلم "بداية ونهاية" وبجينات مُسجلات يطوقنها، محتفلات بانكشاف فضائحها، ومُغنيات *"يا بلحة يا حلوة يا مقمعة.. شرفت إخواتك الأربعة".*

لاحت بلاد الشاحبين الباردة أمام عقلي كطاقة نور، ملجأ ضروري، وفرصة هروب. فكرت وفكرت أن المنحة الآن لم تعد اختيارا وإنما طريق حتمي. ففي هذه البلاد يُمكن كل يوم أن تدفع ثمن جرم ارتكبه

غيرك، وبين طرفة عين وأخرى تتلطخ صور لشخصيات مُحترمة، وتتطهر شخصيات مجرمة.

استجمع عقلي شجاعته لأفكك الموضوع برمته، فما قالته "مُنى" يبرر إخفاء جدي اسم زوجته الحقيقية طوال هذه السنوات، لكن السؤال المُهم هو لماذا تذكرها الآن؟ ولِمَ يطلب منها أن تسامحه؟

نظرت إلى "مُنى"، وسألتها عن مصدر معلوماتها، فقالت لي:

- "عُمر سأل كاتب يعرفه بيكتب ساعات ف التاريخ اسمه مصطفى عبيد، وقال له دي المعلومات اللي عنده".

قلت في ضيق:

- "عارفاه. دا رجل مغرور، وبيحب يلفت النظر بس. وجايز بيقول أي كلام".

- "جايز طبعا".

وعادت تقول:

- "عموما إحنا ما فيش حاجة تقف قدامنا.. زي ما اتعلمنا قبل كده. فاكرة يا فيروز لما قلت لك الحقيقة طريقها ف بلادنا وعر جدا بس موجود، والمطلوب إننا نتعب شوية، ونمشي فيه".

قُلت وأنا أغلي من داخلي:

- "مش عاوزة شوشرة يا مُنى. أنت عارفة الناس مستنية جنازة وتشبع فيها لطم".

ابتسمت في ثقة وقالت:

- *"متخافيش يا فيروز. محدش ف الأيام الصعبة دي فاضي يقلب ف حكاية واحدة كانت مشهورة من سبعين سنة. بس أنت لازم تعرفي الحكاية. من باب الفضول حتى".*

أشارت مُنى بطرف عين إلى جدي الذي استيقظ فجأة محاولا النهوض، فجريت نحوه مُحتضنة، ثم قبلته، فلم يحرك ساكنا، ثم لاحت منه نظرة إلى غرفة مكتبه المفتوحة، ولمح المجلات القديمة المفروشة على الباركيه، فأشاح بذراعه غاضبا، وأزاح ذراعي من فوق كتفه، ثم وخزني بنظرة لوم لأنني خالفت مبدأ هاما غرسه فيّ منذ الصغر، وهو احترام خصوصية الآخرين. حاولت تهدئته لكن وجهه ظل جامدا، ثُم جلس على سريره مرة أخرى، ولأول مرة فعلها أمامي، إذ رأيت البول يتدفق من جلبابه على الأرض، وكأنه يعترض على خطئي الذي دفعتني إليه مُنى قبل قليل.

تذكرت وأنا في الصف الثالث الابتدائي أنني سألت الخادمة الهندية المُقيمة معنا عن سر عدم صلاتها مثلنا، فلم تُجب، واحمر وجهها خجلا، فلما أنبأت جدي، نهرني وقال لي *"إن لكل إنسان شئونه الخاصة، وأن أسوأ ما يؤذي الآخرين هو كسر خصوصيتهم".*

نظرت إلى جدي الحنون وتساءلت ماذا يُخفي هذا الرجل الطيب؟ هل يُمكن لهذا الرجل أن يكون قاتلا؟ هل يُمكن أن يكون ظالما؟ هل عاش عمره كله يخدعني؟ هل كان حديثه الدائم والمبكر لي عن يوم

الدين مُجرد كلام لا يستند لإيمان حقيقي بيوم فصل وعدل تُرد فيه حقوق البشر جميعا؟ ألم يكن إخفاؤه سيرة جدتي ظلما لها؟

بدا جدي مُنغلقا كخزانة فارغة عتيقة، تتحاشى قسمات وجهه أن تبوح بأي شيء له معنى. انسابت من بين عينيه نظرات حزن طاغ مرير لا يُمكن أن أخطئه، وأنا التي حفظت تعبيرات وجهه مثل حروف الهجاء مُد ربط ضفيرتي وأنا صغيرة، ومسح بكفه الخشن رأسي محبة.

طيبت خاطر الرجل الذي طالما طيب خواطر بسطاء حولنا. نقلتني ذاكرتي لأحد أيام طفولتي عندما حكيت لجدي عن عاملة نظافة فقيرة بمدرستنا بالمنصورة تُدعى دادة فتحية، ألمحها كل يوم تبكي أمام الحمامات بسبب عجز زوجها المفاجئ، وكثرة عيالها. كُنت أحاول استدرارعطفه ليرسل معي مالا على سبيل المساعدة، لكنه أخذني إلى دولابه ثم فتش فيه عن جلبابين قديمين، وقام بقص أحدهما وقطع أزرار الآخر، وطلب مني أن أعطيهما للدادة فتحية في الصباح وأخبرها أنه يود لو قامت بإصلاح ما بهما من عيوب، مقابل مكافأة مناسبة. استغربت الفعل لكنه أصر، ففعلت ما طلب، فأعطاني في اليوم التالي ظرفا وضع فيه ألف جنيه وأبلغني أن أقدمها للدادة نظير عملها. أفهمني فيما بعد أن أفضل صدقة تُقدم لإنسان هي التي لا تنقص من كرامته شيئا، وأنه اعتاد اختراع أعمال وهمية لبسطاء حوله ليمنحهم نقودا كثيرة تحت باب الأجر

حتى لا يجرح مشاعرهم.

غنيت بصوت شجي *"زوروني كل سنة مرة"*، فابتسم جدي، وحاولت تشجيعه ليُغني معي لكنه اكتفى بهز رأسه تجاوبا مع الأغنية، عانقته مُنى من الخلف، فنظر إليها نظرة رضا، قبل أن تسأله في رقة: *"مين بقى يا راجل يا عسول سناء دي؟"*، ثم قبلته وأضافت: *"مش هتحكي لنا بقى عن مغامراتك"*. انفرجت أساريره، وبدا رائقا، وهز رأسه مبتسما، ثُم تحركت شفتاه، لكنه لم ينطق، وعاد إلى سكونه التام كحجر صوان لا يتفجر منه الماء. جالستنا مُنى حتى نعس، ثُم قامت مستئذنة بعد أن حاولت طمأنتي على الرجل الذي لا يعرفه على وجه الأرض مثلي، ولا يُدرك أحد سواي أنه ليس بخير.

عاودت الاتصال بالرقم الذي يحمل السر، فلم يجب أحد، فانتظرت دقائق واتصلت مرة أخرى فسمعت صوتا أنثويا رقيقا. قُلت لها: *"أنا الدكتورة فيروز الصاوي، وجدي هو الأستاذ حمد أيوب"*.

ران صمت للحظات قبل أن ترد صاحبة الرقم: *"قصدك الأستاذ أحمد أيوب"*. لم أفهم، وتذكرت المجلة ومقال جدي فيها، وسألتها بشكل واضح: *"هو حضرتك تعرفي جدي منين؟"*.

- *"دي حكاية طويلة أوي. بصي أنا مشوفتش جدك خالص. بس معايا أمانة تخصه.. هو ليه مبيكلمنيش؟"*.

- *"جدو تعبان شوية.. تقريبا دخل في حالة اكتئاب شديد وبطل يتكلم خالص، لقيت رقمك وحبيت أكلمك يمكن أفهم إللي مزعله"*.

تكرر الصمت كما لو أن صاحبة الصوت على الطرف الآخر تفكر بعمق ثم سألتني: "*هو أنت بنت بنته؟*".

أجبت: "*أيوة*".

قالت: "*طيب ممكن أشوفك يا بنتي.. هو كلمني عشان الأمانة اللي عندي بس معرفش يجي. أنا ساكنة ف القاهرة. ف عابدين*".

سألت: "*طيب الأمانة دي عبارة عن إيه؟*".

- "*ورق مهم.. مهم جدا*".

سألت ثانية وأنا أستجمع شجاعتي:

- "*هل الورق دا يخص الكاتبة سناء بكاش؟*".

ردت محدثتي على الفور بنبرة فرح:

- "*بسم الله ما شاء الله عليك. انت ذكية جدا، وشكلك عارفة، مع إن جدك قال لي من إسبوع إنك متعرفيش خالص.. عموما هاستنى توصلي وتكلميني. القصة طويلة. مش هتنفع ف التلفون. بس لازم أخلص ذمتي*".

- "*تمام. هجيلك بكره*".

***

قدمت وصاياي لأم إبراهيم وقبلت جبين رجل حياتي الأول، واتخذت قراري. سأتغيب عن المستشفى. هاتفت حسام بليغ، فبدا صوته مُرتبكا ومهموما وهو يحاول إثنائي عن تحميله بما لا يطيق. فكرت أن أحكي له وهو المهموم بسير البشر السابقين عن سيرة امرأة

الماضي التي انفجرت في وجهي، لكنني تذكرت ما أخبرتني به مُنى بأن سناء بكاش ربما تكون تورطت في أعمال مخجلة. حاولت أن أتدلل عليه، وقُلت له إنني أعتقد أنه رجل صلب يُمكن أن أعتمد عليه، لكنه حاول التملص مُكررا بأنه مُتعب ومهموم ولا يطيق أحمالا إضافية.

وقال لي حسام بنبرة تردد: *"الدكتور شديد أكد عليا الصبح مفيش أجازات. إحنا طوارئ"*. لم أقل له إننا منذ عملنا في هذه المهنة لم نفارق الطوارئ. طوارئ طوارئ طوارئ. ضغطت عليه كما يليق بطبيبة يُتيح لها السبق ولو بثلاثة أعوام أن تمارس حقا مسلوبا في التحلل من المسئولية لبضعة أيام. مننت عليه بأنني سبق وغطيت غيابه أكثر من مرة وأن عليه رد الخدمة، لكنه قال لي بوضوح:

"أنا مش المشكلة يا دكتورة.. أنت مش فاهماني. الدكتور شديد بيسأل عليك بشكل محدد، ولازم تراضيه عشان التقرير اللي انت محتاجاه المفروض يتكتب اليومين دول". طمأنته بأنني أعرفه وأجيد التعامل معه ولا أهاب ردود أفعاله.

أخبرتني مُنى بأن عُمر يرغب في توصيلي للقاهرة، فلديه أعمال هناك، فوجدتها فرصة لتجديد ثقافتي الأدبية باعتباره مرشدنا الأول في هذا المجال. بدا أنيقا ومهندما كرجل قانون كبير، وقاد السيارة بهدوء يليق بجلسة دردشة مطولة عن الظروف والحياة والبلد، قبل أن يخبرني مازحا بأنه يعتقد أن هناك خيرا كبيرا لي في

الطريق، ثُم ألمح أن يكون لسناء بكاش إرث كبير، وأنني الوريثة الوحيدة. قُلت له إن الإنسان يفكر دائمًا فيما ينقصه، فهز رأسه موافقًا، ثم شعرت أنني ضايقته مُذكرة إياه بظروف المعيشة الصعبة، أو مُلمحة لاستدانة مُنى المتكررة مني، فحاولت تغيير الموضوع، وسألته: "*هو انت عرفت فعلا امتى ماتت جدتي؟*".

فقال محاولا الحفاظ على نبرة المزاح: "*خلاص حكتي إنها جدتك؟*".

قلت ببساطة لا توحي بحجم الاكتشاف: "*دا اللي باين*".

فقال: "*بُصي مصطفى عبيد بيقولي إن مفيش تاريخ لوفاتها لأن نعيها منزلش ف الأهرام*".

اتفقنا أن يوصلني إلى عابدين، ثُم يتركني هناك حتى الرابعة مساء، ليمر عليّ لأرجع معه، وطلبت منه رقم مصطفى عبيد لأسأله المزيد عن جدتي، هذه الكاتبة المريبة العجيبة. أخرجت صورتها مرة أخرى ودققت النظر فيها لأقرأ في عينيها سحرا وأنوثة طاغية. مددت الصورة لعُمر لأسأله عن رأيه، فقال مقولته المعتادة للتعبير عن إعجابه بجمال المرأة "*أنثى مؤنثة*".

ابتسمت كما يليق بفتاة مسترجلة اخشوشنت بفضل دراسة الطب وملازمة المرضى وخدمة المستشفيات الحكومية، وقلت له: "*مُزه يعني؟*".

فهز رأسه مبتسما: "*آه مُزه يا فيروز. مُزه ف زمانها*".

سألته أن يُسمعني "ميس الريم" لفيروز، فمها أغوص

في التفكير العميق. تذكرت قبل عشر سنوات أو أكثر عندما سألت جدي عما منعه من الزواج بعد رحيل زوجته ثُريا مبكرا، وهل كان دافعه حرصه على أمي، نادية التي لم أرها هو ما جعله يستبعد الفكرة؟ وقتها قال لي بشكل قاطع: *"إن الحب الحقيقي يقيم جدارا من الرفض لأي حب جديد مهما كانت المغريات"*. وحكى لي وقتها، وكأنه يحكي عن تيتا ثريا أنها سكنت قلبه بالفعل كما لم يسكنه أحد أبدا، فلم يشعر بأي مشاعر تجاه امرأة بعد فراقها. ربما كان ذلك دافعا لأسأله عن السبب، وهل كانت شخصية تيتا ثريا عطوفة وجذابة وطيبة لدرجة أن يراها فوق جميع النساء، ففاجأني بالنفي، وقال لي: *"بالقطع لم تكن أطيب شخص أو أكرم شخص أو حتى أجمل شخص، غير أنني كنت أحبها حقا. ومن يحب أحدا بحق يرفعه إلى عليين، فلا يقبل فيه أي قدح"*.

***

لم أحب القاهرة يوما، ضجيج السيارات في الصباح، وهواؤها الخانق يشعرني بقسوة العاصمة، وانشغال أهلها الدائم بأكل العيش يجعلها نموذجا مرعبا للمادية الطاغية. كلما زرتها حسبت الساعات للعودة كسمكة رماها الموج نحو رصيف الشاطئ، فتقافزت بكل إصرار طلبا للعودة. تذكرت آخر زياراتي قبل شهور لاستكمال أوراق رسمية تخص المنحة العلمية، وكيف تسللت إلى قلبي وحشة الفقر المُتسع، وأنا أمر أمام مبنى معهد الأورام لأشاهد الناس تفترش الأرض انتظارا لسرير

يموت صاحبه، فيقبل استضافتهم أملا في علاج بطيء يحمل مثقال ذرة أمل في الشفاء. بدا لي العبس علامة موحدة فوق وجوه الناس السائرين حولي مختنقين بهموم متراكمة لم تزل بعد 2011، كما حلمنا أنا ومنى وعمر وباقي جيلنا.

رمقت قصر عابدين وساحته وسألت نفسي إن كان أحمد عرابي قد وقف هنا بالفعل، في المكان ذاته، قبل مئة وخمسين عاما مناطحا حاكم البلاد. هل قال الفلاح الضابط لسيد البلاد حقا: *"لسنا عبيد إحساناتكم"*، وهل كان يؤمن في نفسه بأن هذا الشعب حُر؟ وأنه لن يقبل باستعباد جديد؟ وماذا لو حكم عرابي مصر بنفسه، هل كان سيحكمها بديمقراطية أم كان سيحكمها باستبداد مثل كل سابق ولاحق؟

راجعت العنوان في ذهني، وعبرت للحارة الموازية لقصر الحاكم، مُنتبهة للعلامات الموصوفة من محل عصير قصب، وصيدلية، وورشة حِدادة، ثم عقار قديم فخم، له باب خشبي طويل، مُدهش التقسيمات متنوع الزخارف. استقبلتني نظرة شاب ثلاثيني يقف مُدخنا أمام الباب الغريب، فبادرت بسؤاله عن الحاجة حُسن، فقال لي: *"الدور اللي جاي علطول. الشقة اللي على اليمين"*. ابتسم الشاب ابتسامة تطفل سخيفة، لم ألقِ لها بالا، وذكرت نفسي بأنني تعمدت ألا أضع مكياجا، وأرتدي قميصا فضفاضا على بنطال جينز أسود، مؤثرة الاحتشام في هذا الحي الشعبي. صعدت السُلم بعجل مَن يريد الوصول لنهاية الحكاية المُريبة التي تدحرجت

أمامي بعض فتافيتها لتُغير سيرة جدة لم أرها، ورسمها الخيال مُعلمة أجيال محترمة.

كان باب الشقة مفتوحا، فلاحت لعيني سيدة بدينة سمراء، التحف وجهها رداء الصرامة، جالسة على كنبة صغيرة تواجه الباب، شفتاها كبيرتان، وعيناها تبرقان ببريق حاد يوحي بشخصية قوية. أبصرتني فتكرمشت ملامح وجهها ابتساما وهتفت بي بلهفة تدعوني للدخول. وقفت الحاجة حُسن بصعوبة استنادا على عكاز خشبي غليظ، ودققت النظر في وجهي لتُبدي فرحا طفوليا برؤيتي، ثم قبلتني بألفة كما لو كانت تعرفني منذ سنين. امتعضت قليلا، لكن خلايا الفضول في رأسي محت تقززي من القبلة العفوية، وجلست راسمة الابتسامة ذاتها التي أجيد رسمها في العمل.

- *"ما شاء الله يا دكتورة. إنتي جميلة أوي أوي زي الست الله يرحمها".*

جاءت فراستي في محلها فالست هنا تعني سناء بكاش، وكلام المرأة يؤكد ما استنتجته من كونها هي جدتي لا ثريا. ما أسرع ما تتبخر الشخصيات الوهمية التي رُسمت زورا أمامنا ونحن صغار.

قامت حُسن مُتثاقلة لتصب لي عصيرا معلبا، لكنني رجوتها ألا تفعل، وألححت عليها مكررة بأنني أريد التحدث معها فقط.

سألتها بشغف حقيقي عن الحكاية.

فقالت:

- "كنت باشتغل عند ست كويسة جدا وعظيمة اسمها مدام سناء بكاش. زمان أوي كان لها شنة ورنة، وقالت لي إنها عرفت رجالة الثورة وعرفت الريس عبد الناصر وأنور السادات وصلاح نصر، وكانت بتقعد مع كبارات البلد. الست دي تهريبا هي اللي ربتني، وعلمتني. وكانت كاتبة قصتها في الورق ده".

رأيت ملفا ضخما يضم ورقا أصفر، وقصاصات صحف موضوعة في كيس شفاف، لاحت الورقة الظاهرة مدونا عليها بخط منمق وجميل عبارة "ما دونته سناء بكاش" وتحتها مكتوب بخط أصغر سنة 2001.

واصلت الست حُسن حكيها:

- "سناء هانم كانت بتشتغل صحفية، وكان عندها مجلات وقصص وعملت أفلام وخدمت البلد زمن الاحتلال وبعد الثورة، واتجوزت بس مش عارفة كم مرة والوحيد اللي خلفت منه كان جدك الأستاذ أحمد، وللأسف اختفى فجأة وخطف بنتها منها".

دلدلت شفتي دهشة، وسألت:

- "بنتها؟".

- "بنتها وبنته يعني".

سألت:

- "نادية؟".

- "أيوة نادية. واضح كان في خلاف معين، بس الست دورت على بنتها ف كل مكان وملقتهاش، وف آخر أيامها كتبت قصتها، ووصتني أحافظ عليها،

وبصراحة كان عندها محل ف وسط البلد، كتبته لي بيع وشرا نظير تعبي معاها وهي مريضة، بس استحلفتني إني أوصل الورق دا لبنتها بأي شكل".

فكرت للحظات ثم قلت للسيدة البدينة:

- "لكن ماما ماتت من زمان.. وأنا صغيرة".

- "آه ما جدك قالي".

ازدادت الأسئلة في رأسي، وحملقت مرة أخرى في ملف الورق الأصفر، وسألت السيدة الفرحة بلقائي:

- "طيب هي الست سناء ماتت إمتى بالضبط؟".

- "نفس اليوم اللي ضربوا فيه البرجين في أمريكا".

- "آه يعني ف 11 سبتمبر2001؟".

هزت رأسها إيجابا، فسألت:

- "طيب.. وإيه اللي فكرك بالورق دا بعد عشرين سنة؟".

أخرجت السيدة سيجارة "كنت" من علبة أمامها وأشارت لي إن كنت أدخن فهززت رأسي نافية، فقالت:

- "أنا مانسيتش الورق أبدا. دورت طبعا على حد قريب للست بعد وفاتها، وملقتش أي حد، وف الجنازة مكنش في غيري أنا وبواب العمارة ودكتور جارنا كان بيعالجها، ولما رجعت البيت بصيت ف أول ورقة وحسيت إني عارفة بقية الحكاية، لأنها سبق حكت لي قصص زيها، فركنت الورق كله ف كرتونة

على جنب، ولما سبت الشقة وسكنت هنا، جبته معايا، وفكرت في طريقة لتوصيل الأمانة، ومكنتش أعرف غير اسم أحمد نصر الدين أيوب، جد حضرتك، فكنت كل سنة في يوم عيد ميلاد الست أربعة إبريل أنشر إعلان صغير في الأهرام، وأقول فيه (الأستاذ أحمد نصر الدين أيوب يرغب في بيع مكتبته، وعلى المهتم الاتصال برقم كذا..) وكان غرضي إنه يقرا الإعلان ويفهم الإشارة، وشفت حاجة زي كده ف فيلم لأحمد زكي".

علقت قائلة: "آه أرض الخوف".

هزت رأسها وواصلت:

- "تقريبا.. طبعا محدش عبرني خالص، وفضل الإعلان ينزل لأكتر من عشرين سنة لدرجة إن إدارة الاعلانات في الأهرام افتكروني ست مجنونة، وكنت ناوية أعمل كده لحد ما أموت عشان أكون عملت اللي عليا، لحد ما الأسبوع اللي فات بس اتصل بيا جدك".

انعقد لساني فلم أنطق، وحطت كل غربان الدهشة، فوق رأسي، ورنت مني نظرة ظفر ناحية الملف الورقي بين يدي. كيف اتصل الرجل؟ ثم كيف عرف وهو لم يعد يقرأ صحفا؟

ارتاحت قسمات وجه السمراء البدينة، وقامت بجهد، لتدخل غرفتها وتغيب قليلا وتمد لي صورة فوتوغرافية أبيض وأسود للرئيس جمال عبد الناصر، وعلى ظهرها إهداء مكتوب بخطه "إلى نادية أحمد نصر الدين أيوب"، وقالت إن جمال عبد الناصر بنفسه أهدى الست صورته

عندما أنجبت بنتها نادية.

لم أشعر بأي فرح، خاصة أن علاقتي بأمي لم تقُم من الأساس لأنني لم أرها، وإن كُنت شعرت ببعض الفخر أن يكون التذكار الباقي لي من أمي صورة مهداة إليها يوم ميلادها موقعة من زعيم مصر الذي لم أحبه يوما.

نظرت إلى الست حُسن في حيرة، ولم أجد ما أقوله لها، فخرجت مني كلمات عفوية عما يفترض أن أفعله حيال ذلك، فقالت المرأة ببعض الغيظ: *"مفيش.. الأمانة وصلت خلاص، أنا كده مرتاحة"*.

سألتها بتشكك المستجوب:

- "وأنا أعرف منين إن كنت صادقة ولا لأ؟ وإيه يأكد لي إن جدتي فعلا كتبت ده ولا لأ؟".

انقلبت شفتا السيدة السمراء للخارج تعبيرا عن الامتعاض، وسحبت نفسا طويلا من سيجارتها أبان غيظا منكتما وقالت في عصبية:

- "ولا حاجة خالص يا بنتي. صدقي أو متصدقيش. أنا خلصت ذمتي. لو عزتي أي حاجة عندك رقي، وربنا يشفي جدك. نورتي".

***

حملت صليبي ومشيت ساكنة. بين يدي مذكرات امرأة الأسرار التي أغوت وأغرت وانفلتت تحت زعم خدمة البلد، حتى هرب منها زوجها ومعه ابنتهما. ما هذه الحكايات سوى لُغم يوشك أن ينفجر فضيحة

مدوية. ماذا سيقول الناس لو عرفوا أن لي جدة عملت في الغواية الوطنية؟ وما تقوله في هذا الورق لتُبرر أفعالها؟ وهل يقبل أحد اليوم مبرراتها؟ وما مستقبلي أنا المُبتهجة بالحياة بعد هذا الكشف؟

تذكرت اسم مصطفى عبيد، ذلك الباحث المُقرب من عُمر، ودافع ما دفعني لأهاتفه. شعرت بضيق أن عُمر أطلعه على اسم جدتي، وأنا لا أعرفه ولا أثق فيه، وليس لديّ ضمان أن يكتب عن اكتشاف حفيدة المرأة اللغز سناء بكاش. شعرت أن محادثته ضرورية لكبح انفلات قلمه بإعادة بعث سيرة كاتبة عملت لدى مؤسسة الأسرار، ثُم نسيها الجميع. أجابني بعد ثلاث رنات بصوت مُنهك كما لو كان سائرا. أخبرته باسمي وبأنني من طرف عمر كريم محامي المنصورة، وأرغب في لقائه للأهمية، ولو لعشر دقائق فقط. سكت برهة كأنه يستشير نفسه، ثم أخبرني بأنه سيمر في وسط المدينة بعد ساعة، وأنه يمكن أن يراني. قُلت لنفسي لا يهم، ما دمت جئت، فلن أخسر بانتظاره.

"على قلق كأن الريح تحتي"، كما يقول صديقي المُتنبي، جلست منتظرة في سيلنترو التحرير، أنبأني مصطفى عبيد بحضوره باتصال فور دخوله. رمقني بعينين غامضتين تحت نظارة طبية أظلمتها أشعة الشمس، صافحت كفا دافئا، ورنوت نحوه، مستغربة من عرقه المتصبب، دققت النظر إليه، فشعرت بأن ملامحه أكبر سنا من صوره على الفيس بوك، وإنستجرام، والصحف التي يكتب فيها. غزا الشيب شعره الذي

طار نصفه بفعل الزمن، وبدت ملامح وجهه مُنهكة وساكنة. شعرت بارتباك ما يعتريه رغم محاولته تصنع ابتسامة كاذبة. سألني عما أشرب، فقلت بتلقائية طبيبة في أوائل عقدها الرابع نفضت بفضل عملها ارتباك الأنثى: *"يا أستاذ أنا اللي عازماك. كفاية وقتك"*. ابتسم وتكلف الذوق الشديد، وهو يُكرر: *"لا يا دكتورة. أنت عندنا. لما نيجي المنصورة ابقى اعزمينى"*. طق حنك، يُفيض من أفواه أهل مصر ليل نهار. يقولون دوما ما لا يدور في نفوسهم. كرر التبسم، وشعرت بضيق ما تجاه نظراته الفاحصة المُدققة، وسألت عقلي إن كان هذا الكهل يُغازلني أم يتصابى، وكدت أخبره بأنني لا أحب الكُتاب ولا الروائيين سوى على الورق، وإنني لا أصادق من هم يعيشون فترات المراهقة المتأخرة، ثم طردت حديث النفس جانبا لأدخل بعملية شديدة في الحكاية.

مددت له ملف الورق الأصفر، فاتسعت عيناه دهشة وهو يُقلب صفحاته بسرعة، ثُم قال لي بعد صمت طال لدقيقتين: *"طبعا ورق مُهم جدا"*.

دقق النظر في بعض الصفحات، وقلّبها ملتحفا بنظرة الخبير المهتم، ثم قال في هدوء: *"أولا واضح إن الورق دا حقيقي. الخط واحد مش متغير، وتواريخ بعض الأجندات مكتوب عليها فعلا 2001 وكأنها مقطوعة من أجندات ف السنة نفسها. بعدين الكتابة أدبية بليغة وأسلوبها هو هو متغيرش"*.

قُلت معلقة: *"يا سلام"*.

ران على وجهه بعض الضيق، فسحبت بلطف الملف من بين يديه، وقلت له: "دا ورق شخصي.. أنت عارف الموضوع حساس". كنت أحاول أن أرسل له رسالة بأن هذا الموضوع مُشين ولا ينبغي الحديث عنه. هز رأسه بعد أن أمسك بأصابعه الدقيقة زجاجة مياه وضعها النادل على الطاولة، وصب منها قليلا وشربه، ثم قال لي:

- "بصي يا دكتورة. سناء بكاش دي حكاية كبيرة..اسمها مذكور ف تحقيقات ما بعد النكسة، وطبعا ف ست ادعت عليها إنها كانت ذراع الأجهزة داخل الوسط الفني والأدبي، لكن مفيش شيء مؤكد. طبعا الورق دا ممكن يكون فيه تفاصيل مهمة جدا".

سكت لحظات وتابع قائلا:

- "عموما أنا سألت كل الكُتّاب الكبار عنها، محدش فاكرها، ولو كانت صحة الأستاذ وديع فلسطين تسمح كنت سألته، لأنه كان معاصر لها، وكتب في مجلتها، لكن للأسف الشديد هو تعبان جدا دلوقتي. وأنا لقيت عندي لها كتاب مشهور عن إسماعيل صدقي رئيس الحكومة أيام الملك، ممكن أبعتهولك".

"وبعدين؟"، سألته، فقال:

- "اديني فرصة.. ممكن أبحث لك عنها بحث إضافي".

- "مقابل؟".

ابتسم ابتسامة خبث، وصب كوبا إضافيا من المياه في جوفه، وقال: "مقابل إنك تعطيني نسخة من الورق ده".

بحلقت في وجهه، لأبعث إليه برسالة لوم عبر نظرات صامتة اخترقت رأسه وأصابته بنوبة خجل نفسي شعرت بوادرها على وجهه.

قُلت له بنبرة استعلاء مقصود: "تعرف حضرتك الشاعر المُتنبي؟".

رد بتلقائية: "آه طبعا.. بس أنا شاعري المفضل محمود درويش".

قُلت له: "أنا مسألتش حضرتك شاعرك مين. طبعا انا عارفة إن الكتّاب المعروفين بيتعاملوا مع الناس باعتبارهم نجوم والناس مستنية تعرف منهم مين كاتبهم المفضل ومين مطربهم الأول وشاعرهم وكده".

بدا على وجهه مزيج من الضيق والحرج، فواصلت قائلة: "أنا باسألك عشان أقولك إن المتنبي دا، شاعري انا المفضل له بيت شعر جميل بيقول فيه: كم غر صبرك وابتسامك صاحبا.. لما رآه وفي الحشا ما لا يرى".

ابتسم ابتسامة ماكرة، وقال لي: "اسمحي لي يا فيروز. بلاش يا دكتورة دي عشان مابحبش الرسميات. اسمحي لي أقولك بيت تاني لشاعرك المفضل باحبه أوي برضه بيقول إيه. بيقول: وكم من عائبٍ قولا صحيحا.. وآفته من الفهمِ السقيمِ".

وسكت هُنيهة، ارتشفت فيها رشفة من فنجان قهوتي، ثم قال:

- "يمكن بس أقولك إنك أسأت بي الظن شوية. أنت مفهمتنيش كويس. أنا مش عاوز الورق مقابل بحثي.

مش عاوزه عشان أنشره ف كتاب واعمل سبق وكده. أنا عاوز أقراه فقط. أنا طالب المعرفة بس. بالنسبة لي المعرفة هي الجنة. المتعة الحقيقية هي إننا نعرف. عاوز أشوف اللي الناس مش شايفاه. طبعا هاوعدك بأمانة وبكلمة شرف إن اللي ف الورق دا مستحيل أنشره بدون إذنك. أنا هاتنور بس يا فيروز".

أذاب كلامه شكوكي، فقلت له:

- "ماشي. وإن كنت حاسة إنك بتمثل. بس عموما أنت قلت كلمة شرف، وأنا هاعطيك نسخة وهاصدقك".

هز رأسه مبتسما، وبعد أن قام بتصوير الأوراق في مكتبة مجاورة انتابني شعور آخر بأنه خدعني.

وجدت رسالة صوتية على الواتس آب تُنبئني فيها أم إبراهيم أن جدي لم يستيقظ منذ الصباح، وأنها قامت بتغيير ملابسه وحفاضاته مرتين. هاتفت عُمر وحكيت له سريعا عما جرى، وأخبرته بأنني سأعود في الباص لأنني لا أحتمل الانتظار للمساء، واختليت بذاتي وبكنزي لأعيش معه ساعات العودة. كانت الوريقات متباينة الشكل، منها القصير المقطوع من أجندة ومنها الفلوسكاب، وبعضها من كراسات مدرسية. وتباينت درجة وضوح الخط، وتغير شكله قليلا وإن كان كله يخص شخصا واحدا، وبدأت الكراسات بتاريخ يوم السبت 5 مايو 2001، وانتهت بتاريخ السبت 28 يوليو 2001، ولاحظت وجود قصاصات بين الأوراق منها أخبار مقطوعة من صحف، وأوراق من كتب،

وقصاصات أخرى مجهولة المصدر، وغبت في الحكاية.

***

ما دونته سناء بكاش

(1)

السبت 5 مايو 2001

غلبت جميع خصومي إلا الزمن. قطمت أرواحهم، وكسرت نفوسهم، وأوقفت خلايا أدمغتهم عن العمل. أسقطتهم من شاهق، وبصقت عليهم دون ذرة رحمة. أذقتهم ما استحقوه من وجع وأكثر، وقسوت على مَن يتصور نفسه قويا بنفوذه، ونكلت بمَن يحسبني أضعف منه لأنني امرأة. أقسمت أن أفتّل سراويل كبرهم، وأعُري ضعفهم الذي لم يره أحد سواي. حسبهم الناس جبابرة، وتناقلوا أساطير حول قسوتهم وحدّتهم، ولم يعرفوا كم هُم ضعفاء. بل أضعف من الضعف ذاته. وهأنا ذا أُجهز على بقايا بهائهم الزائف بما أبوح به لمَن يأتون خلفي.

ففي ليلة شتاء ساكنة من العام الأول للألفية الجديدة، أخبرت "حُسن" خادمتي الوحيدة، الطويلة كسلة عتيقة، بأنني سأورثها ثروة عظيمة تقديرا لخدمتها المخلصة، ومكافأة لها على قيامها بإطعامي، ومنحي مسكنات الألم، وتحميمي وتنظيفي، وتحمل مشقات كبيرة في حملي كل صباح إلى شرفة الشقة المُطلة على ميدان سليمان باشا لأشاهد السيارات تدور حول تمثال صامت لباشا عظيم أسس بنكا للمصريين قبل ثمانين عاما. لم تبد "حُسن" فرحا بمكافأتي الموعودة، كما لو كُنت أخرِّف، فاكتفت بشكري بلا مبالاة

مُعتادة، وسألتني إن كُنت أرغب في كوب شاي ساخن. استفززت دوائر الشغف الأنثوي داخل الفتاة الثلاثينية، وأنا أكرر لها الوعد بما أنتوي فعله، بشيء من التفصيل. قلت لها بأنني سأترك لها مذكراتي التي أدونها، والتي تُفتش أسرارا خطيرة تمس مشاهير وأصحاب نفوذ وشخصيات كبيرة، ويُمكن أن تبيعها بمبلغ ضخم عقب وفاتي.

ظلت "حُسن" صامتة لأن بعض الكلام لامس قرون المنطق في دماغها، قبل أن تقول بكثير من التشكك: *'مفيش حاجة بقت سر دلوقتي. يا سناء هانم الصحافة كتبت كتير في الموضوع ده، والست اعتماد حكت كل حاجة".* نخزني الاسم وطاف بي الماضي بحلوه ومراراته، فصالحت وجوها كئيبة وطيبة عبرت أمامي من كل حدب، وسبقني الرد: *"ده كله كذب. أنا اللي عارفة كل حاجة. أنا الوحيدة اللي شفت، وخططت، وحاربت. وكل الأسماء اللي كانوا بيترعبوا منها كانت قدامي ولا حاجة".*

ولم أكذب على "حُسن" فيما قلت، فقد انتصرت رغم كل شيء. عرفت، فهمت، جربت، قامرت، غامرت، خاطرت، قهرت، خدعت، غدرت، خُنت، وقسوت، ولعبت بالحب والمشاعر كما لم تفعل أنثى على وجه الأرض من أجل غاية واحدة هي أن أصنع الأحداث، وأحرك القامات، وألعب بالكبار، فتلك مُتعة المُتع.

وحده الزمن غلبني، وكم غلب ملوكا، وقادة، ودهاة.

شقت سنون العمر خطوطها في وجهي البهي، الذي طالما أثار وأبهر، وسكنت أوجاع المفاصل جسدي الساحر الذي سافر وجرب، قبل أن يوصد دُخان السجائر، وهموم الوحدة، ووجع التنكر الإنساني شرايني التاجية، ويهبط بقوة عضلة القلب إلى الضعف المُهلك. خفت البصر، وحلقت غُمامة سوداء فوق عيني اليُسرى، وزارني المرض المُهين بهبوط المثانة لأسفل وتحرر التبول من أي إرادة ذاتية. كسرت عامي الثاني والسبعين بوجه نحيل، تكرمشت تفاصيله، وعينين مُنطفئتين فقدتا رموشهما، وبقايا أسنان أطلت كأطلال باقية لمعابد إغريقية، وشعر المخلع معظمه عن جذوره تأثرا بصبغات من كل لون. كُنت قد أزلت قبل خمس سنوات نصف ثديي الأيمن بعد ظهور ورم صغير، نصحني الأطباء بسرعة تصفيته لتوجيه ضربة استباقية للسرطان الذي التهم نصف أصدقائي من الرجال والنساء، وأجهز على زوجي، رجلي الأخير، ذلك التمثال الصامت الذي عرف وكتم، فكان في سنواته الأخيرة بمثابة برواز قديم معلق بدُنياي.

رمقتني "حُسن" بابتسامة باهتة، وبدت نظراتها نحوي بمثابة سهام مخترقة تحاول استقراء ما يدور في رأسي قبل أن تقول لي في ميوعة: *"إوعي تكوني ناوية تكتبي عن الرجالة اللي زحفوا وراكي"*. انفلتت مني شخرة استنكار قبل أن أكرر ببعض الجدية: *"لا يا حُسن. ده تاريخ سري وعمل وطني ما يقلش عن اللي عمله الزعما الكبار. أنا ضحيت بكل شيء عشان خاطر بلدي. ضحيت بالحب. بالاستقرار. بالاحترام. وبنظرة الناس، وحتى*

بأغلى شيء في الدنيا: ضنايا يا حُسن. ضنايا.. عارفة يعني إيه ضنايا.. بنتي نادية".

لم تكن هذه المرة الأولى التي أخبر فيها "حُسن" أن لي بنتا غائبة منذ كانت تلقم ثديّ، ولا أعرف الآن أين هي، ولا كيف هي، وما حالها، وما فعل بها الزمن. فكثيرا ما تفوهت بنثرات من حكايتها في التفاتاتي الشفهية للماضي. بالقطع كنت أجهل إن كانت الفتاة النوبية ذات الجسد الأبنوسي، التي التحقت بخدمتي وهي صغيرة بعد وفاة والدها بواب العقار النوبي، ورجاء أمها أن أجد لها رزقا، تصدقني أم لا. فربما لم تبتلع "حُسن" أن هناك أما مكلومة بفقدان ابنتها الوحيدة على مدى أربعة عقود، تذكر الأمر عابرا، وتحتفظ بعقلها سليما.

كان أجمل ما في رفيقة العزلة وسنوات الفرجة أنها اكتسبت مني بعض صفاتي، فصارت صلبة المشاعر، لا تفصح عما يجيش بصدرها، ووقحة في بعض الأحيان. وربما كان اقترابها من منتصف الثلاثينيات دون زواج رسّخ داخلها قوة شخصية تجعلها صارمة في التعامل مع الرجال المحيطين من بوابين وخدم وجيران وعمال خدمات وباعة في المحلات الشهيرة المجاورة. في الفُسحة الأخيرة التي اصطحبتني فيها "حُسن" إلى السينما لنشاهد فيلم "أيام السادات" قبل شهور نهرت موظف الأمن بسينما ريفولي لأنه لم يُدخلنا قبل باقي الجمهور، معتبرة الكرسي المُتحرك الذي يحملني جواز مرور مُلزما يمنحها الأسبقية عن الآخرين في الدخول

إلى أي مكان. لم أعجب بالفيلم لأنه ـ مثل جميع أفلامنا التاريخية ـ أغفل أدوار الأبطال السريين لصالح الرؤساء والقادة الرسميين، ورنوت إلى وجه رفيقتي فلم ألحظ أي تأثر بمغامرات "السادات" في شبابه، ولا مناوراته السياسية وخطاباته في الحرب والسلام. بدا لي وقتها أن كل مَن في السينما لا يعرفون أن معهم في المكان ذاته بطلة سرية كانت يوما تُدير معارك عظيمة، وتؤدي خدمات استثنائية لبلادها. تحسست إيشارب أسود ربطته كف "حُسن" فوق رأسي ليُخفي بقايا شعر، كان يوما مُلهما للشعراء وفاتنا للأمراء، وفكرت إن كان أي من الجمهور في القاعة المُظلمة والذين يُبدون متأثرين بصوت "أحمد زكي" وهو يُقلد "السادات"، يعرف من هي "سناء بكاش"، ويُدرك يقينا كيف ضحت من أجل مصر.

عُدت يومها وأنا أشعر بالغيرة من "السادات". وربما شعرت بالغيرة من رجال كثر يذكرهم التاريخ بكثير من الوله الساذج. لقد ناضلت مثل "السادات" تماما، حاربت كما حارب "عبد الناصر"، خططت كما خطط "إسماعيل صدقي"، وخدمت الناس كـ"مصطفى النحاس"، وضحيت كما ضحى فدائيون وشهداء، ثُم في لحظة ادعاء طُهر كاذبة تبرأ الجميع مني ومن خدماتي. لهذا السبب قررت الكتابة بكل صدق وصفاء، فالكتابة هي انتصاري الأخير، وهديتي المتواضعة للفتاة التي تخدمني كابنة بارة، لا أمنحها سوى ثلاثمائة جنيه كل أول شهر أقتطعها من إيجار محل أحذية اشتريته في زمن الأمجاد.

(2)

الأحد 6 مايو 2001

أنتمي لأسرة فقيرة، أفقر مما يدور بخلدكم، بل هي مُعدمة إن أردتم الدقة اللغوية. توالت أجيالها في قرية سنديون بكفر الشيخ جيلا خلف آخر وهي لا تتجاوز بؤر الحرمان، وحكاية انتمائي لعائلة "بكاش" هي واحدة من الحكايات الملفقة التي سأحكيها لاحقا. لا يُمكن أن توصف عائلتي الحقيقية بأنها كبيرة إلا في فقرها وبؤسها. عمل والدي ملاحظا لأنفار يحرثون الأرض ويحصدون القطن في عزبة واحد من الأعيان الكبار الذين حصلوا على الرضا السامي، فاتسعت الأراضي وتمدد النفوذ لهم. كُنا ثمانية أشقاء، خمسة ذكور وثلاث بنات وكُنت الصغرى، غير أن ملامحي الجميلة، وبشرتي الصافية، وعينيَّ العسليتين جعلت أمي تستبشر لي حظا غير مائل، مُنية نفسها بتزويجي بواحد من تجار القطن المُتيمين بجمال النساء. ما أتذكره من سنوات الطفولة باهت، كئيب، ولا يتجاوز شريطا ضيقا من الذكريات المريرة الممزوجة بذل الحرمان، لذا فلا تغادرني أبدا مسيرة كل جمعة مع إخوتي وبعض الجيران ليحمل كل منا الكوز الصفيح الصدئ لمسافات طويلة سيرا على الأقدام نحو بيت الشيخ "عاشور"، حيث تُطهى الطيور يوما في الأسبوع، لتصب لنا زوجته بعض المرق، فنشربه لتنصلب أعوادنا، ونُغيّر به مذاق العدس والفول والبصل الذي لا يفارقنا كل يوم. كانت

المروج الخضراء حولي، تُثير في النفس آمالا عريضة تتشبث بها ابنة السنوات السبع لتحلم بأن تصبح يوما ما سيدة بيت مثل مانحة المرق في بيت الشيخ ميسور الحال، الذي كان يعمل مُعلما لأبناء الأعيان ومحفظا للقرآن. في يوم العيد، كنا نقف طابورا لنُقبل يد مولانا الشيخ مُهنئين، قبل أن ينفحنا عيدية مليما واحدا، طالبا منا أن ندعو له ولصاحب الصدقة، الباشا الكبير صادق الأرناؤطي الذي يعمل لديه الشيخ في مدينة فوه. وعندما نعود تأخذ منا أمنا "عطيات" المليمات الثمانية لتشتري بها قماشا تُفصله جلاليب نرتديها صيفا وشتاء. أما والدي "سعيد" فلم أره يوما مبتسما، وكأن الاسم مناقض لحاله على الدوام، وخير ما كان يفعله هو أن يرجع لنا كل خميس بجوال من الخيش مُعبأ بالبصل والطماطم وقليل من الفاكهة العطنة التي كان يلتقطها من بقايا موائد أصحاب العزبة. كانت شقيقتاي "سعدات" و"زينات" تستحثان الأيام لتكبرا وتتزوجا أملا في حياة أقل شظفا وأطيب حالا، وبالفعل تحققت آمالهما سريعا فتزوجت الأولى وهي في الحادية عشرة في العام الذي مات فيه الملك فؤاد، وتزوجت الثانية بعدها بعام. أما أشقائي الذكور فلم أصاحب منهم سوى محمد خالد، الذي يكبرني بعامين، وكان يلعب معي "السيجا" بنواة البلح والحصى. أما الباقون فكل ما أتذكره عنهم أن ثلاثة منهم حملوا اسم محمد، متبوعا باسم آخر حيث كانت الأسماء المركبة هي السائدة.

في أحد أيام المرق، كنت أمارس مسيرتي المعتادة نحو بيت الشيخ عاشور في الناحية الأخرى من البلدة،

عندما هطل المطر بغزارة، وعوت الريح لتعصف بكل شيء. وقبل الوصول إلى مبتغانا انفك الطابور الصغير، وتفرق الشمل، وسار كل واحد في اتجاه، وفجأة صرت وحيدة، وسقط مني الكوز، وانجرف في قناية صغيرة تقطع غيطان القطن، لأجري خلفه بقدمين حافيتين لطخهما الطين. دوى الرعد فتذكرت تحذير "محمد خالد" لي يوما بأن الرعد هو غضب من الله على الناس اللاهية قلوبهم، يُنزله عليهم ليجازيهم على ذنوبهم، فصرخت هلعا، قبل أن أتزحلق في المجرى المائي، وأبتلع مياها خضراء عطنة، ميزت فيها رائحة روث البهائم.

كان هذا الحادث نقطة تحول فاصلة في حياتي. غبت تماما عن الوعي، لم أعرف كم من الوقت مر، وما حدث لي، وماذا فعل أشقائي وأصحابي، وهل فازوا ببعض من المرق أم لا؟ كان كل ما يدور في ذهني هو تساؤل مُلح عن جزائي المنتظر لضياع الكوز؟ هل ستلومني أمي؟ وهل سيضربني أبي؟ وهل سيسمحان لي بمسيرة الجمعة مرة أخرى؟

ساد هدوء غريب حولي، وفتحت عينيّ بصعوبة شديدة، فشعرت براحة غامرة لعظام ظهري المتمدد على فراش قُطني لم أعرفه يوما في كوخنا الصغير، ميزت عيناي حُجرة مُرتبة الأثاث، تُشبه حجرة الجلوس في بيت الشيخ "عاشور"، تضم دولابا كبيرا مُذهب القوائم، وسريرا ضخما له أعمدة نحاسية، وفي الواجهة مرآة مستطيلة تتوسط تسريحة ضخمة يتقدمها كرسي صغير. لمحت ستائر بيضاء مُزهرة تنسدل فوق نافذة طويلة

تقترب قليلا من سقف الغرفة المرتفع. التقطت أنفي رائحة عطر جميل يسري حولي ليشيع في الروح طمأنينة غريبة وشعورا بالدفء والأمان، والتقطت أذناي صوت دندنة موسيقى جميلة لا تشبه ما كنت أسمعه في الموالد والأفراح. تحسست بقدمي اليُمنى، القدم الأخرى بحثا عن عجائن الوحل والروث التي كنت أخوض فيها، خشية أن تكون قد لوثت الفراش الناعم، فلم أجد شيئا. تنبهت عيناي لجلباب جديد أبيض نظيف يُغطي جسدي، له أكمام طويلة وواسعة، لكنها ناعمة، ومبهرة بأشكال الورود التي تتراقص عليها. خُيل إليّ أنني أحلم، وأن هذا البيت الدافئ مُجرد مشهد زائف في نوم عميق، ثُم تصورت أنني مت غرقا في ساعة العاصفة، وأن هذه الحجرة هي بداية دخول الجنة التي يدخلها الصغار فور موتهم لبراءتهم من الدنس. التمست الصمت مستعذبة تلك الراحة الطاغية، قبل أن ألمح رجلا كبيرا ضخم الجثة، له شارب كث، ووجه عريض مشرب بالحمرة يدلف إلى الحجرة بخطوات هادئة، فغضضت طرفي متظاهرة بالنعاس، ثم سمعته يرطن بلغة الإنجليز مع سيدة خارج الغرفة. استعدت تفاصيل رحلة المطر، ثم رنوت إلى الشباك لأدرك من الظلام السائد أن الوقت ليل. حركت كتفي قليلا، فخرجت مني آهة وجع تُمسك بذراعي الأيمن، واقترب الرجل مني وقال بلهجة حانية: *"حمد لله على السلامة. اسمك إيه يا حلوة؟"*، لم أجب ربما استغرابا، فجاءت من ورائه السيدة التي أكد وجهها الأبيض، وشعرها الذهبي، وعودها الرفيع أنها أوروبية، وقالت بعربية غير واضحة: *"أنا دكتورة في*

الاسبتالية العمومي. كُنت باتفسح مع "جو"، ولقيتك واقعة ف المطر، وربطت إيدك. متخافيش.. شوية وهتبقي كويسة". ثُم مسحت بكفها شعري المُنسكب على وجهي لتلتمع عيناها بجمالي اللافت، ثم سألت: *'اسمك إيه؟".* نطقت بصوت مُتهدج: *"سنااء".* سألت المرأة ثانية: *"فين ساكنة يا سناء؟"*، هززت رأسي كَمن لا يعرف، راجية أن أهنأ بأيام سعيدة لوقت أطول، وتذكرت أبي بوجهه الكالح، وأمي بحزنها المقيم، واستعدت مشهد أشقائي وهم منغرسون في أوحال البؤس، وقررت تناسي الجميع، ونطقت بكلمة واحدة: *'جعانة"* فابتسمت الشقراء الجميلة، وقامت لتُحضر لي طبقا من الشوربة الدافئة، تتوسطها نصف دجاجة مسلوقة، التهمتها التهاما. كانت الدُنيا بالنسبة لي تساوي نصف دجاجة شهية في ليلة باردة، وأنا أتمدد على فراش وثير مُريح ويحيطني السيد والسيدة بعنايتهما.

فُزت بالليلة الدافئة، وشعرت بضيق السيد من وجودي، مقابل ترحيب غريب وعميق من السيدة. ورغم أنهما تحادثا همسا بالإنجليزية، فهمت أنه يرغب في تسريحي، بينما تطلب السيدة التمهل لبضعة أيام، وقررت استثمار الخلاف صمتا وتجهما كلما سُئلت عن أهلي أو بيتي. في الصباح صحوت على كوب لبن دافئ، وملعقة عسل، مثلما يفطر أبناء الباشاوات. حممتني السيدة "آن" التي حفظت اسمها بسرعة بعد أن سمعت "يوسف" يُردده. وسألتني صراحة إن كُنت أرغب في البقاء معها. قالت لي إن حبيبها "يوسف" شرطي مصري تدفعه ظروف عمله أن يغيب عنها في

بعض الأحيان لعدة أسابيع، لذا فإنها ستكون سعيدة لو بقيت معها في البيت في فوه، بشرط ألا أخرج منه إلا بصحبتها. كان يبدو للسيدة الأوروبية، والتي عرفت فيما بعد أنها أيرلندية أنني غير راغبة في العودة إلى أهلي. لم أصدق ذاتي وأنا أجيب السيدة "آن" بقبلة صادقة طبعتها شفتاي على خدها، وفي المساء عرفت أنها أقنعت "يوسف" صاحب الصوت الأجش، والملامح الصارمة، والشارب الكث، والعضلات الممشوقة بعد جلسة حديث ناعم تخللته قبلاتها وتوسدها لفخذيه. فيما بعد فهمت بعض جوانب العلاقة بينهما، عندما شاهدت ليلا التحامهما عريانين في اشتباك حميم صاخب أثار في روحي لذة التلامس الجسدي مع الرجال. ومن يومها جربت أن أتسلل ليلا بعد نوم كاذب إلى حجرتهما لأتفرج على المشهد المثير بتلذذ وشبق مبكرين.

***

(3)

الاثنين 7 مايو 2001

نسيت سنديون. طارت من عقلي تماما، كل شيء طار: أسرتي، جيراني، وأصحابي. تباعدت الذكريات في رأسي وخفت حنينها. نفيت مشهد الطريق الطيني الذي كان يقودني نحو شربة المرق، وتعلقت نفسي بمدينة فوه الأكثر نظاما، بشوارعها الهادئة، ومساجدها المبهرة، وناسها المُهندمين. شاء حظي أن أخرج من قمقم الوحل والكوخ والجوع لأستمتع بمشهد فرع رشيد من نهر النيل

صافيا في طريقه ليصب في البحر.

استنشقت نسائم الربيع في شرفة بيت صغير يطل على الميدان الكبير والمستشفى العمومي، لبست فساتين جميلة صافية، وتذوقت أطايب الجبن واللحوم والفاكهة. لم تكلفني" آن" بما لا أطيق، فبخلاف تنظيف غرفتي الصغيرة، لم أؤمر بعمل يستحق العناء. لعبت بعرائس ملونة جميلة أهداني إياها "يوسف أفندي" في لحظات رضا نادرة.

قدمت "آن" من أيرلندا سنة 1933 لتعمل ممرضة في مستشفى فؤاد الأول بالإسكندرية بناء على إعلان عن حاجة المستشفى لممرضات اجتزن دورة التدريب. وكما عرفت فيما بعد فهي ابنة لأسرة فقيرة في مدينة دبلن، من مواليد سنة 1906. ولما كانت الأوضاع الاقتصادية في بلادها صعبة ولم تكن هناك وظائف متاحة، اجتازت دورة التدريب كممرضة، وقرأت قليلا عن بلاد الشرق، ومنها مصر، وتقدمت بثقة للوظيفة سعيا لحياة جديدة. ويبدو أن المسئولين عن فرص العمل من الإنجليز المشرفين على المستشفى فضلوا متقدمات أخريات فطارت الوظيفة ولم تُقبل، غير أن النصيب غلاب، فلم يلبث أن مر "الملك فؤاد"، مليك مصر، ذات يوم بمدينة فوه في طريقه لرشيد، واسترعاه عدم وجود مستشفى عمومي فيها رغم ازدحامها بالعمال والحرفيين، فأمر بإنشاء مستشفى كبير وتجهيزه، وكلف مدير مستشفى فؤاد الأول بالإسكندرية بتشغيله، فقام بالاستعانة بكشوف المتقدمات للعمل في التمريض

بالإسكندرية وأرسل لهن، وهكذا تلقت "آن" خطاب استدعاء للعمل في مستشفى فوه براتب ستة عشر جنيها.

أقامت "آن" في نُزل خاص بالمستخدمين الأجانب على أطراف المدينة، وزارت معالمها ودارت في أروقتها، وترددت إلى الناس، حتى أتقنت العربية وصارت جديرة بالبقاء في وظيفة ممرضة، ثم مشرفة تمريض، يمتد عملها كل يوم لاثنتي عشرة ساعة. وبعد سنين لم تطل من الوحدة الرتيبة التقت بـ"يوسف"، الشرطي الأربعيني الذي كان نائبا لمأمور المركز وزار المستشفى ليحقق في مشاجرة نتج عنها عدة مصابين، وتعارفا، وشعرت بالجذاب تجاهه، لم يلبث أن تطور إلى هيام. ولما كان "يوسف" ابنا لعائلة كبيرة في الإسكندرية، شغلته طبيعة العمل عن الزواج والاستقرار التام، فقد تقبلت بعقلانية أن يغيب عنها أياما طويلة، وأن يبيت عندها بعض الأيام في شقة صغيرة انتقلا إليها وتقاسما إيجارها.

انفتحت عيناي الصغيرتان على عوالم غريبة وواسعة. فهمت عقلية الأوروبيين واعتزازهم بقيمة العمل، واستوعبت فوائد تنظيم الحياة، وأهمية التخطيط لكل شيء. أدركت أهمية العلم، فاستأذنت "آن" بعد أقل من شهرين أن ألتحق بكُتاب صغير يجلس فيه الصبية بجوار السوق فوافقت، وقدمتني لشيخ الكتاب باعتباري ابنة زميلتها المصرية التي شاء القدر أن تسافر للعمل في مستشفى بالإسكندرية. حفظتني "آن" عبارات الترحيب والشكر والتهنئة باللغة الإنجليزية، واصطحبتني مرات لزيارة أسواق فوه ومساجدها ومعالمها التاريخية.

منحتني تدريبا عمليا للإسعافات الأولية وقدمت لي شرحا وافيا يخص الصحة العامة. والأهم من ذلك كله أنها عرفتني بتفاصيل جسدي، وشرحت لي طبيعته، وهيأتني لاستقبال نسائم الأنوثة بمحبة وتفهم، حتى أنني كنت أنتظر الدورة الأنثوية وأنا في عامي التاسع، وأستحثها على القدوم لأشعر بأنني كبيرة. قالت لي "آن" مرارا بأنني فاتنة، جميلة الملامح، وأحمل قدرا وافرا من الإثارة، وأن جسدي الحليبي هو المفضل لدى الرجال في مصر، خاصة لو كان ممتلئا قليلا.

مرت السنون ببهجتها سريعا. كان كل شيء يسير أفضل مما أتمنى، وكسرت عامي الحادي عشر وأنا أتطلع للزواج بشرطي، طويل القامة، عريض الكتفين، لديه وجه مشرق، وشارب جميل، وشعر داكن، ربما أجمل قليلا من "يوسف أفندي"، حتى انطلقت رصاصة القدر فجأة لتهدد بزوال كل نعمة، ففي اليوم ذاته الذي احتفل فيه المصريون بتنصيب مليك جديد للبلاد انزلقت مرة أخرى في بركة آسنة من الوحل.

***

(4)

الثلاثاء 8 مايو 2001

رمقتني "حُسن" وأنا منكبة على مكتبي القديم الذي هجرته سنين طوالا كعود قصب معصور خرج توا من آلة عصر قديمة في محل بدائي، لاحظت صمتي وجمودي وزوغان بصري كما لو كُنت في زمان ومكان غير ما رآني فيهما. جلست على الكنبة المجاورة لتتأمل وجها

سكنه الحُزن، قبل أن تمد كفها الرقيق الأسمر لتمسح بلل دميعات نادرة فرت من ناظري. ادعت ملامحها الطيبة وهي تربت بالكف ذاته على جبهتي، قبل أن تسألني: *"مش هتنامي؟"*. هززت رأسي نافية، ثم أملت القلم ليهمد وقلت لها: *"نفسي أشوفها يا حسن"*، تمتمت كما لو كانت تعرف كل شيء: *"نادية؟"*، فأجبت: *'نادية"*. أخرجت سيجارة "كنت" من علبتها وغرستها بين شفتين ازدادتا احمرارا بفضل أقلام الروج التي تقاسمني إياها، ثُم أشعلتها وسألتني كباحثي مخضرم: *'تفتكري يا سناء هانم إنها عايشة؟"*. حملقت فيها بحدة وقلت: *"أيوة مش عارفة ومش قادرة أحس إحساس الأم بينتها"*. ثم أضفت قائلة: *"بس هي لو عايشة تبقى هي داخلة على الأربعين دلوقتي. ويمكن تكون اتجوزت وعندها ولاد"*.

تخيلتها سيدة عاقلة، فيها شمم والدها وجديته ونقاؤه، تحمل بشرتي الفاتحة، وعيني الجميلتين، ولها نفس الغمازتين الساحرتين، ربما تكون زوجة وأما لفتيان وفتيات في مقتبل العمر لا يعرفون شيئا عن جدتهم الجبارة، الاستثنائية في كل شيء، عقلها وفتنتها، التي صنعت أحداثا عظيمة، وانتصرت على الجميع سوى الزمن.

حاولت استعادة صلابتي، برسم عضلات وجهي لابتسامة قوة مصطنعة لم تلبث أن خانتني سريعا، فتكرمشت ملامحي مرة أخرى، والتقطت بعصبية سيجارة "حُسن" من بين شفتيها، وسحبت منها نفسا

طويلا وأعدتها إليها، ثم سألتها أن تتركني وحيدة. نظرت إليّ بالنظرة ذاتها البليدة الميتة التي أحار في استقرائها، وسألت باهتمام مصطنع: "*هتكتبي برضه؟*". رددت بالإيجاب، فقامت وقالت: "*طيب.. أنا هنام*".

"*نامي*"، قلتها في سري، فلديّ ما يجب أن أتذكره وأعجله، لا من باب الندم وإنما من أجل الحكي، فلو عاد الزمن مرة أخرى، وخيرت بين ما كان وبين ما يفترضه الناس أن يكون لاخترت ما كان دون تردد. أنير ماضيّ لأستذكر ذلك اليوم البعيد، الذي قدم فيه "يوسف" إلى البيت، وسألني عن "آن" وقد تأخرت في المستشفى، ثم جلس على الكنبة ليُدخن في توتر دون أن ينبس بكلمة. كُنت أفر من الطفولة بشغف مُتعجل، وأُمسك بين يدي عروستي المُفضلة، وأنكرها كأنها تجذبني لبراءة الطفولة المُزدراة. جلس صاحب الجسد الضخم جلسته المُعتادة، تمر الساعات كسيحة ومُملة، وحاول قتل الانتظار ببضع كئوس من الكونياك، التي كان يُلقي بها في جوفه دون حساب. احمرت عيناه، وارتعشت كفاه، وسرت رعشة خفيفة تبينت آثارها على جسده الضخم، قبل أن يتحدث إليّ سائلا لمرة ثانية عما يكون قد أخر "آن"، فقلت له بأن ذلك يحدث أحيانا، عندما تكون هناك حالة طوارئ مثلما هو حادث بسبب الحرب. رسمت ملامحه المُتعبة امتعاضا ظاهريا كما لو كان ينتظر بعض البهجة والراحة المفتقدة في عمل مُجهد، مُضنٍ، ومُمل. اكتسى وجه الشرطي الجامد بمسحة حزن، وتمدد على كنبته فاتحا أزرار بذلته الرسمية ليمنح حرارة الكحول المتصاعدة

الفرصة لتسري في الهواء. لاح شعر صدره الأبيض، متماوجا، وكثيفا، وظل متململا في اضطجاعه، كما لو كان ذهنه مشغولا بأمر جلل. راقبت عينيه، فقرأت فيهما رغبة مُضطرمة، تُلقيان نظرات مُدققة نحو صدري. افتعل ابتسامة، وسألني إن كُنت سعيدة معهما، فهززت رأسي بصدق بالإيجاب. دعاني إلى جواره، وقال لي بعفوية: *"عارفة يا بت. أنتِ هتبقي حلوة أوي"*.

مسح بكفه شعري المُنسدل على جلبابي الصيفي ذي اللون الوردي، والمنفتح عن مطلع شق الصدر ليمرر أصابعه على نحري وهو يقول: *"تعالي جنبي متخافيش"*.

شعرت بدافع مجهول يدفعني لاستكشاف هذا الجسد الضخم، وتذكرت ما رأيته من التحام مثير بين الرجل والسيدة وأثارني كثيرا. اقتربت منه، أنا الواقفة على الجسر الواصل بين الطفولة والمراهقة، بشغفي المتزايد لأعرف وأجرب وأذوق، تعتريني رغبات متأججة في المرور بمشهد لم يغب عن مخيلتي لأكرر "آن" وهي تموء فوق جسد ضحيتها، موقنة بأنني الأشهى والأفتن والأجمل. سألت نفسي البكر عن طعم اللذة، سحرها، وأثرها في النفس. مددت يدي الصغيرة لأمسح عرقا متصببا من جبين الضابط، وقلت في براءة مُصطنعة: *"أنت سخن أوي يا يوسف أفندي"*. وهبطت أصابعي نحو فتحة بذلته لتفك أزرارها الباقية، وتحسس شعر صدره الأشيب. استرخى تماما، ولم يبس بحرف، ومارست تجربتي بحرية شديدة. كُنت أستكشف لمساتي على

جسده الخشن، وأنظر بترقب لملامح وجهه عند كل لمسة. استرجعت مشهد "آن" وهي تعتليه، لأكرره بجرأة اكتشفتها فجأة، لتدوي أجراس اللذة في داخلي. لم ألتفت لوجع مباغت، أو جرح صغير، ولم أنتبه لقطرات دم قان لمحتها فوق فخذي، ثم شعرت بخدر لذيذ، وكأنني غبت تماما لا أدري ما حدث للتو.

همد البركان فجأة مثلما اشتعل فجأة، فقمت مبللة جلبابي الذي خلعته لحظة تأجج الرغبة، فارتديته. جلست على الأرض مستندة إلى قوائم الكنبة التي تمدد عليها رفيق الشهوة. أمسكت علبة سجائره في تدلل، ثم أخذت واحدة وأشعلتها، لم يعترض، وانحدرت من عيني دمعة لم أعرف سرها. سعلت كثيرا، فنظر لي نظرة توحي بقدر مصطنع من الحنان، ومسح بكفه الغليظ على وجهي، وقال لي: *"متخافيش يا سناء"*. كانت هذه هي المرة الأولى التي يناديني فيها باسمي، بدلا من *"يا بنت"*.

مر كل شيء طبيعيا كأن شيئا لم يكن، فبعد الفجر بقليل رجعت "آن" مبتهجة لأنها اشترت جرامافون جديدا، جلبه لها مدير المستشفى خلال سفره. أما أنا فاصطنعت النوم، مسترجعة لحظات ولَهِ لذيذ، وشعور طاغ بالقوة والتحقق، ونعست كما لم أنعس من قبل، ثم استيقظت على مقطوعة "من أجل ليزا" لباخ والتي أخبرتني "آن" أنها أجمل ما سمعته في حياتها. قالت لي بأن هذا الجرامافون سيغير حياتي. كان "جو" قد غادر مبكرا، ولم يبد لي أن آويتي الحنون قد عرفت شيئا.

فيما بعد تكررت لقاءاتي الجسدية مع "جو" الذي رتب زيارات مقصودة للبيت في غياب "آن" لينهل من عسلي. تفننت في ارتداء ملابس النوم الخاصة بصاحبة البيت وتصنعت التيه في خدر خولته، فالرجال يحبون أن يُمدحوا بذلك. كان هذا الشرطي القوي أول حقل اختبار لي، جربت كل شيء، وتعلمت أن أقايض كل منحة بريح، حتى اشترى لي شريك الفراش السري يوما خُلخالا ذهبيا.

وما دامت النساء تشعر بكل شيء قبل أن تُعاينه واقعا، فإن "آن" ما لبثت أن تغيرت مشاعرها نحوي، ففتر اهتمامها وانقطعت قبلاتها، وقل كلامها، واقتصر حديثها معي على تكليفي بمهام منزلية من تنظيف وترتيب، وتحولت نظراتها نحوي إلى نظرات ريبة واتهام، حتى جاء يوم أسود، وأخبرتني أن "جو" تم نقله إلى القاهرة، وأنه زارها على عجل بالمستشفى، فودعته دون بكاء، وعندما عادت اكتفت بانفرادها بآلة الجرامافون العجيبة لتستمع لسيمفونية "إيفانجيلوس أوديسياس" المعروفة بـ"دخول الجنة" مع نصف زجاجة ويسكي.

***

(5)

الخميس 10 مايو 2001

لا أتذكر التاريخ الدقيق لقراري بطي صفحة "آن"، وفوه، والطفولة، والعبور سريعا إلى مبتغاي كامرأة لها شأن. ربما كان ذلك في ظل حديث الناس عن زيارة

الرئيس الأمريكي روزفلت لمصر واجتماعه مع رئيس الوزراء البريطاني تشرشل في القاهرة.

كُنت أدرك أن نقل "يوسف أفندي" إلى القاهرة يُزيدني خضوعا لمزاج "آن" المتقلب، ويدفعني دفعا للعمل كنصف خادمة لها. استعدت كلمات الإطراء التي غمرني بها الأفندي القوي يوما قبل غيابه، وأدركت أن ثمة مستقبلا مُهما ينتظرني. لم يمر وقت طويل حتى تيقنت أن البقاء إلى جوار المرضة الأيرلندية التعيسة لا يُساوي شيئا، فلم أعد بعد تلك الطفلة المسكينة المقطوعة من شجرة، القادرة على رسم الونس والبهجة لإنسانة وحيدة، ولم يعُد شبع البطن الذي عانيت من خوائه في الماضي أملا يُرتجى. كبرت البنت الصغيرة الضعيفة، ونضجت سريعا، رأت وعرفت، جربت وذاقت، فهمت وأدركت بأنها ليست أقل من أي هانم، تمر في عربة مُطهمة أمام المحطة لتسأل النسوة عمّن تكون هي. لم يكن شعوري بفقدان بكارتي مُزعجا، فقد بثت في "آن" من قبل اعتقادا راسخا بأن هذا الأمر طبيعي وآتٍ آت، لكن من الضروري ألا يأتي قبل موعده.

رتبت كل شيء بعناية. اشتريت تذكرة القطار إلى مصر في يوم تبيت فيه "آن" في العمل. تظاهرت بالإعياء الشهري، فارتميت بعد الغداء مباشرة على الفراش، منتظرة خروج "آن" عصرا لأجمع بسرعة كل ما أحتاج إليه. أخذت عراشي، وجلبابين من الكستور، وفستانا من الدانتيل، وخلخالي الذي

اكتشفت أنه ذهب فالصو، وزجاجة عطر، وأحمر شفاه، ومكحلة تخص مضيفتي، وكارتا صغيرا يحمل اسم اليوزباشي "يوسف حسين" كان من تذكارات "آن" الأثيرة. ارتديت ملابس فتاة عصرية، كحلت عيني، تعطرت، وغطيت رأسي بقبعة أوروبية، ثم ذهبت إلى محطة القطار، لأنتظر قدومه لساعات طويلة حاولت أن أبدو خلالها متماسكة كامرأة كبيرة. في الطريق ابتدرت مَن حولي ببعض الكلمات القليلة بالإنجليزية في محاولة لمحو تصور كوني فتاة صغيرة لم تبدأ بعد عامها الرابع عشر.

كان كل شيء في ذهني واضحا كما تعلمت من فيلم إنجليزي رأيته بالسينما في زيارتي الأولى لها مع "آن". وكما كررت لي مرارا بأن كل أمر يفعله الإنسان يجب وضع خطة له. فكرت بأنني سأصل إلى محطة القطار، ثُم أمسك بأول شرطي يصادفني وأبكي بحرقة وأخبره بأنني تائهة وأنني ابنة أخت اليوزباشي "يوسف حسين"، ثم أقدم له الكارت الخاص به ليوصلني إليه. ووقتها، سأقايض هذا الرجل ذا المنصب الحساس على الصمت مقابل الإيواء، فكل ما أحتاج إليه هو سكن بسيط، وسأجد طريقي فيما بعد للعمل في أي من الملاهي الخاصة بالأجانب، فالإنجليز كما ذكرت لي "آن" يوما ما، بخلاء في كل شيء، لكنهم يدفعون كثيرا للنساء.

فيما مضى كُنت أخاف من "يوسف أفندي"، ذلك الرجل الصارم، ذي العضلات المفتولة، والشارب الكث، والصوت الغليظ، ورائحة التبغ التي لا تفارقه.

كُنت أدرك وأنا طفلة صغيرة أنه لا يريدني أن أبقى مع "آن" لأنني أبدو كشخص متطفل ثقيل، وربما لا يريد أن أطلع على سره، فمثله لا يُحب لطفلة صغيرة، أن تعرف نقطة ضعفه. مع الوقت أدركت أن مستويات الخوف داخل الإنسان تختلف من شخص لآخر، فما يخيف بعض الناس، لا يخيف آخرين، وحتى منبع الخوف نفسه، يُمكن إخافته. إن لكل سلطة عليا ما يعلو عليها. لذا فإنني عندما عاينت عُري الرجل، وسمعت تأوهاته، ورأيت جسده منبعجا مُكورا مذلولا طلبا للذة، ثُم لامست بنفسي هذا العُري، وخضع لي، تيقنت تماما أن الضعف الإنساني قانون عام، وأنني أكثر قوة وأعلى سلطة من هذا الأفندي المُهاب.

صار كل شيء كما أحب. أوصلني شرطي المصادفة الصغير إلى الشرطي الكبير، "يوسف بك" كما تحدث عنه عندما قدمت له كارته. تغيرت هيئته وملامحه قليلا مع تعيينه في منصب جديد، شعرت من اهتمام الناس به كم هو مُهم. قام هاشًا باشًا، ولم يبد أي دهشة، وقال لي بود غريب: *"كُنت متأكد إنك هتعمليها. بس كنت اسرع من توقعاتي"*، ثم طلب لي كوب ليمون بارد. لم أنطق بكلمة، حتى رفع سماعة التلفون، وتحدث سريعا مع شخص ما، ثُم قال لي: *"شاكر أفندي هيوصلك بنسيون السعادة في عماد الدين. محدش هيطلب منك اي شيء. لا فلوس، ولا ورق. وبالليل همر عليك"*.

"ممنونة لك يا يوسف بك". هز رأسه في ترحاب، وصافحني سريعا قبل أن يستوقفني سائلا: "فكرت

بالضبط هتعملي إيه؟". قُلت ببراءة مصطنعة: *"في إيه؟"*، رفع حاجباه مبديا دهشته مُتمتما: *"في الدنيا"*. هززت رأسي نافية، لتلتمع عيناه قبل أن يهمس لي: *"عندي لك شغل عظيم جدا. جيتي في وقتك"*.

***

(6)

السبت 12 مايو 2001

بعد استيقاظي بقليل، جلست على المقعد المُطل على الميدان الجميل، الذي حافظ على جمال معماره لأزمنة طويلة. أمسكت القلم وتهيبت لاستعادة ما مضى وتسجيله كحلقة مُهمة في تاريخ الوطن. ارتعشت الأصابع فأفلتته، فالتقطته ثانية وفكرت في ما توقفت عنده أمس الأول. كان ذهني مشوشا، وشعرت بقصف الألم متصاعدا في ظهري. سألت نفسي مُجددا عما يدفعني أن أكتب. ما يُرغمني أن أجلس وأتشظى بأوجاع تقلبات الزمن لتعصف بي الذكريات تلو الأخرى. ثبّت سن القلم على الورق لأتذكر، لكن الوجع الغازي فقرات الظهر قطع تسلسل الماضي. أنكرت هزالي ووجعي وصاحت الأعضاء كافة مكابرة هاتفة بقوتها، لكن ماء ساخنا أُدرك كُنهه سال مبللا ساقيّ. لم أقاومه، وفرت من مقلتي دمعة شهيدة حاولت كبحها. صرخت بصوت عال: *"حسن"*. تردد الصوت في الغرف الخاوية دون مُجيب. *"بت يا حسن. إنتي يا زفتة"*. لم يرد أحد. فكرت أين ذهبت، لكن لم ألبث أن استبعدت السؤال والجواب أيضا. قُلت لنفسي سأزحف نحو الكنبة حتى

تأتي. انزلقت بجسدي إلى الأرض، وتمددت بصبر عجيب لأقضي ساعات في رحلتي إلى الكنبة، ثم تسلقت بجلد حتى وقفت مستندة عليها، وارتميت فوقها. وبراحة بلوغ الغايات، تكورت على بلي، مستنشقة رائحة البول الطازج، ومستسلمة لسبات إجباري حتى تعود الزفتة.

***

(7)

السبت 19 مايو 2001

نعمت ببعض الصحة، فقررت العودة للتدوين. جلست لأتذكر وأنحت تجاويف الزمن، فأستعيد بدايات الولوج للعالم السري. ولدت من جديد يوم أخبرني "يوسف بك" بأنني سأعمل معه. انزوت صورة "جو" اللاهي المجهد واللائذ بحضن "آن" طلبا للمتعة والاستجمام، وسطعت صورة "يوسف بك"، الرجل الحديدي الذي يسهر حفاظا على أمن الناس، متورطا في التفاصيل، لا تفوته شاردة ولا واردة، ويتعامل بحزم وحسم لازمين. في موقعه الجديد كمساعد لمدير الأمن العام، بدا أكثر دهاء وجدية مما سبق. أما أنا فلم أكن أتخيل أن لي قيمة في هذه المدينة المضيئة كالشمس والصاخبة كحفل لا ينقطع، خارج بيوت الخدمة أو بعيدا عن المراقص التي كانت أقصى ما أحلم به. أفهمني معلمي الجديد كل شيء بروية، فإدارة القلم المخصوص تبحث عن جواسيس جدد يختلفون عمن كانوا يعملون من قبل في نظام المخبرين.

قال لي الرجل في محاضرة طويلة ما زلت أذكر بعض

عباراتها: "إن أهم متطلبات الحياة هي المعرفة. مَن يملك المعلومات يملك كل شيء: الثروة والنفوذ والبشر. والعالم يتطور ويتغير ويتلون ويقلب الأعداء فيه إلى أصدقاء، ويتبدل الإخوة إلى خصوم، ولا يُمكن للمُخبر التقليدي ان يعي كل ذلك. لقد صار هذا المخبر آلة مكهنة تنتظر التخريد. فالأسرار الحقيقية تحتاج لمن يقتربون من الناس أكثر ويتسللون إلى مخادعهم، يطلعون على نقاط ضعفهم، ويطالعون عُريهم الإنساني. نحن نخوض حربا شرسة، بأسلحة غير تقليدية، ونحتاج أن نُضحي في سبيل الوطن بكل شيء لنحافظ عليه". "ممن؟"، لم أسأله، لكنه قرأها في رأسي فواصل طرح فلسفته: "من كل العناصر التي تُشكل خطرا على أمان الناس. ربما من تجار السياسة وسماسرة المواقف الذين يلعبون بكل شيء من أجل تحقيق مصالحهم، ربما من التيار الأحمر الذي يحلم بفوضى عارمة وحروب أهلية، وربما من المتاجرين بالدين والأخلاق والسلف الصالح، وربما من الخونة السريين الذين ينفذون مخططات الاستعمار لإطالة أمده وتكريس وجوده. نحن صمام أمان هذا الشعب، نُضحي بضمائرنا وأخلاقنا ومشاعرنا من اجله، تماما مثلما يفعل أي فدائي يقرر الموت في سبيله. نحن نتحمل أن نوصم في كتب التاريخ للأبد بالقسوة والانحطاط وتبلد المشاعر، فقط من أجل هذا الوطن". منحني مُعلمي الفلسفة الأخلاقية الحاضنة لعملي الجديد. أمان الوطن يستحق كل شيء. تسقط الأخلاق من أجله. ولا عبرة للشرف والعفة والقيم النبيلة في سبيل ذلك، فابتغاء رفعة الوطن أنبل من أي نبل. العواطف

ضعف، والمحبة ثقل لمَن يعملون عملا سريا، لا صلات لا وشائج، لا ثارات شخصية ولا كراهية. نحن مُسخرون دوما للمصلحة العامة وهذا المصطلح تحديدا يُسقط كل الحواجز الدينية والعرفية والمنطقية من الحسابات كافة.

علمني "يوسف بك" كل شيء. دربني على الحركة والحديث والرقص والتعرف على الناس وعمل الصداقات، وارتداء الملابس الزاهية والتزين، والتدخين، وممارسة الإغراء. عرفني بأساليب الاستدراج والاستنطاق والتهديد، واستكشاف الجواسيس، وعودني قراءة الصحف لأيام ومتابعة المقالات والأخبار ووضع الاستنتاجات. شرح لي كيفية كتابة التقارير، واستخدام الشيفرات، وطرق التنصت، والسيطرة على الآخرين. سألني يوما عن سبب تسمية حزب الوفد بهذا الاسم، فأجبت، ثم سألني عن الفكر العام للحزب الوطني، واستجوبني في شعارات جماعة الإخوان، وعن توجهات أحمد حسين الفكرية، فتجاوزت توقعاته بكثير.

وهكذا قضيت ستة شهور كاملة لأصبح "سناء بكاش"، تلك الكاتبة الجميلة الساحرة التي تحوز المواهب والمهارات وتسحر الأبصار وتملك الألباب. وفي يوم ما قدمني إلى "حسن باشا رفعت" مدير الأمن العام، الذي بدا رغم بسمته وهيئته الأقرب للهزل منه إلى الجد، شخصا شديد القوة والقسوة، وقال له مفتخرا: *"أقدم لك سناء بكاش.. باكورة إنتاجنا"*. وقتها غمرني الباشا بنظرة فحص لا تُنسى وسألني في تودد: *"أنت من عيلة*

بكاش؟". لم أجب ورد عني "يوسف" قائلا: "كان لازم نشوف لها اسم عيلة محترمة. وسيادتك عارف أن عيلة بكاش لها مكانة دينية ومنها علماء كبار في الأزهر، ولها فروع في أسيوط والبحيرة والشرقية، ومحدش حيعرف هي من أي فرع". قهقه الباشا ولوح بيده هازئا: "دينية يا مفتري"، فأجابه "يوسف بك" قائلا: "تلامذة معاليك يا باشا". وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها "حسن باشا رفعت"، الأب الروحي للبوليس السياسي في مصر.

استأجر لي "يوسف بك" فيلا صغيرة بحدائق القبة، لها خفير نوبي، مؤثثة بأثاث أنيق، وكان يزورني كل يوم، سائلا وموجها ومُشجعا. كُنت أشعر بخواء عاطفي شديد، وكُنت أتصور أن عملي مع "يوسف بك" يعني بالضرورة استعادة علاقتي الجسدية به، لكنني فوجئت بثلوجة عواطفه وحزمه الشديد في تجنب الاستسلام لتلميحاتي المتكررة، ولم يكن عُربي المتعمد يُمثل له أي شيء جاذب يتجاوز رؤية لوحة فنية جميلة يتملى فيها بإعجاب صامت. وهكذا لم يبد أي تأثر بضغوط الإغراء التي مارستها تجاهه. لقد كان رجلا قويا وصلبا كما لم أتصور، وربما أفقدته المهام الجديدة الملقاة عليه بحكم منصبه خولته تماما.

دخلت الحياة العامة عبر بوابة الصحافة، في البدء اختار لي المُعلم صحيفة "المقطم" لأعمل بها. كنت الفتاة الوحيدة التي تذهب إلى مجلس الوزراء في أجمل زي لأسأل عن أخبار الحرب. كان سكرتير المجلس،

والذي لا أذكر اسمه كهلا قصيرا يبدو عليه كد السنين، وكان يتابعني بعينين زائغتين لا تصدقان أن هناك فتاة صغيرة لم تبلغ السادسة عشر تستطلع الأخبار وتطلب التصريحات وتكتب المقالات. كم قال لي في تعجب أنه كان يتمنى لو كانت له ابنة مثلي، تتعلم وتعمل بالسياسة والكتابة، وتساير التحضر والمدنية.

وفي يوم ما قدمني لمحمود باشا النقراشي، رئيس الوزراء عند ترجله من سيارته لأصافحه، لكن الباشا الكبير فعلها في برود، مندهشا أن يراني في مقر الحكومة، ثم انحنى على سكرتيره هامسا، ومن بعدها عرفت من السكرتير أن الباشا غير راض عن عمل فتاة صغيرة على درجة عظيمة من الجمال صحفية. عندئذ نقلت ما حدث لـ"يوسف بك" فبدا على وجهه كثير من الاهتمام، ثم طلب مني ألا أذهب مرة أخرى إلى مجلس الوزراء. لكنه أخبرني أن عملي لن يتوقف، ودعاني أن أقرأ كثيرا في الأدب، ولم تمر أسابيع قليلة حتى نشر لي قصصا ومقالات أدبية باسمي في مجلات "روزاليوسف"، و"الاثنين"، و"الهلال"، و"الرسالة"، ثم قدم لي كتابا لأقرأه بعنوان "السعادة" يحمل اسمي. كان أفضل ما في الكتاب أنه تضمن سيرة ملفقة لي تحت اسم "ساني" الفتاة الجميلة جدا التي تنتمي لعائلة عريقة، ومشهورة بتوجهاتها المحافظة ومولودة في إحدى مدن الصعيد. تقول الحكاية المزورة أن هذه الفتاة كانت محل محبة طاغية وتدليل زائد من والدها، لذا فقد أرسلها إلى مدرسة الإرسالية، وهناك تعلمت الإنجليزية والموسيقى، وأحبت الحياة الحديثة، ثم عاد والدها في نوبة عصيان

ضمير ومنعها من الذهاب للمدرسة لأن تقاليد الأسرة تُعد بناتها ليصبحن زوجات عظيمات فقط، مهمتهن الأولى والأخيرة خدمة الزوج وبناء الأسرة. حاولت "ساني" التملص من تقاليد الأسرة واستكمال التعليم حتى الجامعة، لكن العائلة أبت وأصرت على أن تتزوج بابن عمها الذي يعمل في مجال القضاء الشرعي. ورضاء بالحال هامت الفتاة الحالمة حبا بابن العم الثري ذي المكانة، وتمت الزيجة بالفعل، لكنها لم تستمر سوى أيام قليلة، حيث فوجئت بابن عمها يُطلقها امتثالا لأوامر والده، الذي دخل في نزاع كبير مع شقيقه على الميراث، وأصيبت بصدمة عظيمة ومرضت، وتقبلت العائلة نصائح الأطباء في ضرورة انتقالها للقاهرة لتمارس حلمها في الكتابة بالصحف لتصبح أديبة مشهورة. لم تكن الحكاية وحدها هي المفاجأة لي، إنما كان المفاجئ أيضا أن يكتب في مقدمة الكتاب الشاعر، والطبيب المعروف "إبراهيم ناجي" مبشرا بميلاد مبدعة عظيمة ستقلب موازين الأدب في مصر.

انتشلني "يوسف بك" من تيهي قائلا: *"نحن نصنع النجوم"*، ثم ابتسم ابتسامة مصطنعة وأضاف قائلا: *"وندفنهم أيضا متى أردنا"*.

فكرت قليلا، وقلت لصانع النجوم: *"خايفة إن عيلة بكاش تقول معندناش بنت بالصفات دي، ومفيش واحدة اتطلقت بعد يومين عشان خناقات عائلية"*. رد على الفور: *" فليكن. دي قصة ومكتوب عليها قصة يعني خيال. لكن بعد سنين الخيال ده هو اللي هيبقى*

الأصل". وأخرج يوسف حسين ورقة مطوية من جيب بذلته الداخلي وقال: "*عموما دي شهادة رسمية بطلاقك. طبعا من واحد مالوش وجود*".

كلفني "يوسف بك" باستغلال النجاح الذي حققه الكتاب، وعمل صالون ثقافي يضم نُخبة الكتاب والأدباء للتعرف منهم على خبايا السياسة وتوقعات التحولات القادمة. فما يدور في أذهان الناس مهم جدًّا لمعرفة ما هو آت. كانت التعليمات واضحة أن أمارس الإغواء دون الوصول لعلاقة جسدية، فعشر الرجال يضعفون أمام النساء الجميلات، ويبوحون بدواخلهم، وأهم شيء يجب معرفته هو أن لكل رجل مفتاحه، فالبعض يحب الكلام المنمق، والبعض يحب الحكايات والنمائم، وهناك من يحب أحاديث السياسة، لكن الجميع يحبون الإطراء، وينفتحون تماما أمام مَن يداعب غرورهم.

سألته عن الأسماء التي يريدني أن أدعوها للصالون، فقال لي:

"*كل مَن يكتب في الصحافة والأدب هو صيد ثمين لنا*". وكرر لي أسماء "عباس محمود العقاد"، "خليل بك مطران"، "إبراهيم ناجي"، "محمود تيمور"، "سلامة موسى"، "كريم ثابت"، "محمد التابعي". وحاولت التباهي بثقافتي، فأضفت سائلة: "*وصاحب أخبار اليوم.. مصطفى بك أمين؟*". فسكت قليلا، وقال لي: "*لا بلاش ده. ده مُدرب كويس جدا. ممكن يكشفك بدري*". سألته بوضوح: "*هو معاكم؟*"، فرد ماطا شفتيه: "*مش بالظبط. ده سكة تانية خالص. بس سكة خطيرة*".

قصاصة:

الذي أعرفه عن حسن فهمي رفعت باشا أنه من أكفأ رجال الأمن في الشرق، فقد بلغني أن الإنجليز أرسلوه من مصر ليتعلم فن الأمن في اسكوتلانديارد على الطريقة الاستعمارية، وكانوا قبل ذلك أرسلوه إلى روسيا أواخر عهد القياصرة، فتمرن بوليس التشيكا على قمع الحركات الوطنية، فلما أتقن هذه الفنون عينوه مديرا لتحقيق الشخصية ثم مديرا للأمن العام. وبقي قابضا على هذه الإدارة نحو عشرين عاما. وقد أخرج حسن باشا رفعت من منصبه في سنة 1948 فودعته الصحف بما هو أهل له.

محمد الطاهر في كتابه "ظلام السجن" 1951

***

(8)

الأحد 20 مايو 2001

بفستان مفتوح الصدر، يهوس أي إنسان لديه حس التقيت الشاعر "إبراهيم ناجي" في مكتبه حيث يعمل مراقبا طبيا بوزارة الأوقاف لأشكره على ما كتبه إطراء على كتابي. بدا الرجل متواضعا دون تكلف، رقيقا، طيبا، سهلا، وعاقلا تماما كما كُنت أتخيله من بعض أشعاره التي نشرها في الصحف. صافحت كفا دافئا يُنبئ عن شجن دفين وسخط ملحوظ على ظروف حياة موجعة ومكانة مفتقدة. ميزت وجهه بحاجبين كثيفين، يظللان عينين لامعتين، بينما حكى لي شاربه العريض

سيرة روح صلبة يُمكنها أن تواجه شتى الخطوب.

رسمت التدلل كما تعلمت، لكن ذكاءه البادي وقف كجدار صامت أمام محاولات الإيقاع به، وكأنه يقول لي: *"ما أبعد الشرق عن الغرب. أنا على مشارف الخمسين، حيث تخفت الآمال، وتتطلع النفوس للنهايات. عشق الخريف مُخيف"*. لامست بأصابعي جبهته كأني أزيل شعرة عالقة بها، لكنه اعتدل للخلف، وقال لي في حنو مقصود يُشجعني: *"برافو عليك يابنتي. كنت فاكرك كبيرة عن كده. كتابتك جميلة"*. اعتبرتها محاولة منه للتملص من أي إغراء متعمد، فقلت له بصوت يفيض انبهارا: *"يا سلام يا دكتور.. أنا محظوظة ان أجلس معك. هذا شرف عظيم جدا لي أن أتحدث مع شاعر رومانسي رقيق مثلك. في الديوان الأخير أنا مأخوذة جدا بقصيدة الخريف. يا فؤادي قاتل اللهُ الضجر.. وعذابي بين حِل وسفر"*. تمددت جبهته أمام ناظري، لأدرك كيف طعمت سنون العمر نصف شعره، وشكرني برقة مبالغة، وهو يُخبرني أن ناشري بعث إليه بنسخة من كتابي قبل طبعه، ولمس فيه حسا إبداعيا يستحق التحية، وذكره ذلك بالأديبة العظيمة "مي زيادة". حدثني قليلا عن هموم الحياة، والمسئوليات الملقاة على الرجال في المجتمع المصري، والحياة المفترض أن يحياها الطبيب وأسرته، وكيف أن الأدب لا يُمكن أن يُحقق أبدا راحة البال، فهو يُنفق عليه ولا يمن على أصحابه بشيء. انفلتت من كلامه شكايات موجوعة من أساطين الكتابة الذين لا يلتفتون للمبدعين المختلفين عنهم في التوجه، وانفتح مكررا اسمي "طه حسين"، و"عباس

العقاد" كمثقفين أشرار ممن لا يعترفون بإبداعه. وقال لي باعتداد: *"ليس شرطا أن أكرر العقاد كي أصبح شاعرا"*.

وافقته وكررت أمامه مقاطع من قصائد حفظتها في الطريق إليه، منحته بعض السعادة والرضا. سألته نصائحه، فنصحني بأستاذية ألا أتهيب من نقد ناقد أو أستسلم لرأي مُحبط، لأن الأفكار شتى، والذائقة تتغير من جيل لجيل. رجوته أن نصبح أصدقاء، فانفرجت أساريره ورسمت الغبطة خطوطها على قسمات وجهه، ثم دعوته لصالون ثقافي في أول خميس من كل شهر. كتبت عنه تقريري الأول، وختمته بنقاط ضعف واضحة: خجول، حزين، تتأثر صحته كثيرا بحالته النفسية، والمال هو هاجسه الأول.

كان "محمود تيمور" هو هدفي الثاني، خاصة أنه كتب ثناءً لا أستحقه على كتابي الذي لم أكتبه. اتصلت به أطلب المقابلة، فدعاني لتشريفه في منزله بالزمالك، صففت شعري، وتزينت دون تكلف وذهبت وبين يدي باقة ورد زاهية. استقبلني الرجل على الباب، بابتسامة هادئة، أنبأتني ملامح وجهه الحسن، بأنه أصغر كثيرا مما تُظهره الصور المنشورة في الصحف، خاصة بعد أن حلق شاربه. كان واضحا أنه سليل عائلة سامقة الأمجاد، متوارثة للعظمة، وعلى تماس دائم مع الفنون والإبداع. عكست لوحات الفنانين الكبار في أوروبا، الموزعة على حوائط البهو الرئيس بتناسق هندسي فريد انفتاحا واسعا على العالم والثقافات الأخرى. أخبرني

الأديب الحسيني بصراحة ووضوح بأن كلامه المنشور عن كتابي كان هدفه الأساسي هو التشجيع، وأنني في حاجة ماسة لاطلاع أوسع على الأدب العالمي وإلمام حقيقي بتطوره خلال السنوات الأخيرة. استغربت قليلا، فسألت في براءة: *"أو لم تكتبه؟"*، فرد: *"بلى"*، ثم أضاف موضحا بأنه فعل ما فعل لأنني امرأة، وقد فرح بظهور صوت نسائي جديد في بلد يفتقد للمبدعات. نظرت في وجهه الصافي كصحن لبن، فبان على قسماته بعض الارتباك، تململت في جلستي ورفعت رأسي مُظهرةً جِيدا ساحرا، لكنه استجمع شتات كهولته وغض طرفه صامتا، ثم سألني عن كُتابي المفضلين فذكرت له: موباسان، سومرست موم، وأضفت أجاثا كريستي، فران على وجهه بعض التبرم، ثم أسر لي بجدية شديدة بأن كتابتي كتابة تقليدية لم تعد تناسب التطور الحادث، وأن المهم هو أن أطور قدراتي وأحدث لغتي. سألته عما ينقصني ككاتبة، فابتسم مزهوا، وقال لي: *"اكتبي الواقع، ما يُمكن أن يحدث، لا تكتبي ما تتمنين حدوثه. الناس لم تعد تصدق القصص التي تتحدث عن انتصار الخير وهزيمة الباطل. الناس تعرف أن ذلك لا يحدث. وأمامك الحياة فيها حكايات لا تنتهي. لكن، تجنبي الوعظ فهو آفة الكتابة"*.

اقتنعت برأيه، وتلبسني ثوب المبدعة، غالبا نفسي الغاوية، فطلبت منه النصيحة بصدق، مشيرة إلى أنني أعيش في مجتمع شرقي، ما زال يرى النساء تابعات وخادمات للرجل لا أكثر ولا أقل. اعتدل الرجل قليلا، فبانت خلفه لوحة لعمته الشاعرة الحزينة عائشة

التيمورية، ونصحني بخبث أن أضمّن كتاباتي إشارات من التاريخ الإسلامي. ثم اقترح عليّ تتبع حكايات مشاهير النساء في العالم العربي متسائلا: *"ألا توجد في السيرة النبوية حكايات نساء؟ ألا توجد صحابيات عظيمات؟"*، واختتم الرجل عبارات النصح قائلا: *"لن يجرؤ أحد على أن يعترض على كتابة لك لو كانت عن السيدة خديجة بنت خويلد، أو فاطمة الزهراء، وأسماء بنت أبي بكر. ليس في مصر فقط، وإنما في الشرق كله. الفرصة أمامك. انطلقي"*. شعرت بأن الأديب المُبجل الذي ترك دراسة الطب من أجل الأدب فتح لي بابا أوسع مما أتصور، وعندما عدت إلى مخدعي، كتبت عنه تقريرا إيجابيا قلت فيه: أديب حقيقي، نزيه بحق، مُعتد بذاته، لديه شعور وطني قوي، يُجامل أحيانا لكنه يفهم الناس جيدا. ويبدو أن هذا التقرير لم يعجب مُعلمي الكبير، فقال لي بعد أن قرأه: *"هو انت يا بنت يا سناء بتكتبي بجد ولا إيه؟ دا مش مقال ادب. إحنا عاوزين قلة أدب. فين النقائص والعيوب ونقاط الضعف؟"*. وضرب كفا بأخرى في حركة تمثيلية سخيفة، وابتلع رشفات نبيذ من زجاجة فتحها فور قدومه، ثم رمقني بحسرة مصطنعة قائلا: *"يا خسارة تعليمك يا يوسف بك"*.

فهمت الدرس جيدا، وصححت الأداء كثيرا فيما بعد، فعقدت لقاءات تالية عديدة مع "محمود حسن إسماعيل"، "عبد الرحمن صدقي"، "محمد التابعي"، "محمود أبو الفتح"، "إحسان عبد القدوس"، "إبراهيم عبد القادر المازني"، "خليل مطران"، وغيرهم، وكتبت عنهم

مستكشفة ما تخبئه نفوسهم، لكنني فشلت تماما في استكشاف "عباس محمود العقاد"، فهذا الرجل كان أبيا على الكشف، وظل دائما لُغزا مُحيرا.

***

(9)

الثلاثاء 22 مايو 2001

خمسة عقود ونصف مرت بالتمام على لقائي بعملاق القلم وما زلت أجهل أن أصنفه، وما كتبته في تقريري عنه مذبذب وركيك وغير مُجد، لدرجة دفعت "يوسف بك" نفسه إلى اتهامي بالوقوع في غرامه. أخبرني معلمي أن الأستاذ "العقاد" أبَى أن يكتب شيئا عن كتابي "السعادة" رغم أنه كان أول مَن أرسلت إليه نسخة منه، وأن هذا يصلح أن يكون مدخلا لبدء علاقة قوية. أسر لي رجل الأمن الماكر بأن "العقاد" كاتب متنوع الطلات لكن لديه حضور قوي، ومؤثر، وهو مع هذا شخص مُحير ولا يُمكن الوقوف على ما في داخله. إنه رجل شديد الاعتداد بنفسه، موغل في استقلاليته، له صولات غريبة وهبات مُقلقة، وبمعنى آخر فهو شخص خارج عن السيطرة تماما. وفاجأني معلمي بأن التعليمات الخاصة بتجنب العلاقة الجسدية مع الأشخاص كافة الذين أصادقهم تسقط مع العقاد، لأنه شخص استثنائي. أتذكر جيدا غمزة "يوسف بك" وهو يقول لي: "جربي معه سحرك".

بسذاجة البدايات تصورت أنه هدف سهل، فكل رجل جاوز الخمسين من عمره، بل الأربعين هو صيد

سهل لفتاة يافعة، فاتنة، وذكية، تتقن سحر الغواية. ذاكرته جيدا، وظننت أنني سأقوده حيث أريد وسأدهش المباحثيين التقليديين الذين يصنفونه بشخص خارج السيطرة. قرأت كل ما كتب وحرت كثيرا، ففي بعض الأحيان رأيته يطرح الرأي ونقيضه، والمعنى وعكسه، وبدا لي في وقت ما أنه لا يؤمن بشيء ألبتة، ثم بدا لي في وقت تال أنه يؤمن بكل شيء. هو بوذي، وأرثوذكسي، ومُسلم، وملحد في آن واحد. وهو شيوعي وإسلامي ووفدي وسعدي وفاشي في الوقت ذاته. تنطق كلماته بمحبة لكل الفلسفات والأفكار ويظن قارئه أنه مُقتنع بها ثم يتبدد هذا الظن عندما ينقدها. قرأت له معظم كُتبه. دواوينه، بحوثه الفلسفية، ما قدمه في كتابه "عبقرية محمد"، وما خطه عن سعد زغلول وهتلر والنازية، وما صكه عن أبي العلاء وأبي نواس، ووقفت كثيرا عند رواية "سارة"، وتعايشت مع محاوراته معها، تلك التي تنم عن افتتان قوي بالمرأة، ثُم ينقلب هذا الافتتان إلى سخرية.

كل ذلك كان مهما، لكن ما كان لافتا هو ما قرأته في تقرير سابق للقلم المخصوص عنه حيث يشير إلى تعلمه وحصوله على الشهادة الابتدائية، ثم قدومه من أسوان للعمل في القاهرة وضيقه بالوظيفة الحكومية وانخراطه في الكتابة بالصحف، وعلاقته الوطيدة بسعد زغلول، وتحقيقه لجماهيرية واسعة استمدها من قوة المنطق والقدرة على الجدل والإقناع. بدا كاتب التقرير المجهول على دراية ما بحرفة الأدب وهو يقول: "وفي وثبة غير متوقعة، صار "العقاد" عضوا بالبرلمان، ووصل به الحال

إلى أن هدد بسحق أكبر رأس في البلد يقف في طريق الدستور، واتهم وقتها بالعيب في الذات الملكية، وحكم عليه بالسجن لتسعة شهور، قضاها في ألم ومكابدة، وكانت كفيلة بتغيير أفكاره، ثم جعلته أقل اكتراثا بالسياسة. وفيما بعد اختلف "العقاد" مع مصطفى النحاس، خليفة سعد زغلول في زعامة الوفد بسبب كتاباته في مجلة "روزاليوسف" وأصدر حزب الوفد بيانا اعتبر فيه المجلة و"العقاد" معا لا يعبران عن رأي الوفد، وهو ما دفع الكاتب أن يخاصم الوفد وينضم للسعديين، ثم شعر بابتعاده عن الأضواء، فعاد مرة أخرى للانخراط في الأدب. وسعى البعض لإصلاح علاقته بالقصر فدعاه لحضور حفل للاحتفاء بالملك فاروق، فقام بإلقاء قصيدة ترحيب به، لكن الملك خذله وأحرجه وقال له أمام الناس: *"إننا كنا نتمنى أن يقال هذا الكلام لوالدنا"*. ومن يومها وهو عنصر خارج الاستيعاب فيما يكتب أو يقول".

ما المطلوب مني بشأنه؟ سألت رئيسي بوضوح، فقال لي مبتسما: *"قراءته أولا، ثم السيطرة عليه فيما بعد. مطلوب منك أن تساعدنا عليه، فاسمه مهم لنا، وللسرايا ايضا. وأنا كل نجاح لي، هو بالضرورة نجاح لك. فأنت فتاتي الصاعدة. ومعا سنملك كل شيء"*. حاولت أن أعتبر عبارته تلميحا إلى أن بيننا علاقة حب أبدية، لكنه كان حاسما وهو ينكر بعد قليل ذلك قائلا: *"ما بيننا اكبر من أي حب. علاقات المصالح يا سناء أقوى من علاقات العاطفة"*.

من مكتبي الجديد الذي قمت باستئجاره في شارع فؤاد، وفي الساعة التاسعة صباحا حيث يصفو البال، وتتحرر الأفكار هاتفت صاحب القلم المنشود، فأجابني خادمه بأدب جم، راجيا بأن أترك رقم هاتفي، وسيعاود الأستاذ الاتصال بي بعد ساعة. انتظرت ستين دقيقة بالضبط، وعندما نظرت إلى الساعة وهي تدق العاشرة، التفت إلى الهاتف الذي رن في اللحظة ذاتها، فرفعت السماعة لأجد صوتا عميقا يبدو وكأنه قادم من أزمنة ولت. كُنت أدرك أنه هو، فابتدرته بسعادة غامرة: *"أهلا يا أستاذ"*. ثم اندفعت متأثرة برغبة الإنجاز، وهيبة الحديث مع أديب عظيم، لأقول له أنني قرأت كل كتبه، واستفدت منها، وأرغب في لقاء معه لأناقشه، فقال مازحا: *"كده مرة واحدة؟"*. ثم سألني إن كُنت أنا مَن كتبت، ونشرت كتابا عن السعادة، فقلت بسرور: *"نعم"* وسألته رأيه، فاكتفى بقوله: *"ليس سيئا بالنسبة لكاتبة مبتدئة"*، ثم أضاف بصوت خفيض: *"معقول جدا"*. استعدت ثباتي، وشعرت بنبرة تعالٍ واضحة في محدثي فقلت له بعصبية مصطنعة: *"يا أستاذ: انا لا أفهم إن كان ذلك مدح أم ذم"*، فجاءني صوته مُصححا: *"مدحا أم ذما، فهي خبر كان"*، ضحك وحده، فسكت للحظات وأدركت كيف يصعب التعامل مع صاحب قلم مُعتد بذاته. لاحظ صمتي، فبادر ملطفا بأنه يعقد صالونا صباح كل يوم جمعة في منزله بشارع سليم في مصر الجديدة، وسيكون سعيدا لو شرفته بالحضور.

أخبرت "يوسف بك" بما جرى، فدعاني للتجهز للقاء بقراءة بعض ما نشرته الصحف عن صالون العقاد،

وأخبرني أنه من المهم ألا أتحول لـ"سارة" جديدة، أو "هنومة" أخرى في إشارة لحبيبات عرفهن الكاتب الكبير، فحولهن إلى مجرد قصة أو مقال. ارتديت فستانا كُحليا، مُزينا بزخارف من خيوط الدانتيل، اشتريته خصيصا من شيكوريل، أبان جِيدا مُضيئا، وكتفين رخاميين، ولبست قرطا ذهبيا وعقدا من اللولي يُنبئ عن ثراء لافت، قبل أن أضع في قدمي كعبين عاليين برفعان قامتي لتقارب شخصا فارع الطول مثل الأستاذ. التزمت بتعليمات مُعلمي فذهبت في الموعد تماما، لأجد الأستاذ الهدف يرتدي بجامة كستور مقلمة، ويضع فوق رأسه طاقية صغيرة من الصوف، ويلف حول رقبته كوفيه، ويجلس وحيدا على كنبة صغيرة، وأمامه الحاضرون من شباب في العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات من أعمارهم، والجميع صامت لأن الأستاذ يتحدث. لمحني في إثر الخادم قادمة، فأشار بكفه كي أجلس إلى جواره، ما رفع حواجب الحاضرين دهشة.

كُنت أنا المرأة الوحيدة بين بذلات وقصان وطرابيش متباينة الأحجام، واختار الرجل أن يتكلم عن فضل العقل البشري على مسيرة الإنسان. كان حديثه -رغم التزامه بالفصحى- أجمل من كتاباته، وساهمت حركة يديه وإشارات أصابعه واهتزازات رأسه في تأكيد أفكاره ومنحها حيوية. لفت نظري أن بعض القطط تشارك محبي الأستاذ في حضور صالونه، وكأنها تستمع في ألفة غريبة لما يدور من حديث. لم تمر خمس دقائق حتى دخل الخادم النوبي النحيل بأكواب من الليمون

البارد، ولم تمر خمس دقائق أخرى حتى دخلت فناجين القهوة. استمعت إلى أسئلة وتعليقات الحاضرين، التي لم تبد أي اختلاف مع ما يقوله الأستاذ، ثم التفت الرجل نحوي، فغمرني بنظرة استعلاء قوية وسأل بنبرة إرضاء عن رأيي فيما قاله وما قدمه من آراء حول العقل وقيمته، فخاطرت وأعلنت اختلافي معه مستندة إلى أن الأديان عموما تقدم لنا كثيرا من التصورات غير العقلانية، وأننا لو استخدمنا عقولنا مع الدين لكفرنا جميعا.

كُنت أتحدث وعيناه تتفرسان في وجهي باستغراب شديد حتى شعرت أنه يخترقني بنظراته، فقال لي مباغتا: "*أنت لم تكوني معنا، ونحن نتناقش. فقيمَ سرحت؟*". أربكني الكشف، فقد كان محقا. وتلجلجت قليلا، فقال: "*لقد قلنا إن الإنسان ترقى في العقائد كما ترقى في العلوم. عبد الشمس أولا، لأنها مضيئة وظاهرة للجميع، وعبد النجوم، ثم عبد النار، ثم وضع بعد ذلك تصوره للإله وعبده في شتى الصور وصولا إلى التوحيد*". حاولت التشبث بما أقول لكنه واصل قائلا: "*إن المفهوم الديني يتغير من عصر إلى عصر وهو صحيح في كل عصر. والعقل البشري الآن يُدرك أن هناك قوة ما تمسك بالكون، فلكل شيء دور، ولكل شيء معنى*"، فعدت لأسأل: "*لكن لماذا عبد الكفار الأصنام وكانوا يمتلكون عقولا تماثل عقولنا؟*"، فابتسم الرجل وقال: "*إن الذين آمنوا أن الأصنام آلهة لم يكونوا على خطأ، فهذا كان فهمهم وفق زمانهم*"، استجمعت شجاعتي ومعارفي المحصلة وقلت له: "*لقد وصمهم القرآن*

بالكفر"، فأجاب على الفور قائلا: *"صحيح، لكن فهم القرآن نفسه يختلف من عصر النبي للعصر العباسي لزماننا، فلكل زمن تصوره"*. شعرت أنه حاصرني برؤاه، وحججه، فلم أتمكن من الرد، فلذت بالصمت. ربما سمعته بعدها يتحدث عن الحياة وضرورة تقبلها بكل ما فيها من حسنات وعيوب، خير وشر، صحة ومرض، شباب وشيخوخة، أبيض وأسود. وعلى مدى ساعتين إلا قليلا دارت أحاديث متنوعة أشعرتني بجهلي وحاجتي الماسة لأن أقرأ أكثر وأكثر. ثم شعرت بصداع قوي يحاصرني، وبعد قليل قمت مستأذنة، فقام الأستاذ بأدب غريب وأوصلني حتى الباب وسط دهشة الحاضرين.

في اليوم التالي وكما توقعت، هاتفني الأستاذ سائلا عن حالتي الصحية، فطمأنته لكنني قلت له إن لي حقا عنده. *"لم؟"* أجابني سائلا، فأخبرته بأنني كنت أود مناقشته في رأيه في كتابي عن السعادة، وأنه استدرجني للقاء فيه جمع من التلاميذ والمستمعين للحديث في موضوع آخر لم أقرره أو أختره. قال لي بأدب مقصود: *"أصبت. لك الحق. ما تطلبين؟"*، فدعوته لزيارتي في مكتبي بشارع فؤاد، حيث أكتب، فوافق بعد لحظة صمت.

وكان اللقاء في اليوم التالي عصرا. دلف الرجل المهيب إلى مكتبي بجسده الطويل، أنيقا في بذلته الرمادية وكوفيته الملتفة حول عنقه، لاحظت أن رأسه كبير، وعينيه شاخصتان نحو السماء، وبدا مرهقا بعض

الشيء، لكنه لم يكترث تماما لتركي يدي بين أصابعه، وكأنه جبل رخام.

سألته بوضوح: *"لماذا لم يعجبك كتابي؟"*. فأجاب بثبات وجدية قائلا: *"لأن ما فيه كتابة ناقلة لا مُنتجة. الآراء ليست آراءك، وأنت لا تقدمين جديدا، وأي إنسان يُمكن أن يقرأ كتابا ثم يُعيد حكيه مرة أخرى، وهذا لا يصنع كتابا يستحق القراءة"*.

لاحظت جولة عينيه في أركان الغرفة، رمى ببصره نحو مكتبة صغيرة تزدحم ببعض الكتب في الجهة المقابلة لي، وسادت لحظات صمت، وكأنه ينتظر وقع كلماته علي.

حاولت مشاكسته، فسألته: *"هل يمكن أن يكون رأيك هذا نابعا من موقفك الإنساني من المرأة؟"*، فابتسم، وأجاب السؤال بسؤال: *"ما هو موقفي الإنساني من المرأة؟"*. لُذت بالصمت حين نظرت في عينيه، اللتين تخترقان خلايا الدماغ، وتعريانها تماما. تحدث بنصف ابتسامة، فقال: *"أنا لا أحتقر المرأة لأنها خلق الله، فكل خلق الله له قيمة ودور في الحياة. لكن دور المرأة الأول هو إرضاء الرجل وإسعاده. فالمرأة تصون الحياة والرجل يطورها. وفي حقيقة الأمر، فإن المرأة لم تتفوق في شيء. هي تلد منذ مئات الآلاف من السنين ومع ذلك لم نعرف طبيبة توليد بارعة. المرأة تطهو لكن اشهر الطهاة رجال، والمرأة تخيط الملابس لكن أفضل الخياطين رجال. والمرأة تبكي وتلطم وترثي لكن أفضل قصائد الرثاء هي ما كتبها الرجال. إن الذين يسيئون*

للمرأة هم مَن يجاملونها وينافقونها، ومن يُحسن إليها هو من يصارحها بحقيقتها. ولا مجال لمقارنتها بالرجل، فهي تستلذ الضعف، وارتباطها بالرجل إما بالإرضاء أو الإغواء".

قلت وقد أزعجتني سخريته: "لكنك كُنت مبهورا بمي زيادة وكتبت عنها ما يناقض ما تقوله الآن"، فرد قائلا: "إنني لم أكتب خلافا لما أقول، لأن شيئا لم يتغير. وأنا كُنت أصارح مي برأيي وأناقشها فيه، وما أتذكره جيدا أنها حاولت أن تدفعني لأكتب عن حق المرأة في الترشح في البرلمان والتصويت في الانتخابات، وكنت اقول لها بوضوح إن المرأة تحب الديكتاتورية، وترفض الديمقراطية، لأن طبيعتها تتجاوب أكثر مع مَن يقهرها ويرغمها".

وضعت يدي فوق كتفه وقلت:

- "لكنك تحتاج إليها".

نظر إليّ باستغراب، فوجت شعري بأصابعي، واستجمعت شجاعتي وسألته بعد تحرري من حواره بالفصحى: "ليه ما تجوزتش يا أستاذ؟".

ابتسم ابتسامة باهتة، وأنزل يدي من فوق كتفه، وقال لي: "الزواج يحتاج لمأذون والحب هو المأذون، وعندما أتاني الحب لم أكن مستعدا له، وعندما ولى لم ابك عليه".

ضحكت بتدلل، وقلت له: "أنت أديب كبير الآن، وأنت معروف وتكتب في كبرى الصحف، وميسور

الحال، فما يمنعك أن تحب؟ ألا يهزك الجمال؟ ألا تُحرك الأنثى مشاعرك؟".

كرر جولة بصره في أرجاء المكان، ثم قال لي: *"الجمال نسبي، ويتغير من زمن لزمن، فما كنت أراه وأنا شاب صغير، يختلف عما أراه وأنا ناضج، ويختلف أكثر عما اراه وأنا شيخ. وبالمناسبة لم أعد فريسة للإغواء".*

ضايقتني صراحته، فاشتعل في رأسي الغضب، وسحبت سيجارة من علبة سجائري، وأشعلتها بعصبية ظاهرة ونفثت خطا من الدخان، ونظرت إلى عيني "العقاد" وسألته:

- *"إذن لماذا جئت؟".*

- *"لأن جمال الأنثى عندي هو ذكاؤها، وأنت فتاة ذكية".*

لم أفهم ما يرمي إليه، فعُدت إلى كتابي، وسألته عن رأيه في أسلوبي وكيف أطوره، فقال لي: *"لا تشغلي بالك برأيي. أنت لم تكتبي شيئا لتطويره. أنت ممن يكتب لهن، بدليل أن أسلوبك يختلف من مقال لمقال، ومن قصة إلى أخرى".*

أخرستني المباغتة، فأكمل قائلا: *"ثُم ما هذا المكتب الذي تعملين منه؟ من أين جئت به يا ابنة السابعة عشر؟ فحتى لو كُنت من عائلة ثرية، فلا معنى لأن تخلدي مكتبا خاصا".*

ورنا ببصره إلى جسدي ورماه بنظرة فاحصة قبل أن يقول لي: *"اقرئي روايات الماركيز دي ساد، فهي أنفع*

لك".

خذلني الكشف، فقام واقفا، وسألته بصوت مرتعش: 'هنتقابل تاني إمتى؟".

فقال بثقة: "لا أظن أن لقاءنا مرة أخرى سيفيدك. لقد حققت لك ما أردته حتى أساعدك في ما هو موكل إليك". سألت همسا: "ما تقصد؟"، فقال بوضوح: 'كل ما فهمته.. قلت لك: أنت لم تكتبي كتابا عن السعادة. أنت ممن يُكتب لهم. وهذا لا يعنيني. أنت مكلفة بقراءتي، ولقد منحتك الفرصة كاملة عن رضا حتى أساعدك، لكن طريقي لا يتقاطع معك. فامض في طريقك، لن أتعرض لك بكلمة بشرط أن تجنبيني، فلديّ ما ينبغي أن أنجزه". وقام الرجل الطويل مبتسما، قبل أن يُصافحني ببرود ويغادر.

قصاصة:

وفي أحد الأيام جاءت سيدة بيضاء ممتلئة، لا نعرفها، قيل إنها صحفية، ويبدو أنها تعرف الأستاذ. ومن العجيب جدا أننا وجدنا الأستاذ قد أجلسها إلى جواره، وليس على مقعد من المقاعد الأخرى. وكانت هذه أول مرة نراها في صالون العقاد، وكان ذلك سنة 1944. فقد كان من عادة الأستاذ أن يجلس على هذا المقعد الطويل وحده، لا يشاركه أحد. وأغرب من ذلك أن هذه السيدة كانت تتحدث أكثر مما كان يفعل العقاد. وأعجب من هذا كله أنها عندما كانت تتحدث إليه تضع يدها على كتفه وأحيانا على يده. وبسرعة تلاقت عيوننا استنكارا لذلك. إذ كيف تجرؤ هذه السيدة الغريبة أن

تلغي المسافة بينها وبين الأستاذ الكبير. وهمس واحد في أذني: هل أقوم وأضربها وأطردها من صالون الأستاذ؟ ولم أرد عليه فقد كان المنظر غريبا عجيبا، ولم نعرف كيف ينتهي. وبسرعة انتهى هذا المشهد الفريد الذي لم نره بعد ذلك في عشرين عاما. خرجت السيدة وودعها الأستاذ إلى الباب الخارجي، ولم يجرؤ واحد أن يستوضح الأستاذ كيف حدث ذلك.

أنيس منصور في كتاب "في صالون العقاد كانت لنا أيام".

(10)

الأربعاء 23 مايو 2001

ارتبت في "حُسن" فقررت القيام بتفتيش سري لغرفتها بعد خروجها إلى السوق. قدرت غيابها بنحو ساعة على الأقل وهي تكفي لنبش أسرارها وكشف ما تخفيه من خبايا. ساءلت نفسي: هل يُمكن أن تكون هذه البنت مدسوسة عليّ لمراقبتي والانقضاض عليّ وقت صدور الأمر؟ هل يستخدمونها لدس سم بطيء في طعامي بغرض تصفيتي باعتباري عميلة خارجة من الخدمة؟ هل جُندت هذه الساهية لسحقي وكسر معنوياتي حتى أخضع للقائد الجديد الذي لا بد وفتش في الملفات القديمة، فهاله ما قدمت، وخشي أن أطلب ما أستحقه من تكريم؟

كُنت قد تعلمت في مسيرتي ألا أثق بأحد، وألا أستبعد فرضا، وأن أشك في كل شخص حولي، ففي كثير من الأحيان تأتي الطعنات من الأقربين ظنا

منهم أن المصلحة الأعلى تدفعهم للتضحية بكل غال مهما بلغت درجة غلاوته. دلفت بخطوات بطيئة إلى الغرفة الضيقة المزدحمة بكراكيب قديمة، وصالون مُكهن، إلى جوار سرير صغير، التي أسميها خطأ بغرفة "حُسن". فتحت الدولاب الصغير المجاور، لأجد رفين من الملابس تتكوم فيهما سراويل جينز، وتي شيرتات، وبلوزات مختلفة الألوان، وكم كبير من الملابس الداخلية التي مللت منها، فقدمتها لخادمتي عن طيب خاطر. أزحت بعضها فلم أجد شيئا لافتا سوى علبة ماكياج بسيطة تقتصر على مكحلة وقلم روج صغير. واصلت التفتيش بصبر لأجد زجاجة عطر تفوح منها رائحة الياسمين النفاذة، غير أن الزجاجة دلت على تصنيعها في محل صغير بوسط البلد اسمه "نسائم". لاحظت وجود جريدتين فوق الكومودينو ولفت نظري المانشيت العلوي المكتوب باللون الأحمر الذي حمل عنوانا يقول "فعل فاضح في استاد القاهرة". فكرت قليلا عما يكون هذا الفعل ثم تذكرت أن الناس كانت تهلل قبل أيام في الشارع، ما دفعني أن أسأل "حُسن" عن ذلك لتخبرني بأن النادي الأهلي فاز على الزمالك بستة أهداف، مقابل هدف واحد. قلت لنفسي: هل هذا هو الفعل الفاضح؟ ما أتفه الصحفيين في هذا الزمن!.

نظرت إلى الفراش، كان نظيفا ومرتبا كما عودتني النوبة المنمقة. قلبت الوسادة، لم أجد شيئا، فددت يدي أسفل المرتبة دون جدوى، ثم قررت القيام بحركة خطرة على مفاصلي، فهبطت تدريجيا مستندة على السرير حتى جلست تماما على الأرض، ونظرت

أسفل السرير، فوجدت كرتونة قديمة لكنها بعيدة عن أن تطالها يدي. تحاملت على نفسي مرة ثانية ونهضت لأحضر المقشة، وأسحب بها الكرتونة الناعسة أسفل السرير. شعرت بثقل الكرتونة وهي تمسح البلاط قادمة قبل أن تتكشف أمام ناظري. كانت بعض الصحف المتربة تتكوم على قمة الكرتونة، رفعتها واحدة وراء أخرى، فوجدت خنجرا مذهبا مفزعا، داخلا في جراب نحاسي بديع، سحبته منه، فبان لمعانه وانقبض قلبي لشرشرة النصل المعقوف، وشعرت برهبة وأنا أتخيل اليد السمراء وهي تغرس الخنجر في ظهري. تصورت أنها يُمكن أن تذبحني وأنا نائمة ثم تُغادر في سلام، وفي الغالب لن يعرف أحد بشيء حتى أتعفن تماما، لأن القاتلة المكلفة هي الوحيدة التي تفتح الباب وتغلقه للبواب ولعامل الصيدلية ومحصل النور، بعد أن هدني المرض.

فتشت بيد خبيرة ومدربة في الكرتونة المخيفة، فوجدت برطمانا صغيرا به مسحوق أصفر، قربته من أنفي لكنه كان بلا رائحة. اكتمل السيناريو تماما في ذهني، فالفتاة الساهية لديها خطة مرسومة لاغتيالي، وبمجرد جرح بسيط تحدثه لي بالخنجر المعقوف بعد غمسه في برطمان السم سينتهي كل شيء. اسمي وفعلي وكياني وتاريخي غير المدون. قلت لنفسي مثلما قلت مرارا كلما واجهت شبح الموت "فليكن. فَمَن يحيا إلى الأبد؟". لكنني أشفقت أن تكون نهايتي على يد هذه المسكينة البائسة التي تبدو بلهاء حينا وجبانة حينا آخر. لقد واجهت من قبل خبثاء وجبابرة وأصحاب سطوة

وغلبتهم جميعا، فمن هي هذه النكرة لتُصفيني؟!

تذكرت سابقاتي، وقررت الغداء بالبنت النوبية قبل أن تتعشى بي. صببت بعض مسحوقها المخفي في كفي، وأغلقت البرطمان ثم استجمعت شتات عقلي ورتبت كل شيء كما كان تماما، ثم جلست في الصالة منتظرة قدوم القاتلة الساهية بعد أن أخفيت مسحوق النهاية في جيب روبي. مرت ساعة وأخرى، وفي ذهني كان كل شيء مرسوما بعناية ويسر: ستأتي "حُسن" وأطلب منها كوب شاي، وستقوم بعمل النسكافيه لنفسها كما اعتادت، وبعد جلوسها سأطلب منها إحضار أي شيء آخر، وعندما تقوم سأضع السم في النسكافيه، لتنتهي إلى الأبد. وسأبحث عن فتاة أخرى لخدمتي.

غفوت قليلا، واستيقظت على صوتها وهي تسألني إن كُنت أرغب في الجلوس إلى الشرفة والإطلال على ميدان طلعت حرب وشرب الشاي لحين إعداد الغداء. قلت لها بعصبية وتوتر: *"قلت لك مرارا يا حُسن أن الميدان اسمه سليمان باشا، وليس طلعت حرب"*. هزت رأسها ولم تجادلني فطلبت منها أن تعد لي الشاي لأتناوله في مقعدي، ثم قلت بحنو أم: *"واعملي لنفسك حاجة نشربها معايا. عاوزة أتكلم معاك"*. طاوعتني دون تأفف، وجال بذهني أنها ربما تدس لي السم في الشاي القادم، ثُم تذكرت أن البرطمان موجود في العتمة أسفل السرير، ورغم ذلك قررت ألا أشرب شيئا حتى تنجح عملية تصفيتها. أعدت الشاي والنسكافيه، وأحضرتهما ثم طلبت منها إحضار علبة الماكياج الخاصة بي، فاندهشت

لكنها أطاعت، فألقيت بكومة السم في كوبها سعيدة بانتصاري.

جاءت الفتاة ووضعت علبة الماكياج على المنضدة وجلست، فقلت لها ببسمة زائفة: "*إيه الأخبار يا حسن؟*". فتحت علبة سجائرها وأخرجت واحدة وأشعلتها ثم سحبت نفسا أتبعته برشفة من كوبها وهي تقول: "*شفت بالليل حفل ملكة جمال الكون. تصوري إنها شبهي*". جاريتها قائلة: "*ياه شبهك؟*". فواصلت قائلة: "*آه اسمها دينيس كوينيس من بلد اسمها بورتوريكو، بس هي فاتحة شوية*". رشفت رشفة ثانية ولاحظت تغير المذاق، لكنها واصلت حديثها في شتى الأمور دون أن يطرف لها جفن. قالت لي وهي ترمقني بنظرة ماكرة: "*أنت ما شاء الله يا سناء هانم صحتك اتحسنت ووشك رادد. الظاهر كتابة مذكراتك حسنت مزاجك*". لم أعلق، فواصلت: "*خلصتي كم سنة بقى؟ لما تخلصي خالص هاقراها كلها*". لم أنبس وقلت في سري "فات الميعاد".

دخلت لتعد الغداء، فأمسكت القلم وأنا أتوقع صوت سقوطها بين الحين والحين، ومع مرور الوقت قررت الكتابة، فاستفززت ذاكرتي وألححت عليها حتى نسيت "حُسن" والسم والغداء والسقوط المنتظر.

كان ذلك اليوم غريبا عندما تلقيت اتصالا من "حسن باشا رفعت" بنفسه يطلب أن ألتقيه في محل جروبي بوسط البلد في الساعة الثامنة مساء. خمنت أن الباشا الكبير ربما يرغب في توبيخي بعد فشلي في الإيقاع

بـ"عباس العقاد". لكني لاحظت أن "يوسف بك" سكت طويلا عندما أخبرته في الهاتف باتصال الباشا، وكأنه لا يعرف شيئا. وأتذكر جيدا أنه قال لي ألا أرد بأي تفاصيل على أسئلة الباشا لي، وأن أشتت الحديث بقدر المستطاع، ثم قال لي: *"لما ترجعي كلميني واحكي لي كل شيء بالتفصيل"*.

جلست لأكثر من ساعة منتظرة قدوم الرجل الكبير حتى أقبل مصحوبا بهيبة حقيقية. جلس متكوما بقامته المهيبة وجسده المترهل واضعا ساقا فوق الأخرى. كان يُمسك بمنديل أبيض في يده يستخدمه بحركة آلية لمسح ذقنه دون سبب واضح. بدت عيناه كبئرين عميقتين نضبتا قبل قرون، ولاحظتهما تُركزان النظر على شفتي وهما تتلامسان بعفوية الحديث المتحرر. قلت لذاتي أن اختيار الرجل للحديث معي يعني أنني مهمة جدا، وأن التطور الحقيقي لي هو أن أنتقل من خدمة باشا صغير إلى باشا كبير، وما دام "حسن باشا" رئيسا لرئيسي، فالأفضل أن تكون العلاقة معه مباشرة. حكيت له بوضوح كامل ما فعلته مُنذ جندني "يوسف بك"، لم أخف شيئا، ولاحظت أن طرفه ارتد عدة مرات خلال الحكي، ما يعني أن ما سمعه كان للمرة الأولى. قال لي بعد أن أنهيت اعترافاتي: *"عاوزك تنسي كل اللي فات. الأدباتية اللي بتشتغلي عليهم ملهومش لازمة. حتى "العقاد" ده. وقت الجد ولا حاجة.. إحنا عاوزينك تنزلي الحلبة الحقيقية"*.

"مش فاهمة؟!"، قلت متسائلة.

واصل مسح وجهه بمنديله وقال لي: *"الزعما والساسة الكبار لازم يكونوا هدفك الحقيقي. البلد ولعانة. بعد ما قتلوا أحمد ماهر، وأمين عثمان.. كل شيء محتمل. في خمسين عصابة بتلعب في البلد. واحنا لازم نكون صاحيين".*

أبلغني أنه سيعيد تدريبي وسيكلفني بمهام واضحة، وسيخصص لي راتبا شهريا مقداره خمسون جنيها. أجلمتني المفاجأة. قلت في نفسي "انفك النحس. أنا السنديونية البائسة، الواقفة في طابور المرق، خادمة الممرضة الأيرلندية، وجارية الشرطي الخشن، تحوز الرضا كله وتأخذ راتبا خياليا".

ابتسمت ابتسامة نصر، وقلت للرجل بآنفة مصطنعة: *'لكن يا باشا سعادتك تعرف أن الاقتراب من علية القوم يحتاج مصاريف كبيرة، ملابس ومجوهرات ومظاهر مضيئة".* أوقفتني إشارة من كفه وهو يقول: *'متشغليش بالك.. كل شيء في سبيل العمل متاح. مش هنبخل عليك، ما دمت تنفذين ما نطلبه تماما".*

وأضاف قائلا: *"ومن هنا ورايح. شغلك معايا أنا بس. التقارير اللي تكتبيها هابعت لك ساعي كل يوم الصبح للمكتب هياخد منك مظروف ويديك مظروف، متلاقي فيه التعليمات. تقريها وتحفظيها وبعدين تقطع. مفهوم؟".*

هززت رأسي بالموافقة.

ثم سألت الباشا عن "يوسف بك"، وماذا أقول له لو سألني عن هذا اللقاء. فكر الرجل قليلا ونظر إلى

أعلى، وقال وهو يضحك: *"قولي له. إني طلبت أقضي ليلة معاك"*. ثم واصل قهقهته لتترجرج كل الدهون في محيط بطنه.

***

(11)

الجمعة 8 يونيو 2001

بعد فترة انقطاع طالت أسبوعين أقنعتني "حُسن" بضرورة أن أعود إلى الكآبة مرة أخرى. كُنت قد سقطت من طولي وأنا مُصرة على الاستحمام وحيدة، وطلبت لي "حُسن" الطبيب الذي أخبرها بأنني أعاني من أنيميا حادة، وكتب لي حُقن حديد أعطتني إياها بطيبة ومحبة. كاشفتها يوم وضعت لها السم في النسكافيه ولم تسقط بتآمرها على حياتي، وأخبرتها بأنني أعرف بأمر الخنجر المعقوف، وبرطمان السم المُخبأ أسفل سريرها، فضحكت، وأحضرت الكرتونة بنفسها، ثم حكت لي بأن هذه الكرتونة هي كل ما ورثته عن أبيها عثمان النوبي، وقالت إن الخنجر كان ملك جد والدها الذي كان صيادا للحيوانات البرية في النوبة، لذا فإنه محفور عليه حرفي "إيه"، "نون" إشارة إلى اسمه "علي نوري". لقد أعطتها أمها الخنجر وأخبرتها أن أباها لم يملك طوال عمره شيئا سواه، وقد أوصى به لها. أما البرطمان فداخله تراب من أرض دابود، بلدتهم التي غرقت بعد بناء السد العالي، وكانت عزيزة جدا على والدها، فاحتفظ بكومة من ترابها، محبة لأرض مُحيت من الوجود.

بأصابع مرتعشة أمسكت القلم وكتبت عن الآفاق الجديدة، التي انفتحت أمامي بعد توظيفي بشكل رسمي وبتكليف مباشر من رئيس رئيسي. خُصصت لي سيارة بسائق، وعين لخدمة مكتبي ساعٍ، وسكرتير، وكاتب خاص، وحصلت على دروس خصوصية مكثفة في اللغة الفرنسية باعتبارها لغة الباشاوات، قبل أن يتم تكليفي ببعض المهام الخاصة. كُنت أحدد لكاتبي "حامد أفندي" الذي كان يعمل مدرسا للغة العربية موضوعا أو فكرة ما ثُم أطلب إليه أن يكتب مقالا أو قصة حول ذلك، لتنشر باسمي في كبريات الصحف والمجلات. كان الرجل يحصل على جنيهين مقابل كل مقال أو قصة، وكان يبدو سعيدا للغاية بذلك.

حددت المهمة الأولى الموكولة إليّ باختراق جمعية إخوان الحرية التي أنشأها الإنجليز من طرف خفي لتمييع قضية استقلال مصر وتخريج ثلة من المثقفين الداعين لاندماج مصر وبريطانيا معا، وعهدوا بها إلى شيخ مُعمم في الخمسين من عمره، جلبوه من بين خريجي الأزهر اسمه "يوسف الزواوي". حضرت إحدى ندوات الجمعية، ثُم تعرفت على الشيخ، وكان صيدا سهلا، إذ اكتشفت سريعا أنه رجل مدع، وأنه يستغل عمامته في التكسب وجني الأموال. لم يستغرق الأمر مني بضع قبلات خاطفة وبعض نظرات الإغواء وكلمات الإطراء حتى كان بين يدي كتابا مفتوحا. أحصيت بوضوح ممتلكات الرجل وعرفت أنه يدعو للتقارب بين الإنجليز والمصريين تمييعا للاستقلال، وكان يتقاضى مقابل ذلك راتبا شهريا، فضلا عن مكافآت خاصة

من قبل بعض رجال الإنجليز في الحكومة. عرض الرجل المتزوج من امرأتين، إحداهما فلاحة تمتد بصلة قرابة له، والثانية أرملة لأحد الأعيان بالشرقية، عليّ الزواج بشكلٍ سري، مقابل شقة بحدائق القبة، لكنني رفضت. كنت أداعبه وألاعبه وأشعل نيران الرغبة لديه ثم أفلت منه في اللحظات الأخيرة متعللة بأي طارئ حتى كاد أن يجن. وبعد أن اكتمل ملفه لدي، وضعته بين يدي "حسن باشا رفعت"، الذي قدمه لأحد المحررين في جريدة البلاغ المصري ليفضحه بالنشر، ويكتب معلومات دقيقة عن كل شيء في حياته: ممتلكاته، وعلاقاته، وتحركاته، وكانت النتيجة النهائية لهذا النشر هو توقف أنشطة الجمعية المشبوهة تماما، واختفاء "يوسف الزواوي" من القطر المصري كله، وكأنه فص ملح وذاب.

وجهني الباشا أيضا للقاء الشيخ "حسن البنا"، كأنني مُرسلة إليه من السفارة البريطانية بالقاهرة، وكان غرضه أن يعرف إذا ما كانت جماعة الإخوان على علاقة تواصل مباشر بالإنجليز أم لا، وإلى أي مدى تمتد هذه العلاقة. أتذكر أنني ذهبت إلى مقر الجماعة في الدرب الأحمر، وقدمت نفسي باعتباري صحفية ترغب في لقاء المرشد العام لسؤاله في أمور في السياسة العامة. وطلب مني سكرتير المرشد الانتظار في غرفة استقبال، ولم يطل ذلك بضع دقائق، حتى شاهدت المرشد بشحمه ولحمه وعينيه الصاحيتين يدلف إلى الحجرة مع السكرتير ومعه شخص ثالث، فهمت أنه مسئول عن الصحافة بالجماعة. كان الشيخ مُهندما، وتفوح منه رائحة

المسك، فوضعت شالي فوق كفي ومددتها لأصافحه، متوقعة أن يعتذر عن المصافحة لكنه لم يفعل، ولامس بيده الناعمة أصابعي سريعا وعلى وجهه ابتسامة صفراء تُخفي من الضيق والتبرم قدرا كبيرا قرأه إحساسي الأنثوي. دعاني الرجل للجلوس، فأخبرته باسمي، فقال بصوت حاول أن يكون رقيقا: "تشرفنا"، فذكرت له بأنني مكلفة من السفارة البريطانية بكتابة تقارير عن أنشطة الجماعة في مصر، وأنني أرغب في الحديث معه للوقوف حول عدد من القضايا الأساسية. لاحت من عينيه نظرة اشمئزاز واضحة، وألقى بنظرة تساؤل لرفيقه المسئول عن الصحافة، ثم قال لي: *"أهلا وسهلا بك. جئت للسلام عليك فقط، والأخ محمد سيجيب على اي أسئلة ترغبين في التعرف علي إجابات لها"*. وقام راسما الابتسامة الصفراء ذاتها، ثم غادر. وكما توقعت لم تزد إجابات الرجل عما نشرته الجماعة من بيانات في الصحف، مع إشارات عديدة تحذر من الخطر المتزايد للحركة الصهيونية وتغلغلها في مصر عبر الجالية اليهودية. لاحظت أن الرجل المسئول عن الصحافة ليس لديه أي مشكلة في التعامل معي باعتباري شرا لا يمكن تجنبه.

بُخطى واثقة استطعت أن أمد علاقات واسعة بمختلف رجال الأحزاب والحركات السياسية القائمة، وتمكنت من تجنيد عملاء سريين داخل جماعة الإخوان، وحزب مصر الفتاة، وجمعية إخوان الحرية، والحزب الوطني، وحزب الوفد ذاته. كُنت أكتب لـ"حسن باشا" تقريرا أسبوعيا عن أنشطة كل حزب أو كيان سياسي

وتحركات قياداته واجتماعاتهم وأخبارهم وما يدور بينهم من نقاشات وما يتفقون عليه أو يختلفون بشأنه، وفي بعض الأحيان كُنت أرسل تقارير استثنائية حال معرفتي بمعلومات خطيرة عاجلة تخص الشأن السياسي.

ارتقى اسمي سريعا داخل الغرف السرية باعتباري مصدرا موثوقا به للمعلومات، وسمعت اسمي مرارا يتردد على ألسنة بعض المباحثيين مقرونا بكلمة "هانم"، في الوقت الذي تجنبني فيه "يوسف بك" تماما، ما دفعني أن أخمن أنه تلقى أمرا بذلك. نُشرت باسمي عدة كُتب وقصص في التاريخ الإسلامي، وتبارى نقاد كثر أعرفهم

ولا أعرفهم في الإشادة بما أكتب. وكثيرا ما كنت ألتقي أفندية وباشاوات يعرفونني ولا أعرفهم ويستوقفونني لإبداء إعجابهم بما أكتبه، ولم يكن عجيبا أن أقابل شاعرا سعوديا اسمه "إبراهيم الفلالي"، الذي أخبرني باهتمامه الكبير بقصة سكينة بنت الحسين التي نشرتها مؤخرا، ثم طلب أن يطبع منها بضعة آلاف لتوزيعها في بلاده لتشجيع النساء على القراءة والتعلم. لم يكن أجمل ما في حكاية سكينة بنت الحسين بالنسبة لي محبتها للأدب والشعر والثقافة، وإنما خبراتها الاستثنائية بالرجال حيث تزوجت هذه الجميلة الساحرة ستة رجال عظام في الحسب والنسب والنفوذ.

كرر لي الباشا الكبير درس الأمنيين الأهم ورسخه في ذاتي بعمق مكررا بأن القانون والأخلاق والقيم تتعطل تماما عندما يتعلق الأمر بمصلحة البلاد العُليا. في يوم

ما ذهبت إليه في مكتبه السري في إحدى الفيلات الهادئة بالجيزة، ووجدت أمامه رجلا مُعمما، يبدو أنه عالم دين، وأراد أن يُذكرني بدرسه فسأله بخبث: *'قل لي يا مولانا.. ما حكم شرب الخمر في الدين؟'*. أجاب الرجل بتلقائية شديدة: *"لا خلاف على حرمته"*، فاعتدل الباشا في جلسته وخلع طربوشه، ليمسح جبهته بمنديله، ثم سأله: *"وماذا يا مولانا لو كان هناك إنسان ما تائها في الصحراء ومشرفا على الموت، لا طعام لديه ولا شراب، ووجد أمامه زجاجة براندي ممتلئة.. هل يشربها أم يموت ظمأ؟"*. رد الشيخ سريعا: *"يشربها طبعا"*. فأكمل قائلا: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فهمت مغزاه، لكنه واصل حديثه مع الشيخ سائلا: *"وما هو حكم الزنى في الإسلام يا مولانا؟"*، لكن الشيخ سكت، ورماني بنظرة ارتياب، وقال: *"هي دي عاوزه كلام. حرام طبعا. في كل الأديان، مش في الإسلام بس"*. وقال الباشا باسما: *"طيب.. وإيه رأيك بقى.. لو كان الإنسان مضطرا للزنى ليُنقذ حياة ناس تانية؟"*. فأجاب الشيخ منفعلا: *'ودي إزاي يا باشا يعني؟'*. قاطعه الباشا قائلا: *"افرض يا أخي افرض"*. لكن الشيخ أصر أن الزنى لا يُمكن أن ينقذ حياة الناس. فسأله الباشا: *"طيب لو في جاسوس ضد البلد، عنده أسرار خطيرة أوي تهم البلد وأمنه، ونفسه في واحدة معينة، ومقابل ده ممكن يبوح بكل الأسرار"*. لكن الشيخ أبدى كثيرا من التبرم، ولم يترك الباشا يُكمل سؤاله وقال له: *"ما عدتش عليّ دي ياباشا.. استأذن معاليك عشان ألحق العصر جماعة"*. ابتسم الباشا

له وقال: *"طيب ادعي لنا يا شيخ"*.

شعرت برضا "حسن باشا" عما أكتب، وانعكس ذلك في ثنائه الدائم والمتكرر، وسؤاله كل فترة إن كُنت أرغب في شيء، واستجابته لكثير من طلباتي، التي كان بعضها متجاوزا لما تم الاتفاق عليه مثل طلبي السفر لبيروت للتنزه، أو رغبتي في شراء فراء ظهر مؤخرا في باريس، أو تحقيق حلمي بوضع اسمي كمؤلفة على فيلم سينمائي جديد.

وكان آخر ما أتوقعه أن يُرتب "حسن باشا" لي لقاء برجل سياسي كبير ما زلت أتصور أنه أعظم سياسي واقعي في تاريخ مصر، وغيّر هذا اللقاء كثيرا من أفكاري عن كل شيء في الحياة.

قصاصة

"وفي يوم 14 يناير 1952 أصدر مجلس الوزراء قرارا بإلغاء جمعية إخوان الحرية التي أنشأها الإنجليز في مصر لتنفيذ مخططاتهم الخاصة، بعد أن قدم عبد الفتاح حسن وزير الشئون الاجتماعية تقريرا يتهم فيه هذه الجمعية بحرق كنيسة السويس يوم 4 يناير 1952.

وكانت للجمعية نشرة دورية، توزع بالمجان على الأعضاء والأصدقاء. تحتوي على مواد تحبذ استمرار وتوثيق العلاقات بين مصر وإنجلترا، وكان رئيسها إنجليزي هو المستر فاي، كما كان لها رئيس مسلم هو الشيخ الزواوي، ونظمت جريدة الجمهور المصري حملة لضربها قادها المحرر بالجريدة فتحي الرملي الذي استطاع أن يدخل ثلاثة شبان إلى مقر الجمعية واستولوا على

ماكينات الطباعة والأحبار السرية المستخدمة وأضرموا فيها النيران. وعلى أثر هذه العملية فر الشيخ الزواوي من مصر نهائيا لترتب له بريطانيا دورا في مكان آخر، حيث أصبح الآن مفتيا في إحدى البلاد الآسيوية".

من كتاب "حريق القاهرة.. قرار اتهام جديد" جمال الشرقاوي 1976

***

(12)

السبت 9 يونيو 2001

أخبرتني "حُسن" أن أمها تريد تزويجها لابن أختها، "حجاج"، الذي قدم القاهرة قبل أيام للعمل في شركة النقل العام سائقا، فأزاحته الواسطة لصالح شاب آخر، فعمل سائقا للميكروباص في موقف أحمد حلمي، وزار خالته مؤخرا فعرضت عليه الزواج فرحب. قالت لي الفتاة إن الولد يشبه كوز الذرة المشوي، نحيل ومنكسر وصامت، ويصغرها بخمس سنوات، ولا يدخن ولا يشرب، لكنه اشترط على أمها أن تتحجب زوجته، وتترك عملها. ندت مني نظرة استفهام مُحملة بالقلق ناحية رفيقة الأيام الصعبة، وسألتها عن رأيها هي، فردت بكلمة من مقطعين تخص خالتها، توقعتها منها لمعرفتي ببداءتها التي سبق وغرستها فيها. التحقت "حسن" بخدمتي بعد شهور قليلة من اغتيال الرئيس السادات، كانت طفلة مراهقة تستغرب قسوة العالم، وتستهجن نظرة الناس الفوقية إليها. شعرت بألفة سريعة تجاهها، وتذكرت ابنتي "نادية" التي تكبرها بخمس

سنوات، وفارقتني كحلم جميل، فبدأت أغرس فيها ما كنت أتمنى غرسه في ابنتي من دعائم لشخصية قوية. وهكذا ربيت "حُسن" على الصلابة والجدية وازدراء كل مُزدرٍ. أفهمتها أن مظهرها شأن خاص بها وحدها، وأنه لا يجب أن تخضع لرأي آخر: عم، خال، قريب، أو زوج بشأن ملابسها أو هيئتها. علمتها أن المرأة أقوى من الرجل، لأنها تمتلك أدوات خاصة لا يُمكن أن يحوزها الرجل، وأنها يجب أن تتحكم في عواطفها ورغباتها وتُضبطهما بما يُحررها من أي التزامات مقابلة. أقنعتها أن أي علاقة بين رجل وامرأة هي علاقة تعاقد، وأنه لا معنى لعطاء دون مقابل، لذا فليس من حق طرف الفوز بعطايا أكبر، أو إرغام الآخر على الخضوع له.

كانت "حُسن" في مطلع العشرينيات عندما اعترفت لي ذات يوم بمعاشرتها لأحد الجيران، الذي تغيب زوجته كثيرا عن البيت في عملها الممتد من الصباح للغروب. أخذتها مساءً لطبيبة نساء أعرفها منذ زمن العمل الوطني، وطلبت منها أن تكشف عليها، ففعلت، وأخبرتني أنها من فلتات الزمن حيث تتمتع بغشاء مطاطي نادر، وهو ما يعني أنها ستظل عذراء إلى الأبد، حتى لو تزوجت. أفرحني الكشف، لكنه صدم فتاتي التي تصورت أن ذلك يعني أنها ممنوعة من الإنجاب. في اليوم التالي بعثت إلى خائن زوجته المُتخفي تذكرة الكشف عند الطبيبة ليدفعها لي، ففعل دون أي اعتراض. فيما بعد وكما أتصور أقامت "حُسن" علاقات متعددة ومتنوعة مع شباب مغترب وأزواج خائنين هُنا

وهناك، دون أن تخبرني بأي تفاصيل، وهو ما أولد لديها عدة مصطلحات بذيئة في أحاديثها عن الآخرين خاصة من الرجال. كُنت بُحكم خبراتي النادرة أشتم رائحة الاتصالات الجنسية التي تلجأ إليها الفتاة كل حين في تكتم، فلا أسألها ترسيخا لفكرة حرية الإنسان فيما يملك.

سألت "حُسن" عن طبق اليوم وفقا للجدول الذي تُعده كل آخر أسبوع، فقالت: *"قلقاس بالساق، وفيليه"*. وأضافت بحماس صاخب: *"بس لازم تاكلي يا سناء هانم. أنت امبارح مدوقتيش الأكل"*. هززت رأسي بالإيجاب وقلت لها: *"آه..عشان كتبت كتير. ساعات الكتابة بترجعني للذكريات للذيذة وأبقى مش عاوزه أسيبها حتى لو للأكل"*. اتسعت على شفتي ابتسامة رائقة فقلت لها: *"هاكتب لحد ما تخلصي"*. غمزتني مبتسمة، وأشعلت سيجارة، وقالت لي: *"تاخدي واحدة؟"*، فهززت رأسي موافقة، أنا المحرومة من رائحة الدخان بأوامر الأطباء، وابتسمت، ثم جلست على طاولة الصالة، وفي يدي السيجارة الماتعة لأعود لتفاصيل رحلتي وأتذكر لقائي بالرجل العظيم.

لم أعرف بالضبط ما يجب عليّ ارتداؤه عندما أخبرني "حسن باشا رفعت" بأن سيارة ستمر عليّ في فيلتي بحدائق القبة الساعة الخامسة مساء لتقلني للقاء "إسماعيل باشا صدقي". صففت شعري، وتعطرت، وبدلت ثلاثة فساتين زاهية، وجربت خمسة ألوان مختلفة من الروج، ثُم أغمضت عيني وأنا أتخيل لقائي بباشا مصر الأكبر،

الرجل الذي استوزر قبل مولدي، وترأس الحكومة قبل فطامي. كُنت أصدق وما زلت بأنه أصلب رجل وأقوى رجل وأدهى رجل كما أخبرني "حسن باشا رفعت". فكرت كيف أتحدث إليه، وهل أتدلل في كلامي معه أم أتصنع الجدية، واذا صافحني هل أُقبّله كما أفعل مع فرانسي التقليديين، أم أترك له يدي يُقبلها كما اعتدت مع الأجانب.

راجعت صورته المحجوزة في رأسي تأثرا بما نشرته الصحف، فهو رجل ضخم، جامد الوجه، لا يبتسم، تفيض المهابة من عينيه، ويبث حديثه طبيعة قاسية. فكرت أن أقدم له نسخة من كتابي عن السعادة، لكنني تراجعت ظنا أنه يُدرك أنني لم أكتب حرفا فيه. تخيلت ما يُمكن أن أطلبه منه، فالمعروف أنه رجل قادر على تحقيق الرغبات، وأنه يفي بما يعد. سألت ذاتي: هل معرفته تجعلني أتجاوز "حسن باشا"، مثلما فعلت مع "يوسف بك؟". وهل سيقبل أن أعمل مباشرة معه؟ وهل سيدر هذا العمل ثروة طائلة؟ رأيت نفسي هانم كبيرة تعيش في سرايا، تعج بالخدم، تأمر فتطاع، وتطلب فيُلبى ما تطلبه، ترتدي أبهى الأزياء، وتتدخل في الشئون العليا، فتقترح، وتُشير، وتُعبر عما يُسعد الناس.

طافت برأسي ظنون، وتولدت خيالات، أفاقني منها صوت كلاكس السيارة الخاصة القادمة بالخارج، فخرجت مهرولة. حياني السائق الأنيق، فاكتفيت بكلمة: "بونسوار"، واجتاحتني رغبة عارمة في إشعال سيجارة

لكنني وجلت، وقتلت الرغبة مبكرا، فمضى الوقت بطيئا رتيبا حتى أن ذاكرتي سرحت بي لسنوات الطفولة القريبة، وكيف كان أبي "سعيد"، الذي لم يسعد يوما يوبخ أمي لأنها لم تحفظ له بعض المرق الذي جاء به العيال من بيت "الشيخ عاشور". لمحت وجه "آن"، هذه الممرضة الأيرلندية البائسة، وهي تنظر لي بغيظ، تذكرت جسد "يوسف بك" الضخم وهو يتكوم فوقي، وأفقت من ذكرياتي على صوت حارس عمارة الباشا يفتح لي باب السيارة، مطأطئا جبهته، وخافضا بصره. استقبلني رجل هادئ، ومُهندم، قادني عبر مدخل البناية المُبهرة، لبضع خطوات ثم سلمني لآخر تجمدت قسمات وجهه على ابتسامة آلية لزوم الوظيفة، لنستقل معا المصعد، ثم عبرنا مدخلا يُفضي إلى بهو استقبال واسع يغُص بالتحف والتماثيل واللوحات الجميلة، وتركني وحيدة. دقيقة واحدة مرت كساعة، ارتعشت فيها أوصالي، وجف رضاب حلقي، قبل أن أسمع صوتا قادما بُخطى شابة فتية، لينطلق الصوت مُرحبا من بعيد: *"أهلا اهلا.. مودموزيل سناء"*، رقصت خلايا كبريائي غبطةً، فمددت يدي مصافحة وهتفت: *"بنسوار دولة الباشا"*، فأشار لي بالجلوس مُكررا: *"بنسوار يا هانم"*.

كان وجهه أطيب كثيرا من صورته، وبدت البساطة جلية على قسماته، لكن الوهن رسم مساحات شاسعة من السمرة أسفل عينيه، بينما تمترست الابتسامة على شفتيه مُتشبثة بقناع تواضع مُبالغ فيه. أخبرني أنه عرف كل شيء عني، تابع ملفي لدى "حسن باشا" من أول صفحة إلى آخر سطر، وتأكد من صحة المعلومات،

وذكر أنه سعيد بما أنجزت، وسيسعد أكثر لو طورت ذاتي وعلاقاتي لأصبح أعظم جاسوسة تخدم مصر. وما زلت رغم مرور كل هذا الزمن أتذكر جيدا كلمات الباشا وكأنها قيلت منذ ساعات قليلة. كان مؤثرا في روحي، حتى أن كل كلمة ما زالت ترن في أذني حتى اليوم. قال الباشا: *"إن مصر دولة عظيمة، وجميع من فيها يلعبون لمصالحهم الشخصية رغم ما يرفعون من شعارات. ونحن مقبلون على تغيرات وتحولات كبيرة كما عودتنا السياسة، وأن واجبنا أن نفيد البلد بكل ما نستطيع فعله"*.

وقال أيضا: *"انسي كلام الناس.. لا تلتفتي إليه. فقد عملت في السياسة وأنا أنظر إلى كلام الناس باستهانة. إن الديمقراطية لا تصلح على هذه الأرض، والناس تريد من يقودها إلى حيث الصلاح جبرا لأنهم لا يمكن أن يختاروا الصلاح، وهم بالقطع لا يعرفون أين هو"*. واتسعت ابتسامته أكثر وتابع قائلا: *"كل الناس تحمل رذائل وتدعي الفضيلة، وهذا هو أسوأ ما في بلادنا أننا نعتبر أنفسنا أطهارا وننظر بمثالية أخلاقية لكل شيء. والإنسان في حقيقة الأمر مجبور على الخطيئة"*.

قال الباشا ناصحا: *"لا تقبلي وصاية الأوصياء من مُدعي الفضيلة. أنت تخدمين بلادك، ومن يخدم بلاده يضحي بكل ما يملك حتى سُمعته. أنا موصوم دائما بالاستبداد والقسوة حتى أن الصحف الوفدية تسميني "عدو الشعب"، وفي الحقيقة فإن أحدا لم يخدم بلاده بواقعية مثلما فعلت، ولهذا لا يهمني شيء.. لقد قبلت ترأس*

الحكومة في هذه السن وبعد الحرب لأنني أدرك أن هناك طريقا ممكنا للاستقلال، وأن مصر ستحوذه. كل ما هنالك أنه ينبغي أن نتحرر من الشعبوية الزائفة ومن نفاق الجماهير".

كان يتحدث بحماس شاب في العشرين، وكانت عيناه تضيئان ببريق أمل متجدد ويقين مَن يرى النصر أمامه، ولاح في وجهه حنان أبوي غريب استشعرته وهو يدعوني إلى ضرورة أن يكون لي إصدار خاص بي أمتلك امتيازه. قلت له إنني أكتب في "الرسالة" وفي "روزاليوسف" و"الهلال"، لكنه أشار إلى أن العمل الجاد يتطلب إصدارا خاصا مثلما فعل "مصطفى أمين" عندما أسس أخبار اليوم. بدا "إسماعيل باشا صدقي" مرتاحا لما أحدثه "مصطفى أمين" في الصحافة من تطوير وتأثير وما انطوى على ذلك من كسر لشعبية الوفد في الشارع، فقلت للرجل: "لكن ولاء "مصطفى امين" الأول ليس لك يا باشا". هز رأسه موافقا وقال: "نعم.. أعرف. ولاؤه الأول لمصطفى أمين، وربما شقيقه معه. لكن ما المشكلة في ذلك؟ يُمكن أن تتلاقى المصالح. سأقول لك سرا مُهما لتفهمي موقفي. أنا لا اطيق أبدا مَن يرفع شعارا دينيا، ومن يلعب بالدين في حلبة السياسة، وأعتبر هؤلاء نصابين، لكنني في سبيل معركتي الشرسة مع الوفد ولإيماني بقدرتي على تحقيق الاستقلال تفاوضا إن ظللت في الوزارة، زرت الشيخ حسن البنا نفسه في دار جماعته، واستقبلوني بآية من القرآن تقول ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾. وهنا تقدري تقولي

إن المصلحة حكمت. ولازم أكون مع المصلحة متى حكمت". وضحك الرجل، وحكى لي نكتة تقول بأن سياسيا عظيما سافر لقضاء فريضة الحج، وعندما عرف أن أحد المناسك يقتضي رمي حجر ما يرمز لإبليس بعشر حصوات، فقام هذا السياسي برميه بتسع حصوات فقط، واحتفظ بالعاشرة في يده وقال: لا يجب أن نقطع كل خيوطنا مع الشيطان، فقد نحتاج إليه يوما ما. ضحكت بميوعة، لكنه نهرني بنظرة جد، وإشارة من كفه، ثم أخبرني هامسا بأنه يعتبرني أحد أفراد تنظيمه الكبير الذي يعمل لمصلحة مصر، وفق ما يراه، وأنه في سبيل ذلك سيقدم لي كل ما أحتاج إليه من دعم، وأول هذا الدعم سيكون ترخيصا بمجلة أسبوعية، ثم أسر لي بأنه أمر بزيادة راتبي الشهري إلى مئة وعشرين جنيها. سألته إن كان عليّ أن أذكر ما دار بيننا لـ"حسن باشا" أم لا، فقال لي بنبرة حكيم: *"الدرس المهم الذي يجب أن تتعلميه هو ألا تخسري رجل أمن مهما كان. رجل الأمن يبقى رجل أمن حتى لو خرج من الخدمة. وحسن باشا رجل كفء، وشهم ووفي، وليس من الحكمة إثارة قلقه. طمئنيه تماما وأخبريه بكل شيء. وأفهميه أنك تلميذة له وتلميذة دائمة ووفية. مفهوم؟".* قلت برضا حقيقي: *"وهو كذلك يا باشا".*

وقف الباشا إيذانا بانتهاء المقابلة، ووقفت بدوري، فقال ناصحا: *"أنت معي سواء كنت في الوزارة أم خارجها، وسأعمل دائما بصدق ووفاء لمصلحة مصر. هل تعاهديني على الوفاء لهذه المصلحة ما حيينا؟"*، مد يده مصافحا، فقلت بابتسامة فرح: *"نعم يا باشا.*

اعاهدك". وغادرت وكلي إيمان بأنني مجاهدة عظيمة.

***

(13)

الأربعاء 13 يونيو 2001

بعد ثمان وأربعين ساعة من لقائي إسماعيل باشا صدقي جاءت الضربة المباغتة عندما استدعاني "حسن باشا رفعت" إلى مكتبه، كان صامتا وعابسا وأمامه مجلة "كل شيء". دعاني للجلوس، ثُم أعطاني المجلة لأجد صورة كبيرة لي التقطها أحد ما من ظهري وأنا أقف أمام منزل "إسماعيل باشا صدقي"، وإلى جانبها عنوان عريض يقول: "ابنة الديكتاتور تعود إلى القاهرة بعد إتمام تعليمها في جامعات أوروبا". وقرأت الخبر الذي ادعى أن كريمة "إسماعيل باشا صدقي" عادت إلى مصر بعد رحلة تعليم في جامعات أوروبا، وأنها شوهدت في زيارة لوالدها الذي يعتقد البعض أنه مريض مرضا عضالا. قلت لنفسي: "ليتني ابنته فعلا. هذا العظيم العظيم. أنا معه ووراءه وتحت أمره مهما وصمه الغوغاء. لو كان ديكتاتورا. لو كان قاتلا، لو كان حادا وعنيفا ومتكبرا، ولو كان عدوًا للشعب نفسه. إن رجلا يمتلك مواهبه وإمكاناته العقلية من حقه أن يقول ولا يراجعه العامة الذين لا يعرفون شيئا ولا يفهمون في السياسة أو غيرها".

بدا رئيسي مُكفهرا وهو يقول لي في جدية شديدة: *"الظاهر إنك كنت ملفتة أوي وأنت داخلة بيت الباشا"*، ثم أضاف قائلا: *"مصطفى أمين وصلته الصورة*

دي من واحد من جواسيسه اللي زارعهم قدام بيت الباشا، وشكله كان حابب يلاعبنا ويقول لنا إنه عارف أفراد التنظيم". هزيت رأسي باستغراب وقلت: 'بس ليه ما نشرش دا في جورناله أخبار اليوم؟". فرد الباشا قائلا: "عشان أخبار اليوم واضحة ف دفاعها عن إسماعيل صدقي. مينفعش يقول عليه ديكتاتور، فيمرر الخبر لحد تاني مثلا". سألت في براءة: "ليه؟".

قطب الباشا جبينه، وأخرج منديله ماسحا جبهته دون عرق، ثم قام واقفا وتمشى قليلا، وقال، وهو يتطلع إلى شعاع الشمس المتدفق عبر الشرفة المُنفتحة: "هو إما بيقول لنا ما تلعبوش مع الباشا من غيري، يا إما بيقول للباشا البنت دي ساذجة وهتثير حولك الكلام".

قلت بعد تفكر: "برضه ليه؟ مش فاهمة. أنا معملتش حاجة لمصطفى أمين ده".

- "مش مهم تكوني عملتي".

أضاف الرجل: "يا حضرة الأديبة الخبيرة بالرجال، دايما في ناس مهمتها في الحياة هي السيطرة على أصحاب القرار خصوصا لو كان لهم مشروعات وأفكار عظيمة زي إسماعيل باشا".

مصمصت شفتي مُتلجلجة، فقال: "لا حظي يا سناء إن الرجل بتاعنا هو الرجل الوحيد اللي لو اتعملت جمهورية في مصر ينفع يمسك رئيس لها". فكرت قليلا وتخيلته رئيسا لجمهورية مصر والسودان، ولم أنبس بكلمة، فأردف الرجل بعد لحظة تفكير: "خدي بالك كويس. زي ما قلت لك من قبل كده. إحنا مش لوحدنا. كل

خطوة لازم تكون بحذر. وممكن حزب الوفد يرجع تاني للحكم، ويصفي حسابات كتيرة".

في مساء اليوم نفسه، كُنت على موعد ثان مع ضربة أخرى من نوع جديد. "حامد أفندي" الذي كان يكتب لي المقالات والقصص، جلس إلى جواري يدوّن قصة ما، ثم غُصت فجأة في نوم عميق، لأستيقظ في الفراش عارية تماما، وهو إلى جواري يُشخر شخيرا كريها. تمالكت قواي وشعرت بثقل رأسي، وتذكرت أنني نمت فجأة بعد كأس نبيذ صبه الكاتب الأجير لي. تخيلت كفه وهي تُنقط سائلا منوما في شرابي، ثم نهمه وهو يعريني دون أي اعتبار لفارق سن، أو كونه موظفا عندي، ثم رغبته وهي تنسكب داخلي وجعا ومذلة. "كلب" صحت فيه، فانتبه من غفوته، ثُم قام متكاسلا يُجرجر ترهلا جسديا كونته عجلات الزمن. صفعته بقوة بكفي الصغير لأترك آثارا لأصابعي على خده، لكنه دفعني بغضب قائلا: *"أنا مالي يا ست؟ أنا عبد المأمور".* نعته بكل نعت مُشين، حتى لملم ملابسه وغادر، وهو يستر وجهه عن مرمى بصقات غضبي. لعنت يومي، وكرهت روحي، وشعرت بضآلتي لأتذكر الفتاة البائسة الجائعة التي تنتظر مرق الجمعة.

لم تمر دقائق على ما حدث، حتى زارني "يوسف بك" بعد غياب طويل مُفسرا لي كل ما حدث. منحني ابتسامة تشف قاتلة، ثم قال لي ببرود مُرعب: *"كده خالصين يا حلوة"*، قرأت عتاب عينيه فور جلوسه، لذا لم أستغرب أن يقول لي بعد أن استجمعت شتات

روحي: "ما ينفعش تلعبي من ورايا. اسمعي كويس.. أنا اللي عملتك. وأنا اللي وصلتك لحسن باشا، لكن مش معنى كده إن دوري انتهى".

جلس الضابط الكبير بهدوء، منتصرا دون كلل، وضع ساقا فوق أخرى، ثم أخرج من جيبه صورة صغيرة وأنا فيها ممددة على ظهري دون ثياب، وإلى جواري "حامد أفندي" يضحك، وقال بثقة: " العلم اتقدم جدا. تصوري الصور بقت تطلع ف ساعتين زمن. خديها للذكرى" ومد يده. غمرتني زخات المهانة، فبكيت، لكنه رفع حاجبه مستغربا وقال في جدية: 'ياه.. اتعلمت البكا كمان. إحنا اتقدمنا كتير أوي". ثم علا صوته مُزمجرا بغضب شديد: "كل حاجة عندي أنا بس. أي حركة. سكنة. يمين، شمال، تمامها معايا. مفهوم ولا لأ".

هززت رأسي بالإيجاب، وأنا أبكي ذلي لا شرفي، ثم قصصت عليه كل ما أراد معرفته بشأن شغلي مع رئيسه، والمهام التي عملت عليها، وما تضمنته تقاريري، ثم لقائي بـ"إسماعيل باشا"، وما طلبه مني، حتى حكاية الصورة التي نشرتها المجلة مدعية أنني ابنة رئيس الحكومة. شعرت برضاه، وانفرجت أساريره، لترتسم ابتسامة رضا على شفتيه، وانقلب حانيا كما لو كان طبيبا، فربت على ظهري، وقربني إلى صدره، قبل أن يُلقي نظرة ذات مغزى على ساقي المنفلتة من الروب الحريري، وأشعل سيجارا بقليل من العصبية ثم أشار بسبابته إلى الروب الذي أرتديه لكي أخلعه، وقال

آمرا: "بقولك إيه يا سناء. مزاجي متعكر. عاوزك تروقيه شوية". وأطعته صامتة.

***

(14)

الخميس 14 يونيو 2001

أنهكني مشوار اليوم للبنك لأسحب ثلاثة عشر ألف جنيه، عرفت أنها يُمكن أن تُنقذ حياة "أم حُسن"، التي أصر الأطباء على ضرورة خضوعها لعملية قلب مفتوح. لم تُخبرني الرفيقة المُخلصة بمحنتها، ربما نتاج أنفة لمستها فيها وفي كل نوبي عرفته على مدى عمري. سمعتها تتحدث مع تمورجي الطبيب القاطن في الشقة المقابلة بأسى، وهو أستاذ قلب كبير، فسألته فيما بعد عما حدث، فحكى لي أن "أم حُسن" سقطت منذ أيام أمام باب العمارة، واضطر أهل الخير إلى نقلها إلى عيادة الطبيب، الذي أنبأهم أنها تعاني من قصور تام في شرايين القلب، ثُم طلب منها أشعة مقطعية، وخلص إلى خطورة وضع السيدة، وضرورة إجراء عملية قلب مفتوح لها في أقرب وقت. وكانت هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أسمع فيها "حُسن" تُناجي ربها ليلا، وكأن بينها وبينه عمارا، فترجوه أن يفعل كل شيء لِيُنقذ أمها المسكينة التي لم تؤذ إنسانا، وصبرت على الوحشة، والفقر، وغربة السنين، ولم تتورط في الخطيئة. شعرت بتعاطف شديد مع سيدة المحنة، وأحسست أن الله استجاب لفتاتي، فرغم وقاحتها في بعض الأحيان، لكنها تحوذ قلبا طيبا، ولا تخون مَن

يُحسن إليها. واندفع قلبي يُحدثني بأنني أمام فرصة نادرة لعمل خير حقيقي، يُرضي الله ويفتح لي بابا من أبواب رحمته. هاتفت الطبيب المسئول، واطمأننت منه على الحالة ونسبة نجاح العملية، واتفقت معه على الترتيبات والمصروفات اللازمة كافة، ثم طلبت من حُسن أن تصطحبني صباحا إلى البنك. ضايقها المشوار، لكنها صاحبتني على مضض، ففاجأتها بإعطائها ظرفا مغلقا، وقلت لها أن تقدمه إلى جارنا الدكتور "سعيد توفيق" أستاذ جراحة القلب، فاندهشت ثم أبان لها ذكاءها ما أريده، فاحتضنتني باكية. قلت لها بأنها مثل ابنتي تماما، وكل ما يُسعدها يُسعدني. تركتني لتفرح أمها، فجلست على كرسيّ المُطل على الميدان العتيق أشاهد حركة الناس وهم يروحون ويجيئون غير عابئين بما يُخبئه القدر من صروف، وما تؤول إليه أحوالهم بعد حين. تذكرت بتأمل كم محنة جابهت، وكم كربة واجهت. أمسكت القلم لأذرف دمع التذكر بحسرة بريء اتهم ظلما، وأدين بالإعدام وينتظر تنفيذ الحكم.

أعود لمذكراتي لأقرر الآن أنني لا أعرف يقينا كيف قُمت من واقعة الاغتصاب قوية كما لو كُنت أنا الغاصب، لا المغتصبة، ثُم انخرطت في العمل دون كلل، إرضاء لتوجيهات "إسماعيل باشا" تارة، وتنفيذا لأوامر "حسن باشا" تارة أخرى، والتزاما بتكليفات "يوسف بك" مرات ومرات. طردت "حامد أفندي" في نوبة غضب مفتعل، وصمته فيها بالكاتب التافه الذي لا يقرأ ولا يجدد أدواته ولا يزيد على تقليد ركيك لما كان يكتبه "جورجي زيدان". حاول المسكين أن

يُجادلني فسببت أمه، ولعنت أهله، ثم صفعته أمام الساعي، وطردته شر طردة، وأخبرت "يوسف بك" بأنني استغنيت عن خدماته تماما، وأنه لم يعد صالحا للعمل معي مرة أخرى.

امتص "يوسف بك" الموقف بهدوء شديد، ووافقني فيما فعلت، ثم طلب مني الإعداد لإصدار مجلة أسبوعية شاملة لتكون غطاء لأنشطة موسعة في التجسس والمراقبة وإقامة علاقات واسعة بمختلف الفئات. قال لي إن الباشا الكبير خصص ألف جنيه بشكل مبدئي لإصدار المجلة، ودعاني لاستكتاب كبار المبدعين والأدباء ورجال السياسة، وجلسنا معا لأدون له أسماء "إبراهيم ناجي"، "حبيب جاماتي"، "عبد القادر المازني"، و"عبد الرحمن صدقي" لنبدأ بهم، ثم عرفني الضابط الكبير بفتاة فلسطينية اسمها "مليحة"، تميزت بالجمال الساحر، واللباقة الشديدة في إلقاء الشعر. كانت سمرتها الصافية وقوامها الفارع وعيناها الساهيتان محل افتتان كل مَن قابلنا من رجال، ثم جاءت اللحظة الفارقة عندما كلفني "يوسف بك" باصطحابها إلى نادي السيارات في سهرة خاصة ستحظى بتشريف مولانا، مُقررا أمامي بأنه يسعى لأن تعجب واحدة من كلينا جناب المليك، فيصبح للإدارة السرية جسر مباشر للاتصال بجلالته. وحلمت كفتاة طامحة لم تبلغ العشرين بعد في أن أتوج يوما بتاج الملكة، أو حتى أن أصبح عشيقة من عشيقات جلالته. استعددنا بما يجب، لكننا فجأة تلقينا تعليمات قبل الحفل بساعات قليلة بعدم الذهاب، وفيما بعد حكي لي "حسن باشا رفعت" بأن

رجال الحرس الحديدي حذروا الضابط الطامح من أن يفكر في إغواء الرجل، وأخبروه صراحة أنهم اضطروا إلى تصفية فتاتين تشككوا أن تكونا مزروعتين للتجسس عليه.

واصلت عملي لإصدار المجلة واستعنت بصحفي ثلاثيني مخضرم اسمه "محمد غريب"، كان غريبا بالفعل، لكنه كان يتصور نفسه الأستاذ "محمد التابعي"، وكان يجلس أمامي واضعا ساقا فوق أخرى، متأنقا ببذلة أوروبية، وكرافتة حريرية، مُدخنا سيجارا، ومتعطرا كشجرة فل. وكُنت أجاريه وأسمح له ببعض كلمات التيه التي يقولها عن نفسه، وعن كونه أفضل من "مصطفى أمين"، و"أحمد الصاوي محمد". كُنت أبتسم في وجهه مبدية الرضا لأنه يكتب باسمي كلمات أرق وأفضل مما كان يكتبها "حامد أفندي". وهكذا أغدقت عليه المال، ومنحته نفوذا وتقديرا كبيرين، حتى سولت له نفخته يوما أن يدعي الغرام بي ويصارحني بحبه الملتاع، وكُنت أتوقع ذلك، فالرجل الأربعيني لا يعترف بعمره ويظن نفسه مبدعا حقيقيا يمكن لفتاة يافعة أن تهيم به عشقا، وهكذا قررت إيقافه عند حده، ونبهته للفارق الاجتماعي الكبير بيننا، وقلت له صراحة إن عائلتي لن تقبل أن أقترن مرة أخرى بأحد لا ينتمي لعائلة كبيرة. تفهم الرجل الموقف، ورضي باقتناع أن يأكل عيشه في هدوء.

صدر العدد الأول من مجلة "أقلام جديدة" فانهالت باقات الورود من رؤساء الأحزاب والهيئات الحكومية

والجمعيات الخيرية، وهاتفني دولة الرئيس من لندن مهنئا، ومستبشرا بعهد جديد في ظل تقدم مفاوضاته للجلاء على الرغم من معارضة بعض الساسة في مصر. مررت على مقر المجلة، فوجدت كما من الرسائل التي برغب أصحابها في نشرها في الأعداد القادمة، واحدة عن الشعر الفرنسي الحديث، وثانية عن شخصية ستالين في الاتحاد السوفيتي، وثالثة عن عظمة القناعة، ورابعة عن الريف المصري وأخلاق الناس، ولفت نظري مقال كتبه شخص باسم الشيخ صالح بكاش، وإلى جواره وصف نفسه بأنه أحد علماء الأزهر. وطلبت من "مرقص أفندي" السكرتير أن يحمل جميع الرسائل للأستاذ "محمد غريب"، ليفرزها وينشر ما يستحق النشر، ثم قدمت له صورة جديدة لي ليضعها مع مقالي الجديد الذي طلبت أن يكون عن العظماء الذين يخدمون بلادهم دون أن يعرفهم أحد، كما قدمت صورة جديدة للفتاة "مليحة" وطلبت أن يكون لها مقال عن مستقبل الشعر. رن جرس التليفون، ورد السكرتير، ثم وضع يده على السماعة وأخبرني أن طبيبا جراحا يقول إنه يرغب في التعاون معنا في تحرير باب للصحة وجديد الطب في العالم، ويطلب تحديد موعد، فأخبرته بأن يمر في الأسبوع القادم، فسأكون موجودة.

ذهبت إلى "يوسف بك" في مكتبه، ففوجئت به يقبلني مهنئا بإصدار المجلة كما لو كنا أصدقاء، ثم عرفت منه أن "حسن باشا" سعيد جدا بالإصدار، ويرى أنه يمكن أن يمثل غطاء جيدا للتواصل مع المباحث الدولية في بلدان عديدة. وفهمت منه أنه يريد أن أخصص في

المجلة بابا للعالم العربي أتواصل من خلاله مع الزعماء والقادة في البلدان الشقيقة. وأخبرني أن ذلك يدفع لتوسيع النشاط، ثُم قال بجدية واضحة: "*الباشا هيطلب منك تشغلي كم بنت تحت إيدك. طبعا لازم تختاريهم بعناية.. وأي مهمة يطلبها منك. مش هفكرك. لازم تبلغيني*". هززت رأسي بالإيجاب، فقال: "*هتروحي له بالليل في فيلا الجيزة. هو مستنيكي، وقال لي لو شفت سناء خليها تعدي*". ابتسمت متفهمة، واستغللت الموقف وقلت له: "*طبعا يا بك. بس عاوزة أقولك حاجة مهمة. أنا محتاجة سلفة عشان العربية الجديدة خلتني على الحديدة*". ضحك بصوت مُجلجل، ورجع بجسده الضخم للخلف، ثم أشعل سيجارة، ونفث دخانها بعصبية، وقال: '*بقولك إيه يا سناء هانم.. مبروك عليك الأرض بتاعة المرج، إوعي تفتكري إني مش عارف. إنتي أغنى مني*". مصمص شفتيه وقال بابتسامة ساخرة: "*هقول إيه بقى.. بلد...*"، ثم أضاف متراجعا: "*مش مهم يا سناء هانم. قولي للباشا. هيدبر لك اللي عاوزاه. بس البنات اللي تجيبهم عاوز ملف تفصيلي عن كل واحدة. إنت القومندان وطبعا "مليحة" هتكون نائب القومندان*". قلت برضا: "*تمام*"، وقمت مستئذنة، لكن شيئا ما دفعني أن أتوقف قليلا قبل أن أغادر، وسألت رئيسي: "*قولي يا يوسف بك.. متعرفش أخبار النيرس آن إيه؟*"، فط الرجل شفتيه مندهشا، ورد سائلا: "*إيه اللي فكرك بيها دلوقتي؟*". قلت له: "*ولا حاجة. بس جت على بالي*". وقف فجأة ثم قال: "*معرفش عنها حاجة*". ثم أضاف ناصحا: "*دايما يا سناء اتعودي.. الصفحة اللي تقلبيها، ما*

ترجعلهاش أبدا. شغلنا علمني كده".

هززت رأسي موافقة، وغادرت.

***

(15)

الجمعة 15 يونيو 2001

اختارتني الوحدة بعد أن سمحت لـ"حُسن" بمصاحبة أمها لبضعة أيام بعد شق صدرها، وتغيير أربعة شرايين متصلة بقلبها، قص الأطباء بدائلها من ورك المريضة. أكره سيرة الأطباء والمستشفيات والعمليات الجراحية ولا أطيق زيارة المرضى رغم كوني واحدة منهم. وهكذا، استغللت الوحدة في استذكار سنوات الصعود والتحقق، بعد رحلة تخبط وربما تذبذب في الولاء بين مستغل ومستغل آخر.

حانت اللحظة الحاسمة عندما أوكلت إليّ مُهمة الإشراف على طاقم الجاسوسات الأول من أهل بلدي، اللاتي زرعتهن في كل مكان. بست فاتنات مُغريات، حققت ما أريد وصرت أقوى من أن يُشغلني "يوسف بك" أو حتى "حسن باشا رفعت" دون رضاي. أن تملك الأسرار في هذا الوطن، فأنت تملك كُل شيء، وأن تراقب مَن يراقبك، فأنت تُحصن وظيفتك من غدر المديرين، لذا فقد اشتريت ولاء الشاعرة "مليحة" لأحولها لعنصر سيطرة مضاد على "يوسف بك" نفسه، إذ استدرجته ذات ليلة مارقة إلى مخدعها، وقت بتسجيل فضفضته معها وكلامه البذيء عن الشغل،

والبلد والمليك نفسه. فصار تحت سيطرتي، مثلما كُنت تحت سيطرته. وفي الصباح وبرسالة واضحة لا تحتمل لبسا، أخبرت مديري المباشر أن ابتكار سلاح ما لا يعني أبدا عدم استخدام هذا السلاح ضد صانعه، وأقنعته بالصيغة الجديدة للتعاون بيننا وهي المصالح المشتركة، وليست الطاعة القائمة على الخوف. لم يكترث "يوسف بك" كثيرا لهذا الطارئ، كما لو كان يتوقع مسلكي، وهز رأسه مُسلما بأن مصالحنا المشتركة أكبر من أن يمارس أي طرف منا حماقة ما قد تعصف بكلينا. أجزلت العطاء لـ"مليحة" كما لو كانت ملكة، وأبهرتها أكثر مما أبهرني السادة في القلم المخصوص، بالمال والمجوهرات والملابس الزاهية، محتفظة في الوقت ذاته بعنوان شقيقها في نابلس، وبصور فوتوغرافية مشينة لها، لتكون رادعا لها لو فكرت يوما في الفكاك من دوائري.

شغلت خادمة هربت من زوجها في المنيا، وأسميتها "تيتي شيري" بعد أن نسيت اسمها الأصلي، وتميزت باللون الخمري الجذاب، والعينين الساهيتين، وامتلكت أطول ضفيرة شعر أنثوي في ربوع مصر، وخصصت لها بابا للموضة والجمال في المجلة، ووضعت عليه اسمها وصورتها كما لو كانت تُحرره. اجتذبت أيضا فتاة تحلم بالتمثيل اسمها "فريال"، وأقنعتها بأن عملها معي سيدفعها دفعا لتقوم بدور البطولة في فيلم سينمائي يكشف مواهبها الدفينة، وحددت لها مهامها في استهداف السفراء والأمراء العرب ليُدرج اسمها كمدعوة دائمة في جميع الحفلات، التي تقام بالقاهرة على مستوى عربي. كما

جندت راقصة صاعدة تُنافس تحية كاريوكا اسمها "لؤلؤة"، يتيه بتمايلها الساحر موظفون أجانب كبار من مختلف الجنسيات. أما الآنسة "وداد" فظهرت كصحفية لامعة تهتم بأخبار المستثمرين وأصحاب المصانع والشركات، ولم تكن على قدر من الجمال، لكنها كانت الوحيدة التي تعلمت الصحافة بالفعل، وأبانت عن شبق صارخ وتحرر مُتطرف يجعل منها خبيرة رجال محترفة، واستعنت في الوقت ذاته بسيدة جميلة أربعينية تُدعى "سُعاد"، عملت لسنوات طويلة في البغاء، قبل أن تتحول إلى مدربة عاهرات، وكانت بمثابة دليل استرشادي لنا حول كيفية التأثير في الرجال وإغوائهم والسيطرة التامة عليهم.

وكما اقتنعت أنا في الماضي بجواز -بل ووجوب- العمل اللا أخلاقي في سبيل خدمة الوطن وأمنه، فقد أقنعت نسائي جميعا بالأمر ذاته، مع إضافة أخرى وجدتها ضرورية وهي أننا نؤدي عملا له مقابل مادي، وأن الوطن لا يبخسنا ما نستحق من مكافآت على ما نقدمه من معلومات سرية. وكُنت واضحة تماما مع كل منهن بأن العواطف لا مجال لها أبدا في عالمنا، وأن الأسئلة تفسد العمل، وأنه ينبغي على كل صاحبة مهمة أن تؤدي مهمتها دون فضول قد يتسبب في قطع عيشها وربما قطع رقبتها.

بجد وسهولة اخترقنا الوسط الفني، والوسط الصحفي، والوسط السياسي، عرفنا الأخبار والأسرار، وتسللنا إلى دواخل الشخصيات العامة، أعددنا التقارير، ورسمنا

طرق الاتصال والسيطرة والكشف لرجال الأمن ليستكملوا عملهم في خدمة الوطن. كُنا نجتمع يومين من كل أسبوع في مكتبي بالمجلة، نساء فقط، وكان "محمد غريب" محرر المجلة الأول يستغرب في البداية الأمر، وربما لاحظ بوضوح جهل المحررات المنضمات للمجلة عدا "وداد" بأصول القراءة والكتابة، لكنه أدرك بعد فترة أن اجتماعاتنا لا علاقة لها بالمجلة وما تحتويه من مقالات وقصص، وبذكاء تميز به فضل الرجل السكوت التام خاصة أنني زدت راتبه إلى خمسين جنيها.

في يوم ما دخل علينا المحرر الأول للمجلة، بينما كانت "سعاد" واقفة أمامنا تُلقي علينا مُحاضرة في الإغراء الأنثوي، مفادها أن الأداء الصوتي للأنثى ضروري خلال ممارسة الجنس لاستثارة كُل خلية من خلايا الرجل، وكانت تُقلد بميوعة ذلك الصوت، ما دفعه أن يقف صامتا للحظات، واحمر وجهه كحبة فراولة طازجة، قبل أن يُسرع الخُطى مستئذنا، وهو يقول: *"نسيت السجاير ف العربية"*.

خدمنا الوطن كما ينبغي. أوقعنا شبكة تجسس تعمل لصالح الحركة الصهيونية من خلال علاقة خاطفة لـ"تيتي شيري" مع بحار يهودي بالإسكندرية كان محل تشكك من سلطات الأمن. وكشفنا تنظيما شيوعيا يُديره مُحام شاب في الجيزة بعد أن خدرته "لؤلؤة" وفتشت أوراقه الخاصة، وتمكنا من السيطرة على أحد المتورطين في الجهاز الخاص للإخوان المسلمين بعلاقة عابرة مع

"فريال" واعترف على مخابئ أسلحة تخص الجماعة مقابل غض الطرف عنه، وكان سببا في منع عملية اغتيال محكمة كانت تستهدف حياة مصطفى النحاس، وكان يُدبر لها تنظيم يساري سري بعد أن أفشى أحد أفراد التنظيم خطة العملية في لحظة سُكر مُدبرة. وكان مما أفشاه عضو التنظيم الأبله أن زعيمهم يتلقى مهام التنظيم من الملك مباشرة.

ويوما ما التقيت في مقر المجلة بالطبيب الشاب الذي يرغب في الانضمام لأسرة المجلة، واسمه "ماجد شهدي". أعجبني طوله، واستطبت أناقته، وسعدت بلباقته وإتقانه الإنجليزية، وبدا لي أنه على دراية واسعة بما يحدث في العالم. قرأت في عينيه العسليتين رومانسية لافتة، والمحازا حقيقيا للمرأة، ولطفا، واحتراما شديدا لشخصي. وأبهرني حديثه عن جديد الطب في العالم، وعما يمكن أن يكتبه من موضوعات تمس صحة المرأة وحيويتها. وقال لي مُعقبا على قصة نشرت باسمي عن "شجر الدر"، إنني أفوقها جمالا وسحرا. استطبت غزله وسألته كيف عرف، فأخبرني أن المنطق يقول إن حاكم أي بلد لا يمكن أن يختار إلا امرأة مبهرة الجمال لتكون زوجته، وأن الملك الصالح نجم الدين، كان ذا مزاج ونفوذ، فاختار أجمل جارية لتسكن قلبه قبل سريره. أعجبتني شخصيته، فوافقت على مشاركته العمل التحريري معنا، وعرفت بفضل تحرياتي أنه ابن عائلة ميسورة الحال تعيش في أوروبا، وأن والده طبيب مصري، وأمه إنجليزية، وأن روح التمرد دفعته لمغادرة لندن بعد دراسة الطب للعيش في مصر حيث أقام

عيادة له في وسط المدينة. وقررت فتش سرائره تماما، فأوكلت إلى "مليحة" مهمة إغوائه، لكنها عادت بعد أيام قليلة لتخبرني إنه رفض كل إغراء بثبات غريب كما لو كان قديسا.

خرج "إسماعيل باشا صدقي" من الحكومة مستقيلا بعد تعثر مفاوضاته مع الإنجليز، ولم تبد إدارة القلم المخصوص أي اهتمام بالأمر، كأنه لا يعنيها، ونصحني "يوسف بك" ألا أزوره، غير أنني عاندت وزرته بشكل سري، مبدية كثيرا من التعاطف معه، ومقررة أمامه استعداد المجلة للتعبير عن آرائه بقوة وفاعلية. الغريب أن الأسد العجوز لم يتحمس للأمر، وشعرت أن فكرته السابقة عن إنشاء تنظيم سري خاص به، لم يعد لها وجود. كان المرض قد أنهك روحه الوثابة العنيدة وأبدى خيبة أمل ثقيلة في أوضاع البلاد وألاعيب الساسة، وسطحية المليك وتفاهته، مسرا لي بأنه طفل مريض لن يبقى طويلا على عرش مصر. وحكى لي بأنه قال للملك في لقاء خاص بأنه ذاهب إلى أبيه قريبا، وسيُخبره بما أساء به لسمعة العرش. وقال لي الباشا إنه سيمنحني مبلغا كبيرا لأطور مجلتي لتصبح أفضل من أخبار اليوم، لأنه مؤمن بإخلاصي. وفاجأني الرجل بأنه هو الذي طلب من مصطفى أمين كتابة خبر "ابنة الديكتاتور"، فاستغربت الأمر، وسألته في حيرة: *'ليه؟!"*، فقال لي باسما: *"حاجة في نفس يعقوب"*. ثم أردف قائلا: *"ممكن تعرفي بعدين، وممكن ما تعرفيش خالص"*. قلت له مصرة: *"هل الموضوع فيه رسالة موجهة لحد؟!"*، هز رأسه باسما وقال: "يمكن"، ثم أضاف

قائلا: *"يا بنت يا سناء.. متكونيش لحوحة"*. وكان مما قاله الرجل أيضا أنه يشعر بدنو أجله، وأنه حزين لأن كثيرا من الساسة والزعماء يمارسون بغاء ويسمونه نضالا.

وتمنى لي الرجل التوفيق، وقبلني بحنو أبوي، وقال لي مودعا: *"إن القادم خطير"*.

قصاصة:

سئل حكيم صيني: أتفضل أن يكون إمبراطور الصين رجلا أم امرأة؟

فقال الحكيم: إذا كان الإمبراطور رجلا حكمت النساء، وإذا كان امرأة حكم الرجال، فلهذا أفضل أن تحكم الصين إمبراطورة.

وهذه السيدة الشابة اشتركت في حكم مصر زمنا، مع أنها لم تكن إمبراطورة، ولا ملكة، ولا زوجة رئيس وزراء. وهي شابة ذكية، كبيرة الآمال، واسعة المطامع، استطاعت أن تجعل من بيتها صالونا سياسيا خاصا يجمع الكبراء والوزراء، واستطاعت أن تفرض شخصيتها القوية على الضعفاء، وأن تمنح جزءا من روحها الشابة لهذه القلوب الهرمة، وأن تضيء هذه الأرواح المظلمة بقبس من حماستها. وكانوا يتنبؤون بأنها قد تلعب دور مدام رولان، ومدام رولان من أعظم نساء فرنسا، أنشأت حزب الجيروند، وملأت القلوب حماسة.

مصطفى أمين في كتاب عمالقة وأقزام 1951

(16)

الأحد 17 يونيو 2001

زارتني "مليحة" صباحا على غير المعتاد، بوجه مضطرب، وعينين زائغتين. جلست صامتة للحظات قبل أن تُشعل بعصبية زائدة سجائرها الماتينية وتنفثها خيطا من الغضب المكتوم. قلت لها باستفزاز: " في

إيه؟ احكي يا بت". لكنها واصلت صمتها وتجهمها لبرهة أعقبتها بدمعة منحدرة على خدها المورد كنبيذ معتق.

سألتها بحكمة: "مالك يا لولو؟".

تحشرج صوت الأديبة الحسناء، وتبلل وجهها وهي تقول:

- "مش قادرة أكمل. عاوزة أبطل شغل".

ابتسمت بثقة، وقلت مستنكرة:

- "نعم يا حلوة؟ عاوزه إيه؟ تبطلي؟".

- "كرهت نفسي أوي. زهقت من حركات التمثيل وكلام الإعجاب وقرفت.. نفسي أحب حد بجد. أنا لسه صغيرة، وممكن أتجوز واحد باحبه.. و...".

علا صوتي قليلا وقاطعتها:

- "باقولك إيه. من الأول خالص إحنا اتفقنا. شغلنا مالوش غير نهاية واحدة. أكيد عارفاها. أنت بتحبي بالأمر وبتكرهي بالأمر وبتتحركي بالأمر، وممكن كمان تتجوزي بالأمر، لكن مش أنت اللي بتختاري".

- "ماكنتش عارفة إن الأمور هتبقى كده، حاسة إننا بنكدب على نفسنا. بنهين نفسنا، كرامتنا، كل حاجة. إحنا مبنشغتلش عشان الوطن ولا عشان أمنه ولا عشان أي حاجة من دي زي ما قالولك. إحنا بنشتغل عشان الفلوس".

- "لا يا لولو.. أنا شخصيا باشتغل عشان بلدي، ومؤمنة بيها وبمصالحها، بدليل إني باديلك أكتر من اللي

المفروض يدفعوهولك. ومبتفرقش معايا الفلوس. إحنا بنجاهد زي مصطفى كامل يا لولو وزي عرابي، وزي الفدائيين، وبكره الناس هتعرف إحنا عملنا إيه للبلد".

- "بس دي مش بلدي يا سناء".

- "لا بلدك. البلد هي اللي بتحضنك وقت ضيق هي بلدك، وبلاد العرب كلها كانت بلد واحدة، والاستعمار هو اللي عمل فينا كده.. بكره لما نتحرر هنرجع تاني زي الأول وأحسن".

- "نرجع أو منرجعش.. أنا عاوزه أبطل خالص. من هنا ورايح مش هاجي المجلة دي تاني، ومش هاروح حفلات، ومش هنام مع حد".

- "مش هتكتبي شعر؟".

- "أنا ما باكتبش أساسا. إنت عارفة كده كويس".

شعرت أن فورة اللحظة تُحتم عليّ المهادنة التامة فقلت لها:

- "طيب يا لولو.. زي ما أنتي شايفة".

ران الصمت للحظات، وأشعلت بدوري سيجارة، ونظرت للفتاة الحسناء، وسألتها بوضوح:

- " إيه بقى الحكاية يا جميل؟".

تقطع صوت "مليحة" مرة أخرى، وهي تقول لي:

- "بحبه يا سناء.. بحبه. أول مرة أحس إن في راجل بحبه".

أجبتها سائلة:

- "هو مين؟".

فقالت وكأنها تنتظر السؤال:

- "كامل رشدي الصحفي الجديد في أخبار اليوم، المسئول عن الشئون العربية".

هززت رأسي مُتمتمة:

- "آه فاكراه. دا شاب وسيم جدا".

ابتسمت "مليحة" وتشجعت وواصلت:

- "اتقابلنا في حفل جامعة الدول العربية، وقال لي بشكل صريح إنه مُعجب بي، وخرجنا مرتين، وحكى لي إنه يخطط للهجرة لأمريكا، وهيشتغل هناك مراسل لمطبوعات أخبار اليوم، وهيبدأ حياة جديدة ونفسه نكون سوا".

سألتها:

- "بالسرعة دي؟".

- "آه. هو مقطوع من شجرة. ويعجبني جدا، وشايف مستقبلنا مع بعض".

- "جميل خالص".

تمعنت في وجهها الشاحب المخطوف، قبل أن أسألها بوضوح:

- "نمتي معاه؟".

فأجابت على الفور:

- "لأ طبعا.. إحنا بنحب بعض بجد. مش شُغل".

لكني علقت قائلة:

- "وماله ما هو أولى".

ولم يعجبها التعليق، فتأففت، ثم قالت لي بصوتٍ هامس:

- "إنتي عارفة كويس. إننا عمرنا ما بنحس بالمُتعة".

تمالكت أعصابي، وأشعلت سيجارة من سجائري الـ"كِنت"، وسألتها بهدوء إن كان يعرف شيئا عن سيرتها، أصلها وفصلها، حياتها الخاصة، فنفت، وقالت إنها أخبرته أنها مطلقة من تاجر فلسطيني يعيش في رام الله.

قلت لها بوضوح:

- "طيب إيه موقفه لو عرف حاجة عن شغلنا؟".

فسارعت قائلة:

- "أنا عاوزة أقفل الصفحة دي خالص. كأنها ما تكتبتش.. دي مرحلة كانت صعبة في حياتي وأنا خدمتكم فيها وأنتم ساعدتوني.. وخلاص كل واحد يروح لحاله".

هززت رأسي موافقة، فأكملت "مليحة":

- "إنت عارفة إني بحبك أوي عشان كده قلت لازم أقولك كل حاجة، وعارفة إنك هتتفهمي وهتساعديني".

- "طبعا طبعا".

قمت سريعا لأفتح أحد أدراج مكتبي، وأخرجت

رزمة من الجنيهات، وقلت لها بحنان:

- "محتاجة فلوس؟".

فقالت:

- "لا معايا".

قُلت لها:

- "ربنا يوفقك. بس متنسيش.. لازم أحضر فرحك".

احتضنتني وقبلتني بحرارة، وكررت كلمات الامتنان، وغادرت راضية بعد أن انفرج تجهمها، وعلى الفور طلبت "سُعاد" لتأتيني بعد ساعة. أعطيتها رزمة الجنيهات، وقُلت لها آمرة:

- "اسمعي يا سُعاد عاوزاك في موضوع خاص محدش يعرفه خالص".

هزت رأسها بحركة آلية، فأضفت:

- "في ولد فـ أخبار اليوم شغال صحفي اسمه كامل رشدي.. أنا عاوزاه ملط، ولما يستوي خالص خالص.. تتصلي بي آجي أكلمه بنفسي".

ضحكت بغنج، وهرشت بأصابعها في شعرها، وقالت:

- "دا إيه المطلوب منه؟".

- "ولا حاجة.. عاوزينه ينبسط خالص. وابعتي له بنات من بره.. منعرفهومش".

قبلتني في الهواء وقالت في رضا:

- "بس كده.. أوامر".. وغادرت.

(18)

الاثنين 18 يونيو 2001

دنا الحب مني لأول مرة قبل العشرين. لاحظت في عيني "ماجد شُهدي" ولهًا كلما تحدث إليّ، ورويدا شعرت بانجذاب شديد تجاهه. طلب مني أن نلتقي في "جروبي"، وفوجئت به يُمسك بكفي برعشة حقيقية تنم عن مشاعر دفينة. عندها سألني في أدب لماذا لم أتزوج وأنا على هذا القدر المُبهر من الجمال! كان رقيقا وهو يتحدث عن المرأة في أوروبا، وكيف خطت خطوات واسعة في سبيل التمدن، وكيف ساهمت في مكافحة الفاشية، وفي خدمة بلادها خلال الحرب، وهو ما أكسبها احتراما إلزاميا من جانب الرجال. قُلت له في آلية دُربت عليها بأن هذا هو ما أؤمن به فعلا، وأن هذا هو المستقبل في بلادنا، فد كفه إلى يدي مُحتضنا إياها، وهو يقول: *"وأنا كمان مؤمن بكده"*.

حاول الطبيب الوسيم اختراق أسواري العالية، وكان مباشرا عندما قال لي: *"كل الناس بتمر بتجارب عديدة فاشلة، لكن الدنيا عمرها ما وقفت"*. هززت رأسي بأسى مفتعل، وكأنني أتذكر ماضيا موجعا، وقلت له: *'بس أنا تجربتي كانت صعبة جدا. يا دوبك أنا بدأت افوق منها"*. قال "ماجد" وهو يحافظ على ابتسامة زادته وسامة: *"جميل إنك تفوقي بالكتابة. الأدب والفن بيمسح من على السبورة كل الذكريات المؤلمة اللي عشناها"*.

قُلت لنفسي مُراجعة "لست أهلا للحب، مثلما هي

مليحة. لم أختر أبويّ، لم أختر فقري، بؤسي، وجهلي، لم أختر امرأة التقطتني للتسلية، ولم أختر ليالي بت فيها باكية، وحيدة، مغتربة. أنا حتى لم أختر شغلي، فرضته الظروف فرضا، ودفعتني إليه في البدء حاجتي لمأوى وعيش، ومع الوقت أحببت هذا العمل أكثر من حبي للحب. أدمنته، وسكنني لأشعر معه بالحياة، أتنفس على هذه الأرض لأعرف، أعيش لأفتش، أتحرك لأراقب، وأفعل كل شيء لخدمة قيمة عظيمة هي الوطن. الحب ترف لا يتورط فيه المناضلون ضد الخونة. الحب ضعف أمام القاسية قلوبهم، انهزام وتذبذب وخضوع، وكسر للكرامة، وليّ لأعناق الحق. الحب وجع يتسع كلما ارتفع منسوبه في القلب. أكره الحُب الذي يجعلني أضحي من أجل آخر. التضحية الوحيدة المقبولة في معجمي هي التي تبذل في سبيل عظائم الأمور، والوطن الآن هو القيمة الوحيدة".

راقتني رقته وهو يشرح لي طبيعة عمله. يعمل ثلاثة أيام في مستشفى قصر العيني، حيث يُشرف على تجبير المكسورين، يتحسس بأصابعه موضع الألم، ويضغط ضغطات بسيطة يعرف من خلالها حدود الكسر، ثم يعد الجبيرة ويضبطها لتُعيد إلى المريض التحام عظامه. وفي مساء كل يوم عدا الجمعة يستقبل المتوجعين من عظام العمود الفقري، والحوض، والرُكب والأعناق. يُخبرني أنه لم يختر عمله، وكان يتمنى أن يعمل محاميا، غير أن والده أصر على أن يسير على خطاه، ففعل إرضاء له، ثم اكتشف أن الطب مهنة عظيمة وأحبها. حكى لي "ماجد" عن هيامه بفتاة إنجليزية تُدعى "روز"

كانت تعمل ممرضة في المستشفى الملكي بلندن، حاول استمالتها للعودة معه إلى مصر حيث قرر أن يعيش، لكنها أبت مُكررة النظرة الفوقية تجاه بلاد الجنوب، المستعمرات، التي ما زالت تخر في البؤس والجهل. في لحظة تفكر عُظمى قرر "ماجد" أن يوصد قلبه، حتى لا يُكرر والده. فأسوأ شيء في مخيلته هو تكرار الآخرين.

دفعني الانجذاب إليه أن أدفعه بعيدا عن طريقي بحركة لافتة تُحيي في ذاته الإنسان الشرقي المختبئ. طلبت أن يوصلني إلى بيتي بحدائق القبة، ثُم دعوته على مشروب مُنعش استطابه، ثم عرضت المزيد، والمزيد، وأنا أقترب بشفتيّ من فيه، لأذوب معه في قبلة ساحرة ماجنة تُذيب العاقلين وتُسكرهم ليسقط بين براثني بأسهل مما توقعت. مارسنا الحب بجموح الشباب العاتي، كحشود الهاتفين باستقلال مصر في كل انتفاضة هادرة ضد الاحتلال. قطعت تردده، ووأدت خجله، وفتحت له سراديب الرغبة الموصدة. أنهكته كثور يدور في ساقية لا تتوقف عن ري الحقول الجدباء، وابتلعته كشربة ماء لأطفئ جذوة العاطفة المستعرة موقنة أن قتل الحب الروحي بالحب الجسدي هو الحل الأمثل لكلينا. همَّ أن يعتذر بعد المباراة الصاخبة، لكنني سددت فمه بكفي قائلة: *"أنا انبسطت أوي"*. ظللت عارية لأطول فترة لتسكن روحه صورتي الأخرى التي تشطب البراءة المفتعلة للحب العابر. وهكذا، نجحت بامتياز في صرفه بعيدا عن حبي، وصرفي بعيدا عن حبه، فلم يعد يتحدث معي بعدها عن الزواج وإن ظل معجبا، ومغازلا كلما اشتدت به الرغبة لقضم تفاحتي. ولفترة وجيزة استمر

"ماجد" هو الأنسب لذوقي كشريك مثالي في الفراش قبل أن يُسافر مرة أخرى إلى وطن أمه تحت زعم استكمال دراسات قال إنها مهمة في مجال الطب.

رتبت لـ"مليحتي" مشاهدة ماتعة لحبيبها المفترض وهو برتمي تحت قدمي فتيات محترفات نجحن في إغوائه. أصرت "مليحة" على أن تُقيده إحداهن في السرير عاريا وممددا على بطنه، لتجلده بكرباج لاسع دون أن يراها. ظن الأبله في البداية أنها لعبة، ثم ما لبث أن شعر بآلام تتجاوز الهزل، وصرخ بأعلى صوته مهددا ومتوعدا، قبل أن أدخل إليه وأسكب عليه زجاجة براندي كاملة ليتبول على نفسه، ثُم أصوره عدة لقطات مخزية، وأهدده بالفضيحة والطرد من أخبار اليوم، ومن البلد كله إن لم يخدم سيدته "مليحة" كعبد ذليل. بكت الزميلة العاشقة متوسلة إليّ أن أحله وأتركه يذهب، وتعهدت برضا نفس أن تعود للشغل دون تفكير. ووجدت الفرصة سانحة لأتفق مع "كامل رشدي" أن يعمل جاسوسا لي ضد "مصطفى أمين" وشقيقه، ودار أخبار اليوم كلها، وأن يُقدم لي تقريرا كل أسبوع عن تحركاته وخططه، فوافق دون تردد. ظل الولد طائعا وحريصا على إرضائي حتى توقفت المجلة تماما عن الصدور في صيف 1947 نتيجة انتشار الكوليرا، ومعها توقفت التكليفات والمهام العليا، وزارني "حسن باشا رفعت" فجأة ليُخبرني باستقالته وخروجه من الخدمة، مُمتنا لما قدمت في ظل إدارته من خدمات للأمن العام، ولم يلبث أن مر عليّ "يوسف بك حسين" بعدها ليقول لي بأن النشاط النسائي يجب أن يتوقف تماما، وأنه لن

توجد مخصصات جديدة في هذا الشأن، لأن الكولبرا أخذت كل شيء. وكان مما قاله أيضا: *"إن محمد الجزار المدير الجديد عاوز الإدارة نضيفة خالص"*. ثم نصحني بجدية قائلا: *"طبعا يا سناء. إنتي ممكن تعيشي ملكة. وعندك مجلتك. بس خلاص. إحنا منعرفش بعض. ومعرفناش بعض قبل كده. مفهوم؟"*. قلت له مبتسمة: *'هو مين حضرتك؟"*. فغادر وهو يردد: *"عذرا يا آنسة. الظاهر العنوان غلط"*.

***

(19)

الأربعاء 20 يونيو 2001

لم أنم ليلة أمس. صافحني المرض سلاما حارا، وغرس الألم خيامه بجسدي. زارتني تقلصات الرحم تباعا، وكأنها تتناوب انتهاكي واختبار صلابتي القديمة. دق أحدهم مسمارا سميكا وطويلا في حوضي، فشعرت أن الرحم تدور في غسالة حديثة في مرحلة العصر. ساءلت نفسي ما الوجع؟ ما هذا الشعور المركب الذي يستنزف ذرات السعادة في دواخل الإنسان لينثرها في الهواء؟ ما التفاعلات الفيزيائية الصانعة لهذا العدو الكريه الممقوت؟ وكيف يتمدد في الأوصال ويجوب الخلايا بخفة وسرعة دون رادع؟ وما الحاجة لنذيقه بعضنا البعض ضغطا، كرها، وانتقاما تحت وهم امتلاكه؟

أتذكر جيدا "مُرسي الشيخ"، خبير الآلام الأول، الذي عرفته في الستينيات، فنانا مهووسا استعانت به

المؤسسة لدفع المُتهمين للبوح بما يخفونه بصورة أسرع مما هو معتاد. كان مبتسما على الدوام، يقظا ومتأملا في عيون الناس، وكأنه يحاورها، مُقدرا مستويات وأنماط الألم الأنسب لكل شخص مطلوب إنطاقه. كان يُردد مقولة فيلسوف يوناني اسمه "تيروكورال" بـ"*أن الموت راحة للمجرمين والأولى أن يُتنوا تحت العذاب أكبر وقت قبل أن يرتاحوا*". أراني يوما ما صورا لكرسي محاكم التفتيش في أوروبا في القرون الوسطى، وهو كرسي يحتوي على مسامير صغيرة في كل موضع منه، ويجلس عليه المعذب عاريا لتخترق المسامير كامل جسده حتى الذراعين وأخمص القدمين والخصيتين ويبقى المسكين عليه لعدة أيام قبل أن يقضي نحبه. وقال لي إنه صنع مثله، ولم أدر أكان صادقا أم يحاول بث الرعب في نفسي. وما زلت أتذكركيف شرح لي فن دق الخازوق في شرج المذنب، وكيف كان رجال الدولة العثمانية يكافئون الجلاد الأمهر القادر على دق الخازوق بفن متجنبا إحداث نزيف يُعجل بعمر الضحية. هل كرهته دون إعلان؟ هل سعدت عندما تبرأت السلطة من خدماته في أول مراجعة عامة إثر الهزيمة وتغير الإدارة؟ هل ابتهجت روحي عندما مات مفتتا أمام السرطان الذي رد له الصاع عشرا، فكان يضرب رأسه في الحائط طلبا للنهاية؟ بالقطع: نعم.

أشكر وليم مورتون، مخترع البنج لتخفيف آلام البشر، وآمل أن ألتقيه مباشرة في الدار الآخرة لأكرر الشكر المستحق. أشكر كل نبتة غريبة تصورها القدامى شيطانية لأنها توقف الإحساس، تخفيه، فلا يستكمل

نهش القلب بجوع قاهر. أمتن للمورفين، للأفيون، للحشيش، وللكحوليات جميعا وظيفتها المثالية في حجب الآهات شعورا قبل نطقا، ليبأ الإنسان بدنياه الفانية في دعة واسترخاء.

أقاوم الألم بالمسكّات، وبالذكرى أيضا لأكتب ما أراه ضروريا لتخليص ضميري أمام الخالق قبل أن ألقاه، فربما يكون -بوحي- دافعا لآخرين ليغيروا مسارات حيواتهم أو يفكروا مرارا قبل أن تقودهم خطاهم خارج ما اعتاده العاديون من حياة طبيعية. فبعد أن أحالني المتطهرون إلى التقاعد مبكرا، قبل أن أبلغ عامي العشرين، صار لديّ أكثر من دافع لأعيد ترتيب ذاتي وأنظر بعين صافية لحياتي القادمة. فصرت أمام الناس مطلقة في مجتمع شرقي، لديها مال ونفوذ وشهرة جيدة، لكنها مثل ورقة شجر طافية فوق موج مستعر تدفعه الريح شرقا وغربا دون تخطيط مسبق. وأنا كاتبة لها كتب وقصص ومقالات بالاسم، لكنني في حقيقة الأمر أخسر إن دخلت في أي مواجهة علنية مع مثقف عتيد. غمرني الاغتراب النفسي، وأعدت التفكر فيما مضى، وقررت المخاطرة بالعبور الحقيقي إلى اسم الكاتبة "سناء بكاش"، الذي سبق وصنعته بالمال والعلاقات، فاغترفت علما واسعا وطرقت آدابا شتى ومارست تجريبا متجددا وانتقلت بالفعل من خانة شراء الكلمات إلى صياغتها وإنتاجها. وسريعا ودون عناء كبير تخصصت في بعث قصص النساء المتحققات في السياسة والدين والأدب وصنوف الحياة كافة. كُنت أصدر قصة جيب كل شهر تحمل سيرة واحدة من

العظيمات في التاريخ بدءا بالسيدة خديجة بنت خويلد، مرورا بهند بنت عتبة، وفاطمة الزهراء، وشجر الدر، وحتى أمينة هانم حرم محمد علي باشا. لم تكن الحكاية صعبة، فكل ما هنالك أنني كنت أنقل سير هؤلاء النسوة من الكتب القديمة إلى اللغة المعاصرة المفهومة بسلاسة، وأقدمها بغلاف جميل يصممه لي رسام محترف.

حافظت على علاقات اكتسبتها بذكاء فشاركت في حفلات خيرية، وحضرت معارض فنية، وكررت الزيارات لنجوم الأدب والفن، حتى التقيت ذات مرة بـ"مصطفى أمين" خلال صالون مسائي استضافه المليونير الكبير "محمد باشا فرغلي". هالني قوامه الفارع وعيناه اللامعتان وأسرتني خفة حركته وهو يتنقل من ضيف إلى آخر مُصافحا وعلى شفتيه ابتسامة مكر لافتة. رآني فقبل كفي الصغير بلطف قبل أن يقول لي بلهجة ساخرة: *"مش ناوية تكتبي لنا قصة في آخر ساعة؟"*. جاوبت ابتسامته بابتسامة أوسع، اتسعت معها مسام بشرتي الصافية وقلت له: *"باردون يا مُصطفى بك.. المجلة عندي أولى"*. فدنا مُنحنيا من أذني وهمس: *"هي مش وقفت؟"*. فرددت على الفور:

"لا طبعا، ده وقف مؤقت وهترجع تاني". رشف الصحفي الشهير بضع رشفات من كوب ليمون احتضنه كفه الغليظ، ورمى نظرة خاطفة على فتحة صدر فستاني الزاهي، وقال لي: *"متجيبي مين يمسك المجلة. ما محمد غريب رجع يكتب عندنا تاني في أخبار اليوم؟"*.

غمزته بابتسامة موحية، وقلت له: *"الصحفيين كتير"*. فتمتم قائلا: *"المهم يكونوا شطار"*.

كُنت أشعر بغيظ حقيقي من هذا الشاب الذكي الذي اخترق أوساط الساسة والفنانين في وقت قياسي، فصار بمثابة ماكينة أخبار وحكايات متنقلة. قلت له دون أن تغادرني ابتسامتي: *"المهم ف الصحفي يكون شاطر وبيعرف يعمل عناوين جميلة كده زي عنوان ابنة الديكتاتور"*، فقهقه بصوت عال، وأغمض جفنيه للحظات ثم قال: *"ياه لسه فاكراه. بس قوليلي بدمتك إيه رأيك؟"*. قُلت بنبرة غيظ: *"أهم حاجة ف الخبر يكون صحيح، ميبقاش قايم على خيال مريض لحد مش عارف مين فلان فيقول أي حاجة"*. حرك الرجل رأسه الكبير يمينا ويسارا، وقال: *"على فكرة مش صحيح. المهم في الخبر إنه يكون مثير عشان يستحق قراءته. الحقيقة دي نسبية، بعدين متنسيش إحنا اللي بنفرض الحقيقة على الناس. والناس بتنسى دايما اللي فات. يعني لو كتبت بكره تحت صورتك نجمة السينما الصاعدة أو ملكة جمال مصر الناس هتصدق"*. قلت بضيق: *"نظرية برضة"*، فهز "مصطفى أمين" رأسه وقال مستنتدا: *"تشرفنا يا هانم"*. أزعجتني عباراته وشعرت بنبرة استعلاء حاول توصيلها إليّ، لكنه كان دافعا في الوقت ذاته لأواصل تنمية مهاراتي وقدراتي في الكتابة الصحفية والأدبية.

تابعت عن بُعد تقلبات الأحوال السياسية في سنة الحرب، إعلان دولة إسرائيل، اجتماع القادة العرب،

وقرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وقرار تجييش الجيوش لطرد العصابات الصهيونية. استمعت لرأي إسماعيل باشا صدقي في وجوب الاتفاق السلمي، ووصفه ما يحدث بالمشهد الهزلي الذي يتفق فيه الجميع الشوارع الغاضبة، وكان أجمل ما قاله بأن: "صرف الاحتلال البريطاني عن مصر أولى من صرف الاحتلال الصهيوني عن فلسطين". تكدر الأمن العام، وجرت وقائع اغتيال غريبة بعد اغتيال القاضي أحمد الخازندار، حيث نسف مجهولون محلات "شيكوريل" و"أوريكو" و"عدس"، وفُجرت أكثر من قنبلة في حارة اليهود، وشهدت القاهرة مظاهرات صاخبة اتسمت بالعنف، ولقي "سليم زكي" حكمدار القاهرة ذاته مصرعه في إحداها مصابا بشظايا قنبلة مجهولة، ولم تمر أيام على مصرعه حتى أصدر "محمود فهمي النقراشي" قرارا بحل جماعة الإخوان المسلمين، التي ردت باغتيال النقراشي باشا نفسه في حادث محكم. وفي ليلة شتوية غائمة قتل تنظيم سري تابع للأمن "حسن البنا"، بعد استدراجه إلى لقاء وساطة وهمي، انتقاما لمقتل رئيس الحكومة، وقيدت القضية ضد مجهول.

وكما توقعت تماما زارني "يوسف بك حسين"، معلنا رغبته في استعادة جسر المعلومات، وقال لي: *"أنا واثق إن الشغل عندك لسه ما وقفش. وإن عندك حاجات كتير أوي ممكن تقوليها لي"*. ثم أضاف بابتسامته المعتادة: *"إنت تربيتي يا سناء هانم"*.

قصاصة

تقرير مرفوع إلى حضرة وزير الداخلية..

حضر الليلة الشيخ حسن البنا إلى ديوان وزارة الداخلية، وطلب مقابلتنا بحجة الإفضاء إلينا بأمور مهمة يرغب في إبلاغها فورا إلى حضرة صاحب الدولة، رئيس مجلس الوزراء، فلما قابلناه حدثنا بأنه قد علم أن الحكومة أصدرت قرارا بحل جماعة الإخوان المسلمين أو هي في سبيل إصدار هذا القرار، وأنه يريد أن ينهي إلى دولة رئيس الوزراء بأنه قد عوّل نهائيًا على ترك الاشتغال بالشؤون السياسية، وقصر نشاط الجماعة على الشؤون الدينية، كما كان الحال في بداية قيام جماعة الإخوان المسلمين، وأنه يود من كل قلبه التعاون مع دولة الرئيس تعاونًا وثيقًا مؤيدًا للحكومة في كل الأمور، وأنه كفيل بتوجيه رجاله في الجهات كافة بالسير على مقتضى هذا الاتجاه. كما أعرب عن أسفه لما وقع من جرائم ارتكبها أشخاص يرى أنهم اندسوا على الإخوان المسلمين، وراح يترحم على سليم زكى باشا قائلا إنه كان صديقا حميما له، وكان بينهما تعاون وثيق وتفاهم تام، ثم أكمل مادحا دولة النقراشى باشا قائلا إنه على يقين من نزاهته وحرصه على خدمة وطنه وعدالته في كل الأمور. وإنه لو تمكن من مقابلة دولته بعد أن مضت سنتان لم يلتقيا فيهما بسبب جفوة أثارها الوشاة لأقنع دولته بأنه من صالح الحكومة والأمة معا أن يبقى الصرح الضخم الذى جاهد الإخوان المسلمون سنوات طويلة في إقامته، كما قال إنه يعز عليه، بل يزعجه،

ويؤلمه أن ينهار هذا الصرح على يد دولة النقراشي باشا الحريص على خدمة بلاده.

عبد الرحمن عمار.. وكيل الداخلية

8 ديسمبر 1948

(20)

الجمعة 22 يونيو 2001

غلبني الزمن فصرت مُتفرجة على مقعد متحرك تدفعني فتاة نوبية نحيلة في شوارع وسط القاهرة بعد إلحاح لأرى الناس. حكت لي "حسن" ونحن نعبر ميدان سليمان باشا نحو شارع قصر النيل الذي ما زالت الطرز المعمارية الأوروبية تميزه بأن الناس لا تصدق نبأ انتحار "سعاد حسني". لم أنبس بكلمة، لكن الثرثارة الماكرة واصلت استفزازي لأتكلم وهي تكرر بأن الجميع كان يعرف أن "سعاد حسني" يمكن أن تفتح ملفات مخجلة إن كتبت مذكراتها، وهو ما يرجح رميها من فوق. اكتفيت بهز رأسي نافية وتمتمت: "*لا أظن*"، لكن رفيقتي السمراء دلفت كعادتها إلى داخل الدهن، وهي تسأل بوضوح إن كنت قد عرفتها خلال عملي مع المؤسسة، فهززت رأسي مرة أخرى وقلت: "لا". وأنا بالفعل لا أظن أن لدى "سعاد حسني" أسرارا تستحق التصفية، كما بت أظن أن مبدأ التصفية نفسه غير وارد لدى المؤسسة. فأقسى تصفية يمكن للمؤسسة اللجوء إليها هي أن تُبقي خدامها المتقاعدين وحيدين دون اتصال أو امتنان كأنهم لم يكونوا يوما معها، مثلما هو الحال معي. وهكذا يقتلونك وأنت حي، ويشطبون انتصاراتك

وأمجادك تحت زعم التبرؤ من خطايا فردية تدنس من كلف بها.

أشتاق دوما لمشهد السيارات المكدسة أمام إشارات مرور الميدان، والناس تعبر كأنها تسابق الزمن، يحملون على وجوههم ابتسامات باهتة ونظرات مُضللة تبرهن دوما أن القلوب تخفي مشاعر مستترة بالحب والكراهية. أبواق السيارات تؤجج في ذهني ضجيج العالم المنطوي على تمرد دائم ضد كل ما يحدث من اتفاقات سرية وعلنية في سبيل الهيمنة على الإنسان. آنس بصخب الحياة وتفاعل البشر ذهابا وإيابا، وعبور الشمس من كبد السماء إلى مغربها، تأكيدا على استمرار سعيهم طلبا للرزق، ورغبة في الأمان. ما البشر في دورانهم المنفعل سوى نفوس مُحملة باحتياجات تسعى لتلبيتها دون اكتراث لزمن يمضي أو عمر يتقدم. أتذكر آلامي بخزة طارئة في العمود الفقري، فأتعجب من حلم عشته وأنا صغيرة كي يمتد بي العمر تسعين عاما أو أكثر. ما نفع العمر إن طال بوحشة ووحدة وآلام شتى؟!

هل كنت سعيدة وأنا أعيد إطلاق مجلة "أقلام جديدة" بعد توقف لأكثر من عام؟ هل كنت جادة وأنا أبارك كفاح الفدائيين في قناة السويس؟ هل صدقت بالفعل وأنا ألعن الاستعمار وأعوانه وأذنابه وعملاءه؟ هل كتبت بنفسي مقالات وطنية تخاطب الوطنيين السريين وتحرضهم للكفاح من أجل بلادهم؟ هل كانت عودتي للكتابة ردا على اهتزاز الأمن العام في

سنة الحرب؟ أم استجابة لرغبة مباحثيين مخضرمين في استعادة نافذة مقربة على ما يحدث تم إقفالها في انفعال خاطئ؟ أم هي رد فعل أنثوي لمكايدات "مصطفى أمين" وشمامته في خروجي من الساحة؟ ربما كل هذا معا، لكن معه أيضا تأكيدي لذاتي بقدرتي أن أكتب بنفسي، بإبداع، وجمال، وسحر.

كُنت أدفع مكافآت محدودة لـ"مليحة" و"تيتي شيري" و"وداد"، وظللت على تواصل نسبي مع "لؤلؤة" و"سعاد" التي فاجأتني بإعلان توبتها وذهابها للحج، قبل أن ترجع لنا امرأة مُحجبة وتتزوج من تاجر أقمشة شهير.

استعادت "مليحة" تواجدها في أوساط الأدباء، وباحت لي يوما بأنها تحب الشاعر الطبيب إبراهيم ناجي، فقلت لها عن صدق:

"لا تلتقي واحدة بهذا الشاعر دون أن تحبه، لفرط رقته، وأدبه الجم في التعامل مع النساء، ناهيك عن جمال شعره"، وأقنعتها كما الماضي أن الحب الحقيقي ضعف، وأن تبادل كلمات الإعجاب والغزل ماتع في حد ذاته. صارت "مليحة" ضيفة دائمة لدى جميع الصالونات الثقافية ومنتديات الأدب، لكنها تجنبت بتعليمات مني الاقتراب من عرين "العقاد". نشرت لها مقالات تحية وإعجاب لإبداعات "إبراهيم ناجي"، و"أحمد رامي"، و"جبران"، وحتى "طه حسين" نفسه، لدرجة أنها صدقت ذاتها بأنها أديبة ذات شأن كبير. أما "فريال" فدت خيوط تواصل متينة بكبار المخرجين، والمنتجين في السينما بعد أن شاركت في التمثيل في فيلم

فرنسي صامت عن الواحات المصرية.

حافظت على علاقات متوازنة مع عدد من الساسة في الأحزاب، وبعض الناشطين في الحركات السرية، والتقيت يوما بفتى أسمر خطير ينادونه بـ "الحاج محمد"، وهو ضابط بالجيش، فُصل لبضع سنوات بسبب أنشطته الوطنية ثم عاد بوساطة من الملك نفسه، وكان يبدو لي أنه يعرف كل شيء عني فلم يتحدث كثيرا، وغادر سريعا، ولم أره فيما بعد حتى صار يوما ما رئيسا للبلاد. كُنت أرى كل شيء بوضوح، وعادت تقاريري تُثير عتمات الأجواء أمام "يوسف بك"، الذي أخبرني أن الدعم المادي الذي كانت تتكفل إدارته بتقديمه لن يعود، وأن كل ما يمكنهم عمله هو تيسير إصدار المجلة، وحث مديري الشركات على الإعلان فيها.

رحل "إسماعيل باشا صدقي" بعد مرض طويل أضنى قلبه المتخم بهموم البلد وسعيه الدؤوب لنهضته، وأقسمت أن أوفيه حقه كاملا، فاحتجبت شهرين، قضيتهما في كتابة أكبر كتاب عن سيرة حياته، إيمانا مني بأنه أفضل سياسي في تاريخ البلاد، وأن الناس لم تعرفه كما ينبغي. أدرك الآن أنني كُنت أنتمي حقا إليه، وأنا سعيدة بوصف "ابنة الديكتاتور" الذي أطلقه "مصطفى أمين" عليّ. كان الرجل واقعيا، وصادقا مع ذاته ومن حوله، وعرف مصر على حقيقتها وأدرك دون شعارات براقة وفخر كاذب ما يمكن أن تحققه مصر من تأثير في المنطقة المحيطة. أنظر الآن إلى الوجوه المحيطة في شوارع مصر بعد نصف قرن من

رحيل الرجل وأتحسر وأنا أفكر: كم شخصا من هؤلاء يعرفه ويعرف أفكاره وأحلامه من أجل هذا الوطن؟ والموجع كاحتباس البول، أن يختفي كتابي عن الرجل، وينقطع ذكره كأنه لم يكتب قط.

***

(21)

الخميس 28 يونيو 2001

آه يا ابنتي. أين أنت في هذا العالم الكبير؟ أتوق لعناق نابع عن حنان حقيقي، لا عن شفقة أو واجب وظيفي. أسبوع من الصراخ والكمد، وجع على وجع هو العنوان الأمثل لحياتي الآنية. غلبني المرض، ثم غلبني وغلبني. صرت جثة بلا حراك، لكنها ما زالت تنطق، مُمددة على مرتبة طبية، لا تملك خيارا، تُطيع دون تردد، ملوثة ببولي وفضلاتي الضئيلة مُذ فقدت شهيتي تماما، وأجدب جوفي كبئر قديمة مهجورة تنبعث منها روائح عطنة. عُدت طفلة رضيعة، تأنس بصوت من تعرف، ومَن تعرف سوى "حسن" التي أشعر في بعض الأحيان بتأففها وهي تغير حفاضاتي المُزرية. لو كُنت مكانها لما بقيت يوما في خدمة عجوز شمطاء انقطعت من شجرة باختيارها عندما تركت سنديون قبل ستة عقود رغبة في عيش هانئ.

ألوذ بذكريات مُرتبة لأطفئ وجع نفس تعذبت بالكتمان عقودا، فرد لها البوح بعض القدرة على استيعاب الحياة، وتحمل سكاكينها لأمد أطول. أحمل ورقي بين أصابع صغيرة، تكرمش الجلد على عظامها

الواهنات لأخط ما حدث، في محاولة يائسة لسبق ملاك القطف الذي أشعر كل يوم برائحة اقترابه من تنفيذ مهمته المحتومة. أكتب مستبصرة لماض مرير، ماتع حينا، وقامع أحيانا كثيرة، لكنه سخي بالحكايات المدهشة التي فرت من كُتب المؤرخين.

مصر في منتصف القرن العشرين، ساحة عراك دام، تتبدل فيه الأدوار، وتتغير المواقع حتى لا يبين غالب من مغلوب. منكسرون بالتبعية يرون جلاء المحتل رهانا مستبعدا يحسُن تأجيله على الدوام، وجامحون طامحون يحصون خطاهم للتجهز لحكم البلاد والعباد شرقا وغربا بعد تحرر يؤمنون أنه صار وشيكا، وبين الفريقين منتفعون دوما في النصر والهزيمة، لديهم قدرات معجزة على التلون وتبديل المواقف، وعصر القيم للمواءمة مع كل حال طلبا للمكسب. أما أنا فكُنت وراءهم أتعلم بصبر وهدوء وحنكة كيف ألتقط ما يتبقى من معارك الكبار الطاحنة لأغتنمها، وأدخرها لوقت حاجة، أثبتت الأيام سرعة قدومه. هل كُنت أدرك أن هناك تنظيما سريا من الضباط يخطط للاستيلاء على الحكم؟ هل كنت أتوقع أن يستيقظ الملك الشاب يوما فيجد نفسه محاصرا ومضطرا للرحيل؟ هل كُنت أنتظر تغييرا من خارج الخريطة المعتادة لأهل الحل والعقد، فأعددت ملفات تفصيلية بفساد رجال القصر فاسدا فاسدا؟ هل كنت جاهزة لما هو آت باخلاص حقيقي، ورغبة عظيمة في التسيد والترقي؟ وهل كانت تقاريري العاجلة التي قدمت تطوعا إليهم في الأيام الأولى بمثابة أوراق اعتماد مقبولة بالولاء لدولة جديدة تقوم سريعا؟ هل

كان تقريري عن اتصالات "مصطفى أمين" بالسفارات الأجنبية لتأكيد نبأ حركة الجيش سببا في القبض عليه تحوطا كما ذكر بيان مجلس قيادة الحركة وقتها؟ هل سعدت بذلك وقتها؟ ربما!

كانت "أقلام جديدة" هي الأسرع تحية للضباط الشبان، الذين خاطروا بأعمارهم، وتحركوا بقوات محدودة في ساعة استكانة، ليهزوا عروشا، ويزعجوا ساسة، ويربكوا حسابات دول وأجهزة ومؤسسات كبرى. كنت بعيدة عن هؤلاء الصاعدين بعقلي فلم ألتق من قبل بأحد منهم سوى "السادات"، وكان لقاء عابرا، ولم يكن هناك من حملة الأقلام من هو قريب منهم باستثناء الكاتب المخضرم "أحمد أبو الفتح"، والصحفي الشاب "محمد حسنين هيكل"، تلميذ "مصطفى أمين" النجيب، وأردت الاقتراب، والقول بأنني صوت عال وطائع للسلطة الجديدة في مواجهة المتحفزين ضدها والمزدرين لرجالها تحت لافتة حداثة أسنانهم. اخترت صورة اللواء "محمد نجيب"، كبير الضباط والحائز على احترامهم وتقديرهم لتتصدر غلاف المجلة، ثم اخترت عنوانا شاملا للعدد الذي صدر أول أغسطس 1952 وهو "مصر تتحرر". استعنت بـ"حبيب جاماتي" ليكتب عن مخازي الدولة العلية، وكتب "محمد غريب" عن الأحرار الذين انطلقوا يطلبون حرية بلادهم، واتفقنا على وضع صورة "جمال عبد الناصر" على المقال، باعتباره الرجل الثاني في الحركة، وأعدت نشر قصيدة لبيرم التونسي تسخر من الملك فؤاد، حملت عنوان "مجرم ودون"، وكتبت باسمي قصة تاريخية عن غزوة بدر،

وكيف انتصر الأنقياء الطامحون للعدل والتوحيد على الطغيان والكفر. كما عرضت المجلة في افتتاحيتها على كل مَن لديه ملفات فساد ضد الحكم البائد ورجاله التقدم بها إلى إدارة التحرير لنشرها معاونة للحركة الجديدة في حركة التطهير.

كُنت أعمل بمعزل عن إدارة عليا توجهني، بعد أن أحيل "يوسف بك حسين" إلى التقاعد، مع صف كامل من ضباط القلم المخصوص، وكنت على يقين، بأن ملفاتي السابقة ستقع في أيد راشدة تُقدر جليل دورها، ليتجدد العمل بدور أكبر، ومكافأة أسخى تفي بمصروفات المجلة، وبمكافآت الحسناوات الملتفة حولها. ولم يخب حدسي قط، فبعد أسبوعين فقط من مظاهرات كفر الدوار، زارني الزائر المنتظر، وكان أنيقا ولبقا وباردا كما ينبغي لرجل أمن حقيقي، وقال لي إن اسمه الصاغ "نور سالم"، وأنه مكلف بالتواصل معي، والحصول على كل ما بحوزتي من ملفات تخص الوسط السياسي، مؤكدا أن خدماتي ستكون محل تقدير في المستقبل القريب.

والتقيت بـ"حسن باشا رفعت"، الذي بدا وكأنه استرد شبابه مرة أخرى بعد تقاعده، وفتح لي قلبه بجلاء ليُفاجئني بعلمه بما فعله معي "يوسف حسين" عندما صورني عارية في فراشي مع كاتبي السابق. انتابتني حالة غيظ نادرة فصحت فيه: *"وسكت ليه؟"*، فأجاب بهدوء يوحي بالحكمة: *"كان لازم أسكت"*، ثم شرح موقفه قائلا: *"أولا لو اتكلمت أو متكلمتش*

الموضوع خلص خلاص، والواد خدرك وعمل اللي عاوزه. ثانيا: كان لازم أسيبك تتقمي بنفسك وكنت واثق إنك هتمسكي عليه أكتر من اللي مسكه عليكي وحصل. وثالثا: مكنتش عاوز الموضوع يتطور فيتعامل معاك بشكل عنيف زي ما حصل مع غيرك. ورابعا كل ده معتاد في شغلنا. المهم متنكسرش". وحكى لي أن "يوسف حسين" انعزل تماما بعد خروجه من الخدمة، وأدمن الخمر، فلم يعد يفارق البار إلا فاقدا للوعي. وأخبرني "حسن باشا رفعت" أنه على استعداد تام لتقديم استشاراته للمسئولين الجدد دون أي مقابل، وأنني يُمكن أن أبلغهم رسالته.

ظهر "ماجد شهدي" مرة ثانية عارضا الزواج بي، وقال لي إنه قطع دراسته بإنجلترا إيمانا بأن مصر على أعتاب عهد جديد، يمكن للطامحين المجتهدين أن يحققوا فيه ما أرادوا. رددت على عرضه بأن الصداقة التي تربطنا معا أسمى من زواج قد يؤثر على طموحات كلينا في الصحافة والطب، واقتنع راضيا بأن يعود للكتابة في مجلتي بشكل منتظم عن الطب والعالم ومستقبل البلد المتحرر في ظل الحركة المباركة.

زارني حنين غريب للماضي الموجع، وخربشت ذكريات الطفولة برأسي المتقد، فقررت إلقاء نظرة على صفحات الحياة الماضية لبرهة. رتبت بصحبة سكرتيري "مرقص أفندي" زيارة إلى مسقط رأسي بحثا عن مزارع بسيط في سنديون اسمه "سعيد بكر"، متسائلة إن كان هذا السعيد ما زال بائسا كما عهدته؟ وهل

هو يذكر كيف كانت لديه بنت شقية تاهت ذات يوم عاصف فلم ينقب الأرض بحثا عنها؟ وصلت إلى البلدة باعتباري سيدة مُحسنة تبرهن على تعاطفها مع نداء الحركة المباركة لإغاثة البسطاء في القرى البائسة بتقديمها هبات إنسانية عاجلة. وقفت مزهوة، وجِلة أمام تلال الأجولة المكدسة لمساعدة الناس، وإلى جواري "مرقص أفندي" أستقبل صفوف المعدمين لأمنح كل منهم بطانية صوف، وقطعة قماش، ورطلين من اللحم. قلبت ذاكرتي وجوه الناس متذكرة بعضهم، ومنكرة آخرين حتى رأيت "محمد خالد"، ذلك الشقيق الملتصق بجلباب أبيه الذي لا يُنسى، لأنه لم يُر بغيره. لاح كوالدي بخوله، وانكساره، وبؤسه المُقيم في ملامح منكسرة، ووجه مُطأطئ، وكأنه منزرع بالأرض. حدقت فيه بذهول، فارتعشت كفه، متمتما بدعوات متقطعة لا يُفهم منها سوى "ربي يبارك.. ربي يبارك". سألته دون العابرين عن اسمه، فقال بصوت واهن: "محمد خالد سعيد بكر". كررت بفضول: "عندك ولاد؟"، فقال ووجهه لم يغادر الأرض: "عندي خمسة". واصلت الاستجواب قائلة: "ووالدتك معاك؟"، فرد سريعا: "الله يرحمها"، فأضفت: "طيب ووالدك"، فرد بنبرة أسرع: "الله يرحمه". وددت أن أسأله عن شقيقتيه "زينات" و"سعدات"، وعني أنا "سناء"، ربما يعرفني، لكنه كان متعجلا الإمساك بالبطانية وأخذ الصدقة والمرور، لإفساح الطريق لباقي الفقراء من خلفه. انعصر قلبي، فلم يعرفني أخي الصاحب، الذي لم يكن يفارقني لعبا وجدا، وبكيت وسامته وشقاوته، وانفراط شبابه رغم

عدم مفارقته العقد الثالث. سألت ذاتي: كيف ماتت أمي سريعا؟ هل أسرع ملاك الموت إليها ليُنجيها من شقاء البرد القارس، والجوع الفاتك، والحرمان الكبير؟ ومَن سبق من في رحلة الخلاص: هي أم أبي؟

قصاصة:

"نما إلى علم القيادة من مصادر مختلفة، أن الأستاذين مصطفى وعلي أمين على اتصال بأفراد يهدفون إلى هدم حركتنا المباركة، فلم يسعنا في هذه الظروف العصيبة التي تجتازها البلاد، سوى اعتقالهما وقد تم ذلك اليوم، وغني عن البيان أن أمر اعتقالهما كفردين تحوم حولهما الشكوك، ليس له علاقة بأسرة الصحافة وسوف يطلق سراحهما فورا بمجرد عودة الأمور إلى مجراها الطبيعي".

توقيع لواء أ.ح محمد نجيب القائد العام

الجمعة 52 يوليو 2591

***

(22)

الأحد 1 يوليو 2001

تغيرت الأوضاع أسرع مما توقع الجميع. خفت حديث الصحف عن الحريات، وتبدل اسم الحركة إلى الثورة، وتوارى بعض الكتاب اللامعين دون سبب محدد، واختفى الساسة الكبار كأن الأرض ابتلعتهم، وازدانت المقاهي والمحلات الكبرى بصور اللواء نجيب، وإلى جواره جمال عبد الناصر. طالت المحاكمات كل أصحاب الصيت ممن مارسوا السياسة سابقا، وانبرت الصحف

تتلو فضائح النظام البائد، وكتب "مصطفى أمين" حكايات مخزية عن "الملك فاروق" معرضا بضعفه الجنسي، ويده الطويلة التي كانت تمتد لسرقة كل شيء لدى الغير. انطفأ حزب الأغلبية كومضة عابرة لم تسطع عقودا، فلم نسمع منه أي صوت لاعتراض أو تعليق على انتهاك لحريات أو قمع لتيار، وسكنت الحركة داخل مقار الأحزاب تماما حتى أعدمت الأحزاب رسميا في مطلع عام 1953 فلم يشيعها أحد برثاء.

أتاني المُدير الجديد، "نور سالم"، الشاب الأنيق الهادئ، حاملا بين أصابعه غليونا وكأنه يقلد قائده الأعلى. قدم لي البشائر بابتسامة رضا مؤكدا أن العهد القادم مختلف في كل شيء، وأن هناك فرصة مواتية للترقي بشرط إثبات الولاء التام، وتوسيع أعمال التجسس. أخرج "نور" من جيبه ورقة مكرمشة، فردها أمامي، وقال لي وهو يرمقني بنظرة آمرة: *"عارفة الأسماء دي؟ عاوزين أي حاجة تعرفوها عن أي حد فيهم. أي فصة، موقف، فضيحة، سر. كل شيء مهم"*. ضمت قائمة الأسماء أكثر من مئة شخص مدونة بترتيب أفقي أتذكر منهم الآن: كريم ثابت، محمود أبو الفتح، فؤاد سراج الدين، زينب الوكيل، محمد صلاح الدين باشا، عبد الفتاح حسن، إبراهيم فرج، أحمد حسين، عزيز المصري، ومصطفى كمال صدقي. دققت النظر وهززت رأسي بالموافقة، فقال الضابط الشاب، وهو ينفث الدخان بحركة عصبية: *"طبعا إنت عارفة إننا لسه ف سنة أولى. بس اللي هيبقى معانا من الأول هيطلع معانا، واللي هيلعب، هننسفه. مفيش هزار"*. ابتسمت

بكل ثقة وقلت بنبرة حاولت أن توحي بالإخلاص: *"إحنا نفدي البلد بأرواحنا ونفدي الثورة بكل شيء"*. وبعبارة تالية نطق بها الصاغ أدركت على الفور موضع الثقل بين جميع الوجوه التي تمر أمامنا، إذ قال لي: *"إن البكباشي جمال يتوقع ثورات مضادة من الرجعيين في كل مكان، ولا بد أن يحتاط لهم"*.

جمعت نسائي، وحاضرتهن مطالبة كل واحدة بالتذكر أو حتى التخيل. أخبرتهن بأننا نريد حكايات منسوبة لأي أشخاص ولو كانت شائعات لنكتبها إلى السادة الثوار. رتبت ملفات بما سردته النساء، وأرسلته في مظروف مغلق إلى حضرة الصاغ.

اهتممت أكثر بالمجلة، وحرصت أن تبالغ في تعظيم ما ينتظره الناس من الحركة المباركة. بشرت الفقراء والمنسيين في النجوع والكفور، وتوعدت كل فاسد، وكتبت أن مصر الجديدة ولدت لتقود وتسود. كتبنا عن الحركات الصاعدة في العالم العربي، وفتحنا مجالا واسعا للمجلة مع المملكة السعودية، والمملكة الأردنية، والعراق، وسوريا، واستكتبت مسئولين تابعين لمكاتب هذه البلاد في القاهرة، حتى صارت لدينا شبكة موسعة من المصادر، تمكنت سريعا من إعداد تقارير وافية رفعت أسهم ضابط الاتصال، الذي سارع وبشرني بقبول إعادة "حسن باشا رفعت" إلى عمله كمستشار للأمن السياسي. أثنى الصاغ على أستاذي، وأكد أن ما نفع "حسن رفعت" بالفعل هو أنه خرج من الخدمة قبيل اغتيال الشيخ حسن البنا، وهو ما يعني إمكانية

الاستعانة به دون إثارة غضب الإخوان المسلمين. قُلت للرجل وكلي صدق بأن الإخوان جماعة انتهازية تُهادن الثورة لحين خلو الساحة السياسية ثم ستنقلب عليها، فأجابني بعد صمت طويل قائلا: *"تقدري تقولي الثورة بتهادن الإخوان لحد ما الساحة تفضى خالص، وبعدها هيا اللي هتستفرد بها"*. وكما أفهمني فإن كل افتراض قابل للحدوث لصالح فئة، فإنه بالضرورة قابل للحدوث لصالح الفئة المناوئة. وفاجأني الرجل بحنكته عندما قال لي: *"لقد درست هذا الكلام. الأمن الآن صار علما يدرس"*، وعندما أبديت دهشتي شرح مفصلا: *"مش انا باقولك في إدارات جديدة بتتبني، بس بتتبني صح"*. سألته بسذاجة مصطنعة: *"يعني الجيش مش هيرجع تاني زي كان؟"*، فرد على الفور وفوق شفتيه ابتسامة سخرية قائلا: *"أنت بتسألي بجد ولا بتهرجي؟"*، قلت: *"بجد"*، فقال: *"هو في حد في مصر بيرجع لورا؟"*. ثم قال بنبرة ثقة: *"اسمعي يا سناء.. إنتي معانا عشان مفيش حد تاني غيرنا، ومش هيبقى فيه. إحنا الزمن الجاي. مش بعشرين سنة بس لميت سنة جاية"*.

ذهبت إلى الباشا مُبشرة فقبّل يدي. وقفت مزهوة كأني أميرة من سلالة أسرة محمد علي. هتفت بأستاذي: *'هترجع الشغل"*، فانفرجت أساريره، وانتصبت قامته كفارس همام استرد نياشينه بعد طول استرخاء. قال لي حسن باشا: *"إنتي أجمل تلميذة في تاريخي المهني. إنتي أغلى عندي من أولادي"*. سألته وأنا في لحظة تدلل: *"هل يشرفك يا باشا أن تعتبرني ابنتك؟"*، رد على الفور: *"طبعا"*. ثم ترنم فرحا وقال: *"يشرفني ويشرفني*

ويشرفني". ثم أضاف قائلا: "سيبك من مُدعي الشرف وحماة الفضيلة من الباشاوات أصحاب الكروش، وسيبك من الأدباتية بتوعك اللي يعرفوا يدصوا الكلام. انا كنت شايف كل حاجة ف البلد دي ومطلع على عوراتها، وأقدر أقولك إن كلهم منافقين وكدابين"، وعاد "حسن باشا" إلى فرحته بالعودة للشغل، وبجليل صنيعي، فقال: "إنتي عندك وفاء ونبل وإخلاص مش عند أرفع الرتب". ثم قبّل جبيني، وانهمرت من عينيه دمعة امتنان نادرة.

طلبت من "حسن باشا" أن يصحبني لأرى "يوسف حسين" بقصد الشماتة، فتهلل وجهه قائلا: "بس كده.. غالي والطلب رخيص"، وذهبنا ذات ليلة إلى بار فقير في شارع كلوت بك لنجلس على طاولة قديمة، متشققة الأرجل، وكراسي مُتهالكة، ننتظر وصول ضحيتنا لنتمدد فرحا لحظة أن دلف إلى البار. رآنا كوت مباغت، فتجمدت ملامحه، ولف مُغادرا، لكنه توقف عندما هتف الباشا باسمه، فاستدار، وأطاع إشارة أصابعه ليأتي، ثم يجلس أمامي في صمت مطبق. منحني ابتسامة بلهاء، قبل أن يدلق كوب البيرة المصبوب أمامه في جوفه. قال الباشا بلهجة صلف: "وحشتنا يا أفندي. قلنا نسأل عنك". وأضاف قائلا: "سناء هانم، بذات نفسها قالت تعمل بأصلها واترجتني عشان تشوفك لو لا زمك اي حاجة". ضغطت على البرنيطة التي استحوذت على رأسي، وكأني أتخفى عن أعين الناس، قبل أن أنظر إليه نظرة استهانة، وأقول: "يا يوسف أفندي لو تلزمك حاجة قولي. ولو عاوز شغل ممكن تشتغل عندي في

المجلة.. أنا محتاجة...". قاطعتني شهقته. رفع إصبعه الأوسط محتجا، وهب مُزمجرا، لكن قبضة "حسن باشا" امتدت إلى ياقة قميصه المتعرق، فرفعته رفعا من الأرض، وأعادته مكانه. بدت هيئته المزرية، من ثياب مُتسخة وذقن نابت وشعر منكوش، وهزال عام دليلا أكيدا على هزيمته المسبقة في أي معركة محتملة قبل أن يخوضها. صرخ بصوت متقطع وكأنه يمتلك البار: *"اطلعوا بره. بره".* صفعه الباشا على وجهه صفعة خفيفة، ثم أعقبها بواحدة أشد، فهدأ رويدا وارتمى على الكرسي، ووجهه محني نحو المائدة يبكي بمرارة. قُلت له بعد لحيظة شفقة زارتني على حين غرة: *"أنا غرضي اساعدك بجد يا يوسف".* أخرجت حفنة جنيهات ووضعتها أمامه وكررت: *"أنت عارف مكان المجلة. لو عوزت حاجة كلمني".* وأشرت للباشا لنغادر معا. كانت هذه هي آخر مرة أرى فيها وجه الضابط الذي أدخلني سراديب العمل المباحثي، وبعد عشرة أيام قرأت في صحيفة "الأخبار" نبأ انتحار ضابط البوليس السياسي سيئ السمعة "يوسف حسين"، حيث وجدت جثته طافية على ضفاف النيل بالقرب من إحدى عوامات إمبابة.

لم أشعر بأي حزن على نهايته، ولم أبكه مثلما بكيت الشاعر "إبراهيم ناجي" الذي أصابته ذبحة صدرية في الأسبوع ذاته. كان بكائي على الشاعر تأثرا ببكاء "مليحة" التي دخلت في حداد حقيقي، لم يُخفف منه تخصيصي عددا كاملا من مجلتي عن الشاعر العظيم. وسألت صديقتي مُندهشة إن كانت قد أحبت الشاعر الطبيب الذي يكبرها بثلاثة عقود، فأجابتني باستنكار:"

ولم لا وهو المثال النموذجي للرجل الحقيقي؟"، وشعرت وقتها بأن مسا من الجنون أصاب الأدبية الفاتنة.

قصاصة:

في منتصف الساعة الحادية عشرة من مساء أمس اتضحت الأمور واتخذت القرارات التي تكفل للبلاد الاستقرار خلال فترة الانتقال. أعلنت الجمهورية وأصبح الزعيم نجيب رئيسا لها، وانتهى حكم أسرة محمد علي وتم التعديل الوزاري. وبادرت وزارة الخارجية بإبلاغ سفاراتها ومفوضيها في جميع أنحاء العالم بالأوضاع الجديدة في البلاد لإبلاغها لجميع الدول. وفيما يلي تفصيلات الأنباء: في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف من مساء أمس غادر الصاغ صلاح سالم مكان اجتماع مجلس قيادة الثورة وقابل الصحفيين وأفضى إليهم بالبيانات التالية.. اقتضت الضرورة الاعتراف بالحقيقة الواقعة، وعليه فقد صار وضع النظام الكامل للحكم في مرحلة الانتقال لكي تستقر الأمور في البلاد. وسيعلن الآن إلغاء النظام الملكي في البلاد وخلع الملك أحمد فؤاد الثاني وإلغاء حكم أسرة محمد علي وإعلان الجمهورية وتولى الزعيم حامي حمى الثورة نجيب رئاسة الجمهورية على أن يحتفظ بجميع سلطاته الحالية أثناء مرحلة الانتقال أي أنه سيظل إلى جانب رئاسته للجمهورية توليه رئاسة الوزراء ورئيسا لمجلس قيادة الثورة. أما الكلمة الأخيرة في نظام أو شكل الحكم الجمهوري فستترك للشعب يقرره عند استفتائه على الدستور الجديد والحياة النيابية في البلاد وسيكون

للشعب الحق في تقرير الجمهورية الرياسية أو الجمهورية البرلمانية. وأوضح أن الوضع الآن بالنسبة لتولي الرئيس نجيب رئاسة الجمهورية هو وضع طبيعي لأنه قائد الثورة وحاميها.

جريدة المصري. الجمعة 19 يونيه 1953

(23)

الثلاثاء 3 يوليو 2001

صدق حدسي، فوظف الالتقاط المسئول عن إعادة الأمانة تحرك، وقارب الوصول إلى غايته. في عيادة الدكتور المبتسم دائما عرفت كل شيء، وبهدوء كما لو كان يُلقي عليّ تحية الصباح. كان طبيب المسالك الذي آنست بزيارته لسنوات طويلة قد نصحني قبل أيام باستشارة طبيب جراحة متخصص، عندما لاحظ وجود تكور صغير أسفل البطن. سألته بشجاعة مَن لا يهاب شيئا إن كان يشك بوجود ورم، فهز رأسه بالإيجاب محاولا تخفيف الصدمة بقوله: "*محتمل*". أما أستاذ الجراحة، كبير السن، المبتسم كزهرة تفتحت قبل الربيع، فقالها في وجهي كَمَن يقذف بزجاجة مولوتوف بأنه لا يُفضل التدخل الجراحي في حالتي. كُنت واضحة للغاية عندما سألته: "*هل هناك طريق للعلاج؟*"، فهز رأسه بالمقولة المعتادة: "*الأمل دايما ف ربنا. لكن الورم شكله كده في المرحلة الثالثة*". سألته بجلد: "*لو مكاني نعمل إيه؟*". فرد بكلمة واحدة كررها مرتين: "*مورفين*". ويبدو أنه شعر بالتسرع، فعاد محاولا فتح نافذة أمل يُدرك يقينا أنها موصدة، فقال: "*يعني ف حالات*

بسيطة ممكن تستجيب للكيماوي.. و..."، لكنني قاطعته بحسم قائلة: "لا مش هاخد كيماوي".

تذكرت معارف كُثرا حولي استطعم العلاج الكيماوي خلاياهم خلية خلية، ومرت أمام ذاكرتي أسماء عزيزة، قبل أن أفيق على نهنهة صامتة من "حُسن" التي بللت خديها بدموع مُخزنة عبرت عن حنان خالص. قلت لها مهونة: "كان نفسي أوصل لنادية. تخيلي كان عندي أمل أشوفها". وضعتني في كُرسيّ المتحرك، وسرنا معا حتى مصعد عمارة استراند حيث تنزوي العيادة، لننطلق في صخب وسط العاصمة عابرين نحو شارع محمد فريد. قُلت وأنا أشعر بألفة حقيقية مع رفيقة الأيام الصعبة: "أنا ملحقتش أشوف نادية وهي بتتكلم، بس عينيها كانت بتتكلم. وشها علطول كان بيضحك، وكنت خايفة عليها أوي. يمكن يا حُسن مكتوب لي أشوفها في عالم تاني". تلألأت أضواء المحلات، وكأنها تضحك لنا أو علينا، لكنني واصلت حديثي مع "حُسن" قائلة: "عارفة يا حُسن أنت مش هتصدقيني لو قلت لك إني فرحت جدا أن أبو نادية خدها وهرب بيها. طبعا فراقها صعب عليّ، لكن اللي عمله بسطني جدا. تصوري لو كانت كبرت معايا وأنا محجورة من رقبتي زي ما كنت، أكيد كانت هتكرهني". تأوهت من سقطة عجلة الكرسي في حفرة صغيرة، واعتذرت "حسن" بأدب لم أعهده فيها قائلة: "لا مؤاخذة يا ست". أكملت مُناجاتي للبنت السمراء فقلت: "عارفة يا بت أجمل ما ف الموت إيه؟ إننا بنشوف كل شيء على حقيقته. بعدين هي الناس

خايفة لية من الموت. مفيش أكرم من ربنا. مهما عملتي متخافيش منه".

"إنت قلبك كبير يا ست". قالتها مُجاملة، فرددت: "لأ سيبك م الكلام ده. أنا بجد باحس إننا ولاد ربنا. ممكن نغلط. نتشاق. نخرج عن الطاعة ساعات، نهبل ونعك وننسى نفسنا. لكن ف الآخر راجعين راجعين.. وهو بيغفر أي شيء، وكل شيء".

تذكرت بعض كتاباتي فقلت لها: "عارفة ف واحد زمان سُكري وفلتان كان بيموت لاقوه بيضحك. قالوا له أنت عارف إيه اللي هيحصلك؟ قالهم إيه؟ قالوا له هتموت. قال لهم هاروح لمين؟ قالوا له هتروح لربنا. قالهم: والله ما شفت أكرم منه".

كُنت أحكي وأثرثر، وعينا الفتاة خلفي تعصران الدموع عصرا، ربما سقطت إحداها على قفاي ونحن نسير، لكنها لم تنطق وفتحت لي أبواب البوح دون تململ لأفرغ ما في نفسي من حكايات ترغب في التحرر. فضفضت كما لم أفعل من قبل، فسكنت أوجاعي، وخفتت همومي، وشعرت بصفاء لا مثيل له، وقررت الكتابة ركضا. الكتابة هي الحل.. أن نهرب إلى الماضي، بانتصاراته وأوجاعه، ونُملي أذهاننا برؤية وجوه أحببناها وكرهناها، لكنها غابت وتلاشت فاستشعرنا الوحشة ولمسنا حركة الزمن. الحياة كئيبة بدون أعداء، ولا طعم لمجد يتحقق دون معارك قاسية.

عُدت لأنفرد بأوراقي. دلفت إلى عام الحسم بمقالات زاعقة وتأييد مُطلق لهؤلاء الشبان الشجعان الذين قلبوا

الخريطة. في الاختيار بين الديكتاتورية والديمقراطية كُنت أعرف موقعي يقينا، مثلما كنت أعرف الكفة الرابحة مُسبقا، ولم يكن غريبا أن أجد جمهور المثقفين إلى جواري يُدرك ما أدركه ويقف حيث أقف.

اشتم الناس بوادر حرية مع إعلان مجلس قيادة الثورة عودة الأحزاب، ومناقشة مشروع دستور جديد، وتخي جمال عبد الناصر عن رئاسة الوزراء، لكن لم تطل الآمال بضعة أيام حتى انقلب البلد رأسا على عقب. خرجت المظاهرات في شوارع القاهرة تلعن الديمقراطية وترفض الحريات، وكتب "مصطفى أمين"، و"جلال الدين الحمامصي"، و"أنور السادات"، و"كامل الشناوي"، عن البطل العظيم جمال عبد الناصر، الذي يمثل معجزة في كل شيء، وشاعت النكت عن محمد نجيب، ومنع رجال السياسة السابقين من مغادرة منازلهم، وتوالت الاعتقالات حتى أنها طالت أناسا كانوا يعتقدون أنهم أصدقاء للثائر الشاب الذي يقود الثورة.

تمخض الصراع عن بطل شعبي تهتف الجماهير باسمه، وتبارى الأذكياء والنابهون لينالوا رضاه، حتى أن "أحمد عبود باشا"، ذلك البنك المُتحرك، الموصوف بأذكى من يسير على قدمين ذهب إليه مُعضدا ومساندا، ثم صرح للصحف بعدها بأن مصر لم تشهد نظيرا لجمال عبد الناصر، وأتبع ذلك بإعلانه عن التبرع بخمسمائة جنيه لأسبوع الأمل. ولم يكن هذا الذكي الراشد يعرف أن حائز السلطة الصاعد لا ينتظر الخمسمائة جنيه، وإنما ينتظر كل ما جناه طوال عمره باعتباره نتاج عصر

فاسد. ولم تمر شهور قليلة على اللقاء حتى فرَّ "عبود" ببعض ما يملك خارج البلاد، ومات غريبا دون أن يُمكن السلطة من ثروته.

في سنة 1956 حاربت مصر جيوش ثلاث دول وانتصرت سياسيا، وارتفعت صور القائد الشجاع جمال عبد الناصر في الأقطار العربية كافة كنبي جديد، وصنعت التماثيل له، وأطلق الناس اسمه على مواليدهم اقتفاء وولهًا.

في الوقت ذاته، تطور العمل واتسعت قوائم الشخصيات المطلوب جمع معلومات حولها، وأخبرني "نور سالم" بأن هناك ميزانية كبيرة مرصودة للعمل السري، وأن الثورة تُقدر ما تقدمه مجموعتي، وسيتم تخصيص مكافآت مُجزية نظير الخدمات المقدمة. كما نبهني الرجل بأن "مصطفى أمين" يُقدم هو الآخر ملفات معلوماتية لكنها أضخم، وأكثر تنوعا، وإن كانت لا تحظى بالثقة التامة من القيادات، الذين لم أعرفهم حتى ذلك الوقت. واستمرت علاقتي بـ"حسن باشا رفعت" قائمة وظل يزورني على فترات متباعدة ليتباهى أمامي باستشاراته الصائبة التي كان يقدمها للتعامل مع الإخوان والرجعيين. ولاحظت تغيرا شكليا في طبيعة رسول العمل السري عندما كنت أحدثه في أحد الأيام بكلمة: "حضرة الصاغ" فراجعني قائلا: "*من هنا ورايح اسمي السيد نور سالم*"، ثم فسّر لي الأمر بأن العمل الذي يعمل به لا توجد فيه رُتب.

اثتمنت "مُرقص أفندي" على سر وحيد، وهو أن يُرسل

ثلاثة جنيهات كل شهر لشقيقي محمد خالد كإعانة من مجهول، ثم تطور الأمر فطلبت أن يفعل الأمر ذاته مع شقيقتي "زينات" و"سعدات"، وكما توقعت من الموظف الصامت المخلص، فلم يسألني عن السبب أو يستقصي عن أي تفاصيل أخرى. كان يُدرك مُنذ عمل معي أنني أعمل مع جهات نافذة وذات سيادة وأنه ليس مهما أن يعرف أي شيء خلاف ما يُطلب منه.

مرت الأيام كقطار مسرع يفوّت بعض محطاته التقليدية، وعادت المكافآت السخية لسابق عهدها، واتسع نفوذ مجلتي وصار لها مراسلون في دمشق، بغداد، بيروت، والخرطوم. نُشرت لي عدة قصص وقدمت للمكتبة العربية أول كتاب عن النساء العظيمات في تاريخ الشرق، في الوقت الذي اتفقت فيه مع إحدى شركات الإنتاج السينمائي على إنتاج فيلم سينمائي عن شجر الدر مأخوذا من أحد كُتبي. توالت تقاريري، ونجحت في تجنيد أحد الخدم بمنزل "مصطفى أمين" لأتعرف منه على بعض ما يدور في صالونه المنعقد كل ثلاثاء ببيته بالزمالك وأدونه في تقرير رسمي يقدم إلى الإدارة. كان الصحفي المستعلي بعلاقاته، والمتملق الأعظم للزعيم يسخر من سطحيته وسذاجته في جلساته الخاصة، وفي يوم ما قال لـ"أم كلثوم "عنه: *"هذا رجل بلا قلب، لأن أمه ماتت قبل أن يعرفها، فلم ير حنانا"*. وكُنت أندهش بشدة من سحر كلماته المدونة بمقالاته عن الزعيم وكأنه يراه نبيا مرسلا، لكنني كنت أعرف يقينا أن الإدارة تضع ألف خط وخط تحت اسمه، وأن الزعيم نفسه ليس لديه ثقة فيه.

فاجأني "السيد نور سالم" يوما بزيارة صباحية مبكرة أخبرني فيها بأن "السيد سمير بك"، الذي وصفه بأقوى رجل في البلد يُريد أن يراني. عرفت وقتها أن جمال عبد الناصر، ذلك الزعيم الكبير الذي تغنى المدائح بعظمته وقوته تدور حوله عدة تروس مساعدة بعضها لا يبين. استحضرت مكر الأنثى وتجهزت كفاتنة بأبهى الزينة وأطيب العطور، لتقلني سيارة "نور" إلى فيلا كبيرة بالقرب من الأهرامات، كان أبرز ما يميزها أنها منقطعة عن الناس، وصامتة كقبر مهجور. دلفنا معا إلى بهو فسيح، قادنا سيد إلى سيد آخر عبر ممرات طويلة انتهت بغرفة مكتب ضخم مزدحم بالتحف والتماثيل واللوحات الساحرة ومجلدات الكتب الكبيرة. كان الرجل يجلس إلى مكتبه، في مهابة تامة، عيناه فنجانا يقظة، وشاربه الكث مظلة جلد، بينما كانت أصابعه تتحرك في تمثيل متقن كيوسف بك وهبي على خشبة المسرح. نظرت إليه فارتعبت، ثم نظرت مرة أخرى فشعرت بجاذبية وسحر غريبين، وكأنني أعرفه منذ سنوات. بدا وجهه مُضيئا كنهار، خاليا من الندبات، نقيا كولي من أولياء الله. وقف الرجل نصف وقفة، ليلتقط كفي مُقبلا، ومرحبا، وقائلا: *"أهلا وسهلا يا هانم"*، ثم أتبع كلامه بإشارة من يده إلى "نور" مُتمما: *"لو سمحت يا نور.. سيبنا لوحدنا"*.

سحرتني شخصيته، وشعرت بألفة حقيقية مع هذا الرجل. ليس كـ"يوسف حسين"، ولا مثل "حسن رفعت"، ولا حتى "نور" في بروده ورسميته، وبالقطع لم

يشبه أحدا من الكبار ممن عرفت والتقيت. بدا دقيقا جدا في استعمال كل كلمة لتوصيف أمر ما أو الإشارة إلى شخص بعينه. كانت كلمة "هانم" تتردد على لسانه مرارا بآلية متعمدة وكأنه يؤكد بجلاء احترامه الكامل لما أقوم به من عمل. *"إنت عاملة شُغل هايل"* كررها كثيرا بابتسامة مشجعة وصوت مميز.

بانت ملامح وجهه جامدة وغامضة، فلم أتمكن أن أعرف إن كانت ابتسامته تنم عن فرح أم هم يحاول إخفاءه. أخبرني بوضوح أن كل همسة في هذا البلد تصله، وكما ذكر هو بتعبيره "صرنا حاضرين في كل بيت". وحكى لي بعض ما أعرفه عن "مليحة" و"تيتي شيري" و"وداد" و"فريال" و"حسن رفعت" كما حكى بعض ما لا أعرفه عن "مصطفى أمين"، و"كامل الشناوي"، و"إحسان عبد القدوس" و"هيكل". قال لي بوضوح: *"إن الثورة انتصرت تماما، وصارت لمصر كلمة مسموعة في الأقطار العربية كافة، لكن ذلك لا يعني أن نحيد عن العمل، وإنما نضاعف مجهوداتنا لأن الأعداء سيسعون بكل طاقة لتغيير الوضع"*.

أخبرني الرجل القوي بأن ما عملته في السنوات الماضية جيد ومشكور، لكنه ليس كافيا لذا، فإن العمل سيختلف تماما فيما هو لاحق: *"سيكون النشاط اكبر ومعدل الخطر أعلى كثيرا، لكن المكافآت ستكون فوق الخيال"*. بشرني الرجل بأن أصبح الأديبة الأولى في مصر، والعالم العربي. قلت له شاكية: *"إن المجتمع الأدبي المحافظ يهلل لعائشة عبد الرحمن ويرفعها فوق*

جميع النساء، والمجتمع الصحفي يحتفي بـ درية شفيق، ويصفها مصطفى أمين بالمبدعة العظيم و...". قاطعني "السيد سمير" بإشارة من يده قائلا: "اسمعي اللي بأقولك عليه. إحنا بنرفع اللي عاوزين نرفعه. وبنمحي اللي عاوزين نمحيه". أشعل سيجارته بعد أن قدم لي واحدة بأدب يليق بدبلوماسي أوروبي، وقال لي: "اسمعي.. لا عائشة ولا درية شفيق ولا أي حد هيبقى زيك. مفيش حد منهم شاف الراجل. أنت بس هتطلعي متصورة معاه، وهتلاقي كل الناس بتتكلم عنك". رقص الدم في أوردتي، ولم أصدق، فزادني فرحا بقوله: "وكمان كتابك الجاي، هيكتب مقدمته الرئيس جمال عبد الناصر بذات نفسه". ثم أضاف أيضا: "وهيبقى منك ليا علطول. تجيبي ف أي وقت من غير ميعاد، ومن غير وسيط، وتكلميني ف أي وقت على الرقم ده".

كانت مكافأة مجزية، جعلتني أتقبل دون كلمة مهمة الإيقاع بشاب لاجئ ينتمي لثوار الجزائر، ويقيم بالقاهرة ليتم تصويره صورا مُشينة مع "فريال" التي التقطته من بار ليلي يتناول فيه مشروبا على حساب المتبرعين لتحرير بلده. أعجبت الصور "السيد سمير" الذي علق قائلا: "عارفة يا سناء الرئيس سوكارنو.. صوروه في روسيا مع نسوان كتير. ولما فرجوه على الصور قال لهم: دي حاجة حلوة أوي. وشعبي هينبسط بيا خالص". ثم قهقه معلقا: "في ناس كده ملهاش أي ماسكة".

وفي مهمة أخرى، دعوت ثريا عربيا يكتب الشعر لسهرة ثقافية في بيتي، لأشبكه مع "مليحة" ويُدنسا

فراشي معا لعدة مرات. وتوالت المهمات لتجنيد آخرين: فلسطينيين، شوام، جزائريين، سودانيين، ومصريين من الشيوعيين، والوفديين، والإخوان، بعضهم موظفون كبار، وبعضهم صحفيون، وبعضهم لا عمل لهم. صار البيت مفتوحا لكل رذيلة ومجهزا أمام "مليحة" و"تيتي شيري" وغيرهما لاستقبال أي فرائس محددين لتصويرهم ثم السيطرة عليهم. وكما قال أمامي "السيد سمير" يوما لي مشيدا: *"لقد صار لدينا ملف لكل شخص مهم"*.

أعلنت وزارة الإرشاد عن مسابقة أدبية لأفضل كتاب، وأفضل قصة، وأفضل مسرحية، وأفضل ديوان شعر، وأفضل سيرة وتقدمت في المجالات الخمسة، وفزت بثلاث جوائز دفعة واحدة، وهو ما أثار جدلا في الأوساط الأدبية قاطبة، وعلمت من جاسوسي المزروع ببيت "مصطفى أمين" بأنه خصص سهرة كاملة للسخرية من الحدث مكررا بأن: *"سناء بكاش لا تعرف ان تكتب اسمها حتى تكتب كتبا وقصصا"*. وقال أيضا: *"اللي بيشغولها زودوها حبتين"*، وأنبأت رئيسي بالعمل، لكنه لم يعلق. وفوجئت بعد عدة أيام بمقال نشر في جريدة الأخبار لكاتب شاب اسمه "ألفريد فرج" يتندر فيه على فوز كاتبة واحدة بعدة جوائز في سابقة غريبة من الدولة التي من المفترض بحسب رأيه أن تشجع أكبر عدد من الأدباء الشباب. ولم أرد، مقتنعة بما قاله لي رئيسي: *"بأن الناس تنسى ما تنشره الصحافة في اليوم التالي"*.

واستثمرت الصعود الأدبي الكبير في توسيع حركة

الإعلانات بالمجلة لتدر عائدا ضخما، ثم كتبت كتابا عن الرئيس جمال عبد الناصر، ونضاله في سبيل الحرية، طُبعت منه مئة ألف نُسخة، ووزعت كهدايا في شوارع بيروت، وعمّان، وغزة، والقدس، ودول الخليج. وسريعا صعدت أسهمي بصورة كبيرة، فسافرت شرقا وغربا، ابتعت أغلى الثياب والحلي، وأقمت بأفخم الفنادق. صرت علما كبيرا، وصار كثير من الناس يقصدونني لأداء خدمات عظيمة مثل فك الحراسة، أو السماح بالسفر، أو الإفراج عن قريب، أو الحصول على وظيفة.

وفي المؤسسة خضعت لتدريب عملي متقدم، لم أتصور وجوده، وتنوع التدريب بين كيفية تصوير كل مكان أحل فيه بنظرة عامة تُخزن في الذاكرة الشخوص والألوان والعلامات البارزة، وسبل معرفة علامات الكذب في حديث الناس، والتدريب على الأسئلة المتتالية المتشابهة التي تكشف صدق أو كذب المتحدث. تعلمت أيضا كيفية حفظ كل رقم بعد سماعه لمرة واحدة من خلال تقسيمه لمجموعات ثلاثية. كما تلقيت تدريبا شديد الأهمية في كيفية كبح الألم ووأد الرغبة من خلال طبيب غريب الأطوار هو "مرسي الشيخ". لقد فوجئت وقتها بنظريته الغريبة التي طبقها وحققت نجاحا كبيرا، التي ترى أن كل إنسان قادر على قتل الألم داخله بتركيز عصبي معين، كما أنه يُمكن إحداث آلام بشعة لأشخاص ما دون أن يمسهم أحد من خلال مؤثرات بصرية وصوتية محيطة.

واتسع الاعتماد على خدماتي، وصار معروفا لدى أولي الفهم في الوطن أن مجلتي تخص المؤسسة، وأنها مُحصنة ضد الخسارة أو الغلق. وفي تلك الأيام ولد أول وآخر حب حقيقي في حياتي.

قصاصة:

اليوم في عيد الدستور يقدم مجلس الأمة إلى الرئيس جمال عبد الناصر ميدالية الشعب. الشعب والدستور وعبد الناصر كلمات ثلاث هزت العالم وغيرت ملامح التاريخ. الشعب الذي ألهبت سياط الاستعمار والاحتكار والإقطاع ظهره انتفض واقفا وشنق بالسياط رقاب جلاديه.. تحرر من الاستعمار البريطاني. قاوم غزو بريطانيا وفرنسا في بورسعيد. وأصبحت أرضه له، وصار له كيان مستقل يؤثر في ميدان القوى الدولية.

كامل الشناوي. الجمهورية 16 يناير 1958

قصاصة أخرى:

باسم الشعب ننتخبه، وصوت الشعب من صوت الله. من كان الشعب معه فالنصر له. وباسم الشعب ترفعه سواعدنا إلى مقعد القيادة. الرجل الذي يعتمد على الشعب لن يسقطه الشعب. باسم هؤلاء الملايين في سوريا ومصر الذين فرقهم الاحتلال وجمعهم الاستقلال، الذين فرقتهم الحدود السياسية، وضمتهم القومية العربية، الذين قسمهم الاستعمار إلى دول وممالك وولايات، وهم في الواقع أمة واحدة بأسماء مختلفة. باسم الذين يعيشون في الوديان، ويقيمون فوق

الجبال، والذين يسكنون الأكواخ، والذين يأوون في العراء، البدو في الصحراء والحضر في المدن، الفقراء والأغنياء، الضعفاء والأقوياء.

باسم الذين صرعوا الطغيان في معركته الأخيرة، والذين صرعهم الطغيان في معاركهم الأولى، الذين ماتوا والذين بقوا أحياء، الذين صمدوا للنهاية والذين تخاذلوا أمام جبروت الأقوياء، الذين حاربوا، والذين سقطوا شهداء.

باسمهم جميعا ننتخبه لأنه هو الرجل الذي قاد المعركة الكبرى التي لم يتخلف فيها أحد ولم يفر منها أحد. المعركة التي لم يكن فيها صفوف أولى وصفوف أخيرة، لم يكن فيها أبطال صامدون وجبناء فارون، إنما هي المعركة التي جعلت الشعب كله بطلا صامدا: نساءه ورجاله وشيوخه وشبابه وأطفاله ومرضاه. إنها المعركة التي حولت كل القاعدين إلى واقفين، وكل المتخاذلين إلى شجعان.

مصطفى أمين.. جريدة الأخبار 6 فبراير 1958

***

(24)

الخميس 5 يوليو 2001

أستدعي الماضي بسرعة لأسفح دمه على الورق قربانا للحظة صفاء. بدأت حكاية الحب الوحيدة في حياتي بخطاب من مجهول. لفت نظري لون المظروف الذي ناولني إياه الساعي ضمن عشرات الخطابات الواردة

باسمي إلى المجلة. اندهشت أن أرى مظروفا أزرق اللون بين عشرات المظاريف البيضاء والصفراء، فلم أعتد أن أرى في مصرأظرفا بهذا اللون اللافت. كان اسمي مدونا على الظرف بخط جميل كما لو كان صاحبه خطاطا. تحسست ما بداخل المظروف، فشعرت من تكومه أنه يحتوي أوراقا كثيرة. فضضته لأجد وردة حمراء كبيرة، احتفظت ببعض نضارتها، وحولها فاحت رائحة ياسمين نفاذة أوحت بأن صاحبها صب على الأقل ربع زجاجة من العطر المُركز. فتحت الورقة الأولى فوجدتها خطابا باسمي مكتوبا بخط مُنمق وساحر، وبقلم حبر أزرق. قرأت ما به فذهلت من روعة البيان وجمال الكلمات. قال الراسل: "حبيبتي حبيبتي. *هذا حُب جديد، تُمليه روعة الكتابة لا حُسن المظهر أو الإعجاب المتبادل إثر لقاء. لم أقابلك وجها لوجه، لكنني أحببتك من حروفك المنسوجة في مقالات وقصص وحكايات حوتها المجلة التي صارت هدية أقدمها إلى قلبي كل حين. اقبّل الصفحات التي تحوي كتاباتك، كمجنون وله، اصابه سهم ليلاه فطاف البلدان بحثا عن بقايا رائحة لها. أدرك أن ما أقوله جنون وجنون كبير، لكنني اقسم أنني مُنذ قرأت أول قصة لك، وكانت عن الحب العذري، وأنا مُتيم بك وبكل ما تكتبين وتنشرين، متابع دائم، وسائر نحوك كظمآن تائه في أرض قاحلة يراك ينبوعا للماء العذب البارد. ستقولين في نفسك: مَن هو هذا المُعجب المهووس الذي يكتب لي متصورا أن هناك غراما دون رؤية، وأقول لك إنني تعجبت مثلك. لا أدري ما جرى لي عندما قرأت كتاباتك عن*

السعادة، وشعرت أنه مكتوب لي أنا. الأديب المتأمل للكون، الباحث عن راحة قلب، وصفاء نفس، أتنقل بين حقول الشعر، وبساتين القصص بحثا عن ملهاة في عالم قاسٍ صعب يكذب فيه الكل ضد الكل، ويطعن فيه البعض ضد البعض الآخر. أرى الحياة بئر خطايا، وأتصور أن الحب الحقيقي وحده هو المُنجي. أتخيل أن خلاصنا الوحيد في الحب، وأنا أحبك ولا أدري ما اريده بالضبط، ولكنني مدفوع بقوى خفية لأخبرك بكل جموح وعري روحي بُحبي. أفتح قلبي تماما لأتحرر وأعترف وأقر وأعلن وأجاهر بهذا الفيض الوجداني المُسمى بالحب. ثمة ساحر غامض غريب يختبئ بين ضلوعي يرص عباراتك ويرتب كلماتك، ويدندن باسمك صباحا مساء كما لو كُنت أغنيته الوحيدة. قديس يتصور انك توبته إلى الله، ومقاتل يعتبرك فرصته المثلى لإحراز النصر بعد سلسلة هزائم. أحبك قولا وعملا وبكل صورة تتخيلينها، وعلى أي مذهب يدور بخلدك. توقيع: العاشق ألف.. نون".

ناديت "مليحة" وأعطيتها الخطاب فقرأته بانبهار حقيقي، دفعها للتبسم وقالت: "ده معجب أديب. ياه على روعة الكلام" لكنني غمزت بعيني اليُمنى، وقلت بكل ثقة: "دول أكيد أصحابنا عاملين لي اختبار. مفيش حد بيكتب كده". هزت رأسها مستغربة وقالت: 'جايز.. وجايز لأ"، ثم قالت مُندهشة: "بس هما لو عندهم حد كده.. مش كانوا جابوه لنا ف المجلة".

فتحت الورقة الثانية فوجدت رسما بالقلم الرصاص

لوجه يُشبه وجهي وأسفله عبارة تقول "سأظل أحبك للأبد". وفي الورقة الثالثة وجدت قصيدة طويلة بعنوان "أحبك" تقول كلماتها "أُحبك.. هل تحبيني؟ أحبك يا مُنى عمري/ ويا أحلى دواويني/ غرامك لست انكره/ فحُبك في شراييني/ أنا المأسور في حبك/ فما احلى زنازيني/ أنا المهدي في دربك/ وجدت الحب يهديني/ أحبك يا تراتيلي/ ويا قمرا يناديني/ أحبك يا هطول الخير/ في أمطارِ تشرين/ أحبك قلتها للكل/ رغم الخوف يأويني/ أحبك رغم لجلجتي ورغم حياء تكويني/ أزقزق مثل عصفور/ بأغصانِ البساتينِ/ وأسأل عنك أهل الحب/ في البوسفور والصينِ/ وفي بيروت في حلبٍ/ وفي طوكيو وبرلين/ وفي بغداد في الأقصر/ وفي كل الميادينِ/ وإن ضاقت بي الدنيا/ أرى عينيك تكفيني/ عن العثراتِ تمنعني/ وفي الظلمات تهديني/ احبك أنت قاموسي/ وأشعاري وتلحيني/ أحبك أنت مرآتي/ وبروازي وتكويني/ أحبكِ. صارحيني القول: هل حقا تحبيني؟".

أغمضت "مليحة" عينيها إعجابا وهتفت: "الله"، ثم قالت: "مستحيل الكلام ده يكون مش صادق. دا واحد يحبك بجد. بس دا موضوع غريب أوي. إزاي يحبك وهو ما قابلكيش؟". هززت رأسي قائلة بفرح داخلي حاولت كتمانه: "مش عارفة. غريب فعلا". برقت عينا "مليحتي" وقالت كأنها اكتشفت اكتشافا: "اسمعي يا سناء. انشري القصيدة في المجلة". قلت: "بتوقيع ألف نون". فردت: "آه أكيد هينبسط. ونشوف هيعمل إيه". وكان، وجاء الرد أسرع مما تخيل إذ

وصل ظرف أزرق ثانٍ يحمل اسمي بالخط الجميل المبهر الذي سبق ورأيته على الظرف الأول. فضضته فور رؤيته لأقرأ فيه "حبيبتي: كُنت على يقين أنك ستنشرين قصيدتي، ذلك لأني كتبتها بروحي، ولا يُمكن لروح ان تكذب أو تدعي وهي تُعلن مشاعرها. إنهم يقولون ان أعذب الشعر أكذبه، لكني خلافا لذلك أرى أن اجمل الشعر هو أصدقه، خاصة إن كان هذا الصدق تعبيرا عن المشاعر. إنني لا أدرك يقينا سبب حبي لك دون أن أراك، لكني أؤمن بالقدر وأوقن أنه لا توجد مصادفات في هذا العالم، وكل شيء نفعله لغاية قد لا نعرفها. إن عقلي لم يُصب بلوثة حتى أحبك في الخفاء، او على الورق، فيقيني أننا سنجتمع معا وسنصنع بهجتنا الخالدة. تهي تماما أن اللحظات الحلوة في الحياة قد لا تكون في اقتطاف ثمار السعادة، مثلما تكون في اشتهاء الثمار والسعي إليها. أحبك أحبك أحبك. وهذه قصيدة الف نون الجديدة لك..

أنا هو أنتِ.. وأنتِ أنا/ وحبي كعبك رواه السنا/ غناء البلابل. رنين الأساور/ جميع السواقي تُغني لنا. وقلبي وورقي وشعري الجميل/ ونجم مضيء أراه دنا/ سعيد أنا وأنتِ سعيدة/ سعيد كذلك من حولنا. أحبك لست أحب سواكِ/ فأنت السعادة بعد العنا. أحبك يا وردة من ربيع/ ويا ريح عشقٍ أتت من هُنا/ أحبك أنت قصيدة عمري/ وزهرة حبي وأحلى المنى".

ذُهلت "مليحة"، وقالت عندما لمحت ابتسامتي: "خُدي بالك يا سناء. أحسن يكون حد بيكسرك من غير ما

نحسي. فاكرة لما قلت لي قبل كده. احنا اللي زينا ملهمش حب". قُلت لها وأنا أصعب ابتسامتي: "ولسه عند رأيي. أنا باتسلى بس. بعدين إحنا بنكتب أدب، والكلام الجميل أكيد يعجبنا. لكن أنت عارفة إني أكتر واحدة ف الدنيا قلبها مقفول".

هزت "مليحة" رأسها متفهمة ثم أمسكت الظرف الأزرق وقالت لي: "على فكرة أنت ممكن بسهولة تعرفي مين صاحب الجوابات دي" نظرت على الختم المطبوع على الظرف، ورأيت كلمة مكتب بريد العتبة، فقلت: "صح. هاخلي "مرقص أفندي" يروح هناك يسأل ويطقس ويعرف مين اللي بيبعت الجوابات الزرقا". ناديته وأخبرته بالمهمة السرية التي يمكن إنجازها ببضعة جنيهات يضعها في يد موظف البريد ليعرف سر ذلك العاشق الولهان.

ثم أخذت باقتراح "مليحة" ونشرت القصيدة الثانية، لكنني كتبت تعليقا عليها بأننا ننشرها رغم وجود كسر في الوزن في بعض المواضع حتى نثير كبرياء الشاعر العاشق، فيواصل خطاباته.

سافرت إلى بيروت للحديث في مؤتمر ثقافي حاشد حول كفاحي عن البطل المناضل جمال عبد الناصر، وهالني أن أرى جموعا حاشدة تهتف جميعا باسم أبي الكرامة العربية والكفاح ضد الاستعمار. تذكرت صفتي المحببة التي منحني إياها خصمي اللدود مصطفى أمين يوما ما، وقلت لنفسي معتزة: "ما أجمل أن أكون ابنة للديكتاتور، إن كان هذا نصيبه من حب الناس".

ونسيت العاشق المتخفي إلى حين.

***

(25)

الجمعة 6 يوليو 2001

استيقظت فجأة، شعرت أن أحدا ما بغرفتي. أفقت من ذكريات الصبا لأنادي "حُسن" بصوت خفيض أقرب للهمس. فتحت نصف عين، ورنوت إلى باب الغرفة الموارب، واستجمعت شجاعتي ورفعت رأسي قليلا لأستبين أي حركة غريبة دون إجابة. كان السكون هو سيد المكان والزمان، فاستعدت ما كتبته بالأمس عن ذكريات جميلة دهسها قطار قشاش عمره أربعون عاما. حاولت القيام لكن عظامي خذلتني، فاستطبت أن أكتب في رأسي حتى أفيق، لأدون ما أرغب في تدوينه عن "ألف نون" الذي قلب حياتي.

استدرجني الشغف، فسألت فور عودتي من بيروت "مُرقص أفندي" عما فعله في حكاية الراسل الخفي صاحب الأظرف الزرقاء. فأنبأني الرجل أنه راقب مكتب بريد العتبة لعدة أيام لكن النتيجة كانت صفرا، ثُم قدم لي ثلاثة خطابات جديدة بالأظرف ذاتها. نظرت إلى ختم البريد، فوجدت الأول مرسلا من مكتب بريد شبرا مصر، والثاني من مكتب بريد طنطا، والثالث دون طوابع بريد، ما يفيد أنه سُلم باليد. سألته بوضوح عمّن استلم الخطاب الثالث، فحكى لي بأن صبيا غير معروف مر على البواب، وأعطاه الخطاب ومضى في هدوء. شكرته وجلست مستندة بظهري إلى الخلف،

صارفة السكرتير الأمين بإشارة من يدي، لأقرأ ما خطه المشتاق الساذج الذي يُشبع لديّ هيامي بالأدب، ويُرضي في ذاتي كبرياء الأنثى.

أشعلت سيجارة "كنت" وفضضت الخطاب المرسل من بريد شبرا، فوجدت الوردة الحمراء الزاهية وقد كساها بعض الذبول من طول بقائها داخل الظرف. لمحت البداية السارة "حبيبتي". أغمضت عيني وسحبت نفسا طويلا من سيجارتي وأخذت أقرأ في حبور "ألثمك بحبة مُتيم يشعر أن جنان الأرض انفتحت في وجهك، فنادت طلابها من بني البشر، فاندفعوا أفواجا حالمين بأن يُقبلوا. لا تعجبي إن رأيتك هُدايَ في زمن دنسته خطايا البشر، فأنا لا أبالغ باستعارة لفظية وإنما أؤمن بيقين أنك كذلك. ستقولين أنك إنسانة طبيعية تُصيب وتخطئ، وتُحسن وتسيء، وتطيع وتعصي، وأنني ساذج، وكاذب أكذب على نفسي، وأتوهم أنك على الهدى، وأراك رمزا للبراءة والعفة، وسأقول لك الحقيقة كاملة وهي أنني أعرفك كما لو كنت أنا نفسي. وأعرف ما يوجعك، وما يُهمك، وما يكلك، وما يحيرك، وما يُحزنك رغم كل ما تحاولين إبداءه من سعادة زائفة. إنني مُكلف من قوى خفية بنجدتك وتخليصك من خلال ما زُرع في قلبي من حب استثنائي في عنفوانه وفريد في مغزاه. أراك كل يوم، تُناديني من مركب وحيد تتقاذفه الأمواج يمينا ويسارا ويصطرع تحت ريح عاتية. أسمعك تهتفين باسمي، وتطلبين مني أن أخلصك من شخوص كثر يتحلقون حولك، وجوههم سوداء، وأظافرهم طويلة، ومن ظهورهم تتدلى أذيال قبيحة.

في كل مرة أقفز إلى المركب أضرب بعصاي رأس احدهم فأقلقه، فتطمئنين وتهدئين، ثم ما ألبث أن اتركك حتى أسمع صراخ استنجادك مرة أخرى".

دق الباب، وانفتح ليخبرني "مرقص أفندي" باتصال من "السيد نور سالم"، يدعوني فيه للمشاركة في حفل خيري تقيمه جمعية التضامن النسائي مع حركات التحرر العربي في النادي الأهلي مساء. هززت رأسي بالموافقة، ثم عدت إلى الخطاب لأقرأ استرسالا مستفزا يحاول صاحبه التأكيد على أنه يعرف كل ما أفعله دون توضيح، مع توغله في مزاعم الإعجاب الفائق والهيام غير المسبوق. استوقفتني إشارة طرحها "ألف نون" بأن صوفيته التي حازها بحرية، تمنحه قدرات شفافة غير عادية، وأنه يستقرئ المستقبل ليُخبرني أنني سأمنحه أفضل شيء في الوجود. ضحكت بصوت عالٍ، وأعدت القراءة، ثم على الفور فضضت الخطابين الآخرين لأجد الأعجب. في خطاب طنطا وجدت حبة خرز زرقاء وعلى الخطاب رائحة أشبه برائحة المسك، وفيه قرأت *'حبيبتي سناء: ليس مثل الحب خير. أتوهج بآمالي التي لا تنقطع أن تنفلتي من مدارك الظلمة. أتلمس فيك ايامًا قادمات ملأى بالرضا، ندية بالصفاء. ستفهمين يوما أنني لم أكن ساذجا أو تافها لأحبك كل هذا الحب، دون أي مقابلة أو حديث، فثمة لقاءات تتم في الخفاء بين الأرواح في مساراتها الخفية دون أن تتلاقى الشخوص في الحياة الدنيا. ربما يُفسر لك ذلك استلطافك لشخص أو نفورك من آخر دون سبب واضح. لقد تقابلنا مرارا كما أخبرتك من قبل ودارت*

بيننا مساجلات ومحادثات واعترفت لي واعترفت لك وتصارحنا وتواعدنا وتقاربنا وتعاهدنا أن نقف معا في مواجهة الظلام. ربما جرى ذلك في مكان آخر وعوالم اخرى".

غفوت أمام الخطاب، انتابتني سنة نوم قصيرة، أفقت منها على يد "مليحة" وهي تقرأ في بهجة مُفتعلة وتقول: 'ياااه الواد ده تعبان أوي. هو لسه مسهوك. مشفتش راجل كده". ثم أضافت بنبرة تذكر:

ولا إبراهيم ناجي الله يرحمه. كان رقيق آه. بس مش للدرجة دي".

فكرت للحظات، وقلت لها: "دا مش طبيعي أبدا. وبعدين بقى يغير أماكن الإرسال. مرة من العتبة ومرة من شبرا ومرة من طنطا". برقت عيناها وقالت: 'ممكن يكون السيد نور بيلاعبك". فقلت لها على الفور: 'ما أظنش أبدا. نور دا جد أوي. بعدين الكلام دا ما يطلعش منه. ثم هيلاعبني ليه؟".

"اسمعي. لازم تبلغي عنه. ممكن تبقى حتة تانية ورا الواد ده". هززت رأسي بالإيجاب، ثم فضضت الخطاب الثالث المُسلم عبر صبي مجهول، ووجدت فيه كلمتين فقط "رابعة العدوية". مددت الورقة إلى "مليحة" فقالت: "إيه ده. رابعة العدوية.. يعني إيه. بصي هيا حاجة من اتنين. يإما الشاعر ده مجنون. يإما ف جهة وراه بتلاعبك". سكنت قليلا وأضافت قائلة: "وفي الحالتين إحنا اتعلمنا حاجة واحدة. لازم نبلغ".

في المساء أخذت بنصيحة رفيقتي وأخذت معي

الأظرف الزرقاء، ولم يحضر "نور سالم"، لكن رئيسه أطل بعد أن ذهب معظم الحاضرين وربما جاء خصيصا ليراني. صافحته بحرارة، ففعل ببرود، وسألني عن أخبار بيروت، فأخبرته أنني كتبت كل شيء في تقريري، فشكرني، وهم أن ينصرف، لكنني ناديته وقلت له بطريقة مثيرة لاهتمامه: *"في حاجة غريبة بتحصل"*. فتوقف، ونظر لي مستفسرا وسأل: *"في بيروت؟"*. فقلت: *"لأ. هنا"*، ومددت يدي بالأظرف الزرقاء، ففتح إحداها ثم ضحك ضحكة عالية، وقال: *"هو اول واحد يحبك ولا إيه؟"*. فقلت بجدية: *"لأ. بس أنا مش عارفة مين ده"*. ابتسم وقال بنبرة سخرية:

"يا ستي دا معجب ولهان"، ثم واصل قائلا: *"ما تقلقيش. أنت ميتخافش عليك.. هيظهر وهيبان. هيروح فين"*.

حاولت أن أنفتح ككتاب أمام "سمير بك" لكن حاجزا ما علا بيننا. كانت نظراته مُختلفة كثيرا عن نظرات "حسن باشا رفعت" أو حتى "يوسف حسين". كانت عيناه تبثان خوفا يتجاوز كل حدود، فرغم ابتسامته الجاهزة، لم أشعر يوما بالراحة أمامه. لم يكن هناك أي حنان أو دفء في جلساتنا، ولم أشعر أبدا أنني أستطيع أن أستند عليه، ولم يمثل وجوده في حياتي أي إحساس بالأمان. كان القلق عنوانا عريضا لعلاقتي بهذا السيد الغريب دائما، والغامض أبدا. انتابني وقتها شعور طاغ بأنني لا شيء. مجرد أداة تسجيل لكلام الناس، عين مبثوثة تُسجل الشاردة والواردة، وسيلة

سيطرة على ضعاف النفوس للتحكم في حياتهم. مجرد لعبة من لعب السيد، لا لحم ودم ومشاعر.

عندما عدت إلى مخدعي في ذلك اليوم خطر في بالي خاطر وحيد، فلم أنم حتى اتصلت بمنزل "مصطفى أمين" وقلت لخادمه: *"بلغ مصطفى بك إني عاوزة أزوره. ممكن بكره لو وقته يسمح. شكرا جزيلا".*

***

(27)

السبت 7 يوليو 2001

تشوشت الذاكرة فلم أعد أذكر يقينا إن كان "مصطفى أمين" مبتسما كعادته عندما استقبلني بترحاب مبالغ فيه من أمام باب شقته بالزمالك وحتى غرفة الصالون المودرن ظهر ذلك الجمعة الذي زرته فيه أم لا؟ وهل نادى الصحفي الكبير اسما وجسما خادمه ليطلب منه فنجان قهوة سادة له وآخر مضبوطا لي أم أتى الرجل النوبي وحده في آلية معتادة؟ وهل كان يرتدي بذلته البنية وكرافتته الوردية التي يقابل بها زوار يوم عطلته؟ أم أن قطار الزمن تقاطع مع خيالي فبدل الألوان والأحوال؟

جلسنا والشك ثالثنا، وأخبرته بأن ما يكتبه عن فطنة الرئيس وشجاعته جميل ومبهر، وبأنه يجد استحسانا لدى القيادات. ثم أنبأته بأنني مُكلفة بكتابة جزء ثان من كتابي عن قائد الثورة، وبأنني أرغب في تضمينه بعض المقالات التي كتبها كبار الصحفيين. تقافزت

نظرات الفخر بعيني الصحفي الذكي، وحافظ على ابتسامة واسعة، وأخبرني أن ذلك يسعده، وأنه يُقدر كل ما أقوم به من أجل مصر. حدثني "مصطفى بك" عن كثير من الأخطار التي ما زالت محدقة بالثورة، ثم دلف إلى إعجابه المبالغ فيه بتوجهات عدم الانحياز، والارتقاء الكبير لزعامة عبد الناصر في الشرق والغرب على السواء. وهمس لي بأنه التقى بشكل شخصي بعض النساء في أميركا اللاتي يعشقن جمال عبد الناصر عشقا غريبا، وأن بعضهن يعلقن صورته في مخادعهن. كان يتحدث وأنا لا أكاد أسمعه فقد سرحت في كيفية مكاشفته بشكوكي فيه، خاصة وأن له سوابق في صناعة شخصيات وهمية وتسويقها لدى الرأي العام. أخرجت سيجارة "كنت"، فسارع إلى إشعالها بأدب جم، وسألني بهدوء عما أريده. أتذكر وضوحه وقتها وهو يقول لي: *"بصي يا سناء هانم.. إنت أكيد جاية عشان حاجة معينة. بس حاجة خاصة بك لأنهم لو عاوزين يقولوا لي حاجة مش هيبعتوكي مرسال"*. انتابتني بعض العصبية التي ترجمتها أنفاس سريعة متوالية من دخان سيجارتي، وقلت له بصوت هامس: *"ألف نون"*، فرد مستغربا: *"مش فاهم.. إيه ألف نون دا؟"*. قلت وأنا أضغط على كل كلمة: *"يعني متعرفش ألف نون؟"*. هز رأسه نافيا، فقلت: *"دا أديب مجهول بس بيكتب شعر جميل جدا وحابة أظهره للناس عشان يستحق التكريم"*. قطب الرجل الضخم حاجبيه، وقال لي: *"معرفش إنك مكتشفة مواهب"*، ثم وضع ساقا فوق أخرى، وتابع قائلا: *"طيب أنا ممكن أخدمك إزاي؟"*. شعرت بصدقه

للحظات، فالتزمت الصمت، ثم قلت بنبرة ضعف أنثوي: *"مش عارفة مصطفى بك. بس أنت أكيد ممكن تساعدني أوصل له"*. اعتدل الرجل قليلا، ونادى خادمه ليطلب فنجاني قهوة آخرين، ثُم قال لي: *"اسمعي. انا هاساعدك، رغم إنك بلغتِ عني في 52 وخوفتيهم مني. لكن هيبقى ليا عندك خدمة"*. هززت رأسي بالموافقة، فقال لي: *"احكي لي كل حاجة"*. فحكيت له قصة الأظرف الزرقاء، والشغف الذي نما وكبر لمعرفة هذا الراسل الخفي، وأخبرته بمحاولاتي لتتبعه عبر مكاتب البريد دون جدوى. قال لي الصحفي الكبير بثقة: *'متقلقيش. هاجيب لك قراره"*. واعتدل في جلسته، وقال: *"إحنا عندنا ثلاثة خيوط.. الأظرف الزرقاء وتحديدا هذه النوعية الغريبة، وخط الكاتب وهو جميل ولافت، ثم أسلوبه الفريد في الكتابة"*. قُلت له: *"مش فاهمة"*، فرد سريعا: *"متشغليش بالك. أسبوع وهتعرفي كل حاجة"*.

عندما حكيت لـ"حسن باشا رفعت" أبدى كثيرا من عدم الاهتمام مثلما فعل "السيد سمير" ما جعلني أعلق جميع آمالي على وعد "مصطفى أمين". وشعرت بتوهج غريب يجرجرني إلى معرفة ذلك الأديب الجميل الذي يُلاحقني كما لم يفعل رجل من قبل. ساءلت نفسي إن كان يعرف كل شيء عني كما يدعي أم لا، ثم سرحت بخيالي فيه، وفي شكله وهيئته، هل هو وسيم أم دميم؟ وهل هو كهل يُحسن صياغة الكلمات أم هو شاب صغير ما زال رقيقا وبريئا بمشاعره وأحاسيسه؟ هل يُحبني حبا عذريا فتكفيه نظرة رضا أم هو ذئب ذكري

متخابث يسوق المغريات سلالم نحو ملذات الجسد؟ وما هي غايته الأخيرة؟ ليلة ساخنة أم علاقة ممتدة؟ وماذا يقصد بأجمل شيء يريدني أن أهديه إياه؟ هل يتصور هذا الساذج أنني سأمنحه مالا؟ أم يصور له غروره أن روعة بيانه توظفه عندي في المجلة براتب كبير؟

اختفت "تيتي شيري" فجأة. لم تأت اجتماعا أسبوعيا للمجلة، واتصلت بها في البنسيون الذي تقيم فيه فعرفت أنها غائبة منذ ثلاثة أيام. سألت "مليحة" و"فريال" و"وداد" دون أن أحصل على إجابة واضحة، ثم سألت "نور سالم" فقال لي إنه سيبحث الأمر، لكن مرت ثلاثة أيام أخرى ولم يجب. هاتفته مرة أخرى فقال لي: *'فص ملح وداب'*، ثم أردف بأنها قد تكون سافرت مع أي من عشاقها السريين. قلت له بأنني أعرف كل شيء عنها، لكنه قاطعني ببرود قائلا: *"كل واحد له أسراره الخاصة. ومش كل اللي بتعمله بتقولك عليه. أنت كمان مش كل اللي بتعمليه بتقولي عليه. ما انت كمان لك حركات مريبة"*. ثم لامني على لقائي بـ"مصطفى أمين" وقال: *"مش إحنا سبق وحذرناك منه. عموما السيد سمير قال لي سيبها براحتها. هتلف تلف وترجع لنا"*.

لم يُكذب "مصطفى أمين" خبرا. هاتفني بعد أسبوع واحد، داعيا إياي إلى غداء في فندق الهيلتون، وذهبت على عجل، فقابلني بترحابه الزائد، ثم قال لي فور جلوسي: *'معاك قلم؟'*. فأخرجت قلمي ونوتتي، فنظر في عيني وكأنه يقرأها، ثم قال: *"اكتبي. اسمه أحمد نصر الدين*

ايوب. مواليد شبرا مصر 1933. مُدرس لغة عربية في مدرسة الخديوي إسماعيل، وساكن في 4 شارع غراب في عابدين". ذُهلت، وسرت قشعريرة الرهبة في جسدي، وشككت لمرة أخرى أن يكون "مصطفى أمين" هو الذي حرّض العاشق الخفي تجاهي، لكن الجدية التي اكتسى بها وجهه دفعتني أن أسأله: "كيف وصلت له؟". ابتسم الرجل وقال باستهانة مصطنعة: 'سر المهنة"، فألححت عليه قائلة: "قولي والنبي. عاوزة اتعلم يا أستاذ". فقال: "الموضوع بسيط خالص.. خليت اتنين شباب بصوا في الخط ده وقلت لهم يراجعوه كويس مع أرشيف الخطابات اللي عندنا، وفعلا لقوا جواب وصل في 55 بخط شبيه، بعدين لقوا جوابات تانية عارضة قصص وشعر اتبعتت في 53 و54 وكلها كتبها شخص واحد هو أحمد وفيها عنوانه ومهنته". غرتني الفرحة وسألته: "يقينا؟". فأجاب: "آه يقينا". شكرته بحرارة حقيقية وقلت له: "أنا آسفة إن كنت أسأت الظن فيك أو فضلت شايلة من ساعة ابنة الديكتاتور. انت إنسان نبيل". فابتسم الرجل، وقال برقة: "خلاص بقى. صافي يا لبن".

***

(28)

الأحد 8 يوليو 2001

فاجأتني "حُسن" بصفحة جديدة في كتاب الأمل، عندما أخبرتني أن طبيبا كبيرا يعمل استشاريا للأورام استأجر عيادة في العمارة التي نسكنها قبل أيام، والتقت

به وعرضت عليه تقارير حالتي الصحية وأخبرها أن هناك تقدما مذهلا في الطب، وأن حالتي متوسطة ويُمكن علاجها. غضبت في البداية من تصرفها المنفرد، واقتحامها شئوني الخاصة، غير أن دافعا ما دفعني أن أقبل إلحاحها بضرورة زيارة الدكتور "شادي حامد" أستاذ أورام المسالك البولية، والذي بدا لي رجلا لطيفا يبعث على التفاؤل، خاصة وأنه قال لي بأن أكثر من خمسين بالمئة من الحالات المماثلة لحالتي تستجيب الآن لعلاج دوائي جديد أنتجته إحدى الشركات العالمية قبل شهور، ودخل مصر مؤخرا، غير أن سعره مرتفع نسبيا ولم يتم دعمه بعد. سألته إن كان عليّ أن أبدأ تجربته، فأجاب بحماس: *"فورا"* وطمأنني وأعاد لي الأمل مرة أخرى.

قُلت لـ"حُسن" وأنا أتعكز عليها لتُجلسني على كرسي المتحرك: *"عارفة يا حُسن.. لو خفيت هازور النبي، وهاكتب لك دكان وسط البلد"*. بدت حانية للغاية وهي تُطبطب عليّ وتُكرر: *"هتخفي خالص. إن شاء الله. هتخفي"*. وفاجأتني بمقولتها: *"أنا شفتك هناك عند النبي. شفتك ف المنام"*. وكدت أن أسألها إن عادت للصلاة التي تحافظ عليها أياما وتنقطع عنها أياما تماما مثلما أفعل، لكنني تذكرت أن الشفافية التي يزرعها الله في نفوس البعض لا علاقة لها بالصلاة.

هل حفزني ذلك أن أدوّن عقب عودتي قصة لقائي بألف نون. "أحمد نصر الدين أيوب"، الهائم الناعم، الرقيق البليغ، الذي مثّل الاستثناء الوحيد في تجاربي

مع الرجال، والقاطن في 4 شارع غراب بعابدين؟

طرقت الباب في العاشرة صباح الجمعة، يوم العطلة، دون اتصال أو استئذان. ارتديت ثوبا محتشما يليق بكاتبة ثلاثينية لها مكانة مرموقة، وتدير مجلة أدبية ثقيلة. اكتفيت بكحل خفيف على الجفنين والحاجبين، وغطيت شعري بقبعة أوروبية صغيرة، تتدلى من تحتها بعض خصلات شعري الفاحم. سألت نفسي بعد الطرقة الأولى على بابه عن رد فعله المنتظر.. هل سيسقط من طوله؟ هل سيترنح ذهولا؟ هل سترتعش أوصاله؟ وهل يفقد الوعي؟ رسمت ابتسامة ظفر فوق شفتيّ، ورفعت جبهتي فخرا، أنا القابضة على كل لاه، والممسكة بكل فار، التي تفرض كلمتها وإرادتها متى شاءت. طرقت الثانية، وأنا أتخيل مشهد ذلك الشاعر الشاب الذي يصغرني بأربع سنوات وهو مصدوم من سرعة وصولي إليه. توقعت أن يعتذر، يتلعثم، يخرس صوته وتجحظ عيناه فور أن يراني أمامه. رمقت سلالم البناية الدالة على حال متوسط لقاطنيها، وفكرت إن كان يرغب بالفعل في الكتابة بأجر في مجلتي ليزيد دخله، وشعرت بغبطة أن أبلغه قبولي تعيينه في المجلة بخمسة جنيهات وربما أكثر. طرقت الثالثة وخمنت أن يكون هذا الشاب الأديب أسمر الوجه، له شارب كثيف، وربما يميل للقصر، فما أقل طوال القامة في بلادنا. سمعت صوتا خفيضا يُكرر: "حاضر"، وكأنه فوجئ بالطارق صباح يوم عطلته. انفتح الباب ببطء شديد منحني شعورا بالتلذذ انتظارا لما تسفر عنه المفاجأة، لكن شيئا لم يحدث. ابتسم أجمل وجه رأيته في حياتي

فور أن رآني واقفة أمام باب شقته. كان طويلا كسلة، جميلا، هاشا باشا، ساحرا بعينيه الزرقاوين، وشعره الداكن الجميل، جذابا بابتسامته الرائقة، مُبهرا بصفاء وجهه. كملاك طيب ابتسم بحنان، دون أن يرتد له طرف، ثُم أفسح طريقا للدخول قائلا بصوت هادئ: *'كنت متأكد إنك جاية النهاردة'*، ثم أضاف بصوت أرق: *"أهلا وسهلا يا سناء. اتفضلي"*. سرى إكسير الاضطراب بشراييني وقُلت لنفسي "مَن هذا الملاك المدرب؟ وكيف عبر مستنقعات مفاجأتي بكل هذه البساطة؟".

بدا أنيقا رغم بساطة قميصه الأبيض، وسرواله الكحلي، وشعرت برغبة متأججة أن أمسح بكفي وجهه الحليق الخالي من شعرة واحدة، واخترقني شعاع ساحر نابع من عينيه. جلست على أريكة بلدي غير مريحة في الصالة الصغيرة، قبل أن يسألني عما أشرب، لكنني لم أجب. شلّتني نظراته، وشعرت بفضول شديد أن أفتش دماغه خلية خلية. من أنت أيها الجميل الرقيق؟ وكيف تملك كل هذا الحُسن ولا أراك؟ كرر سؤاله، فقلت: *'أشرب شاي"*. تفرغت عيناي لتصوير محيطي خلال الدقائق الثلاث الذي تركني فيها، لأحصي ثلاثة براويز أحدها لرجل بطربوش وشارب يشبه العاشق، والثاني لصاحب الطربوش وإلى جواره عروس، والثالث لأحمد نصر الدين مرتديا بذلة أنيقة. فضلا عن فازة صغيرة، ومنضدة ومكتبة صغيرة تضم عددا محدودا من الكتب المجلدة.

سألته وهو يُعد الشاي إن كان يعيش وحيدا، فقال: *"أنا مقطوع من شجرة. أبويا مات في حريق القاهرة، وأمي ماتت بعده بسنة، مستحملتش يسيبها لوحدها".*

جلس أمامي، فقلت بضحكة انتصار: *"إيه رأيك ف المفاجأة دي؟"*. فقال على الفور: *"متفاجأتش.. أنا قلت لك إني كنت مستنيك وعارف إنك هتيجي النهارده".*

"إزاي بقى؟" سألته، فقال بعد أن رشف رشفة من الشاي: *"بصي يا ستي. محكي لك كل حاجة. بس لازم تصدقيني".*

قلت باستغراب: *"وأنا أعرف منين إنك مش بتكدب عليا؟"*، فقال *"اختبري إحساسك. مفيش حل تاني"* ثم حكى لي أغرب حكاية.

حكى لي "أحمد" أنه قارئ نهم، قرأ صنوف الأدب، وحفظ ألوانا من الشعر العربي القديم، وأبحر في ما خطه الفلاسفة الكبار في بلاد العالم كافة، ووجد ضالته بعد رحيل أبويه في تأملات الصوفية والزهاد، وشعر أن أعظم شيء في الحياة هو تنقية القلب والنفس من كل ما يحمل كراهية أو غلا تجاه الآخرين، وعاش متجردا تماما من الملذات، مستأنسا بالحب والصفاء وتجنب كل ما يؤذي البشر حتى قادته تأملاته إلى لقاء أصفى البشر. برقت عيناي وسألته ساخرة: *"يعني شفت النبي؟"*. فهز رأسه نافيا، وقال: *"لأ مش النبي محمد عليه الصلاة والسلام. في عبد صالح تاني لسه عايش، القرآن حكى عنه أن ربنا أطلعه على الغيب، ما بيظهرش إلا لناس معينة"*. قلت لنفسي بأنني أمام درويش مهووس

قبل أن أسأله: "*دا مين دا إن شاء الله؟*"، فأجاب قائلا: "*مش مهم اسمه. ف بعض الناس بتقول عليه الخضر وف ناس بتقول عليه عبد صالح*". أضاف مستطردا: "*هو ظهر لي مرة واحدة بس. كنت ف طنطا في جامع السيد البدوي، وكنت قريت مجلتك وعجبتني قصة اسماء بنت أبي بكر، وقال لي إنك محتاجاني*". ضحكت بصوت متصاعد حتى ارتد ظهري على مسند الكنبة، وأخرجت سيجارة لأرد باستخفاف على سذاجة حديثه، أشعلتها، فواصل حاكيا: "*شفتك بعد كده أكتر من مرة في المنام. مرة كنت في غيط أخضر بتجري ورا عربية والمطر نازل. بعدين وقفت، وركبت فيها، لكن بعد شوية سمعتك بتناديني وتقولي لي خلصني منهم. عاوزة أنزل. ومرة تانية شفتك طلعتي سلم طويل، وكانت آخر سلمة فاتحة على بلكونة من غير سور، وأول ما اكتشفتي إن آخر السلالم هوا، وإنك هتقعي، ناديتي عليا عشان أساعدك وأنزلك. ومرة تانية شفتك بتصلي وكل شوية ييجي واحد من وراك ويدفع هدومك ويعريك، فدخلت أنا ووقفت وراك عشان أمنع أي حد يدخل*".

شعرت بضيق، لأن أحلامه تمس مقاطع حقيقية في حياتي. هتفت بوجل: "*أنت مين؟*"، انتابني الشك فيه، ثم قلت بنبرة تهديد حقيقية: "*أنت عارف يا أحمد أنت بتلعب مع مين؟*".

قال بهدوء شديد: "*طبعا مش عارف بالظبط.. لكن عارف إنك أكيد مهمة وليك نفوذ. بس برضه عارف*

إنك ماشية في طريق غلط، وحاسس إني مكلف بيكي، وحاسس برضه أن حبك دا انزرع في قلبي غصب عني". قلت متشككة: "يا سلام".

نظر إليّ مليا ثم قال: "أنا عاوز أقولك إني شفتك ف حلم تاني، كنت ماشي في طريقي، وأنت جيتي مسكت إيدي ومشيت معايا لحد ما قابلتنا جنينة جميلة جدا، فدخلناها سوا، بعدين قطفت وردة وقدمتيها ليا، وقلت لي حافظ عليها". ابتسمت غير مصدقة، وقلت سائلة: 'أنا اللي عطيتك وردة؟". فهز رأسه بالإيجاب.

قلت له: "طيب وعرفت منين إني جاية النهارده؟" فرد بعفوية غريبة قائلا: "شفتك الليلة اللي فاتت بتغبطي على باب الشقة، وكنت بنفس لبسك دا".

قلت ساخرة: "أنت كده تبقى ثروة عظيمة جدا للبلد. ممكن تحلم لنا بالناس اللي بتتآمر على الريس وعالثورة؟". فرد بجدية: "أنا ما باحلمش بمزاجي".

شعرت بالتخبط والاضطراب وانفتحت عشرات الأسئلة في رأسي، ودفنت سيجارتي في منفضة بلورية فوق المنضدة، ثم قمت من جلستي، وحاولت التماسك، واقتربت من "أحمد" الواقف كنخلة باسقة نضرة. وضعت يدي على كتفه في تدلل مقصود، ثم قلت له: 'بقولك إيه يا أحمد. تحب تشتغل معايا؟ تكتب يعني في المجلة؟".

فابتسم ابتسامة انفتحت لها السماوات، وبرقت عيناه الجميلتان، ثم قال لي: "أكيد هاشتغل معاك. بس مش كده وبس.. إحنا كمان هنتجوز". تمنيت أن أقبله

من فمه، لكن كبرياء الأنثى المتراكمة عبر سنوات الصعود نحو المجد منعتني، ثم كررت كلمته بنبرة دهشة مقصودة، فقالها مرة أخرى، وأضاف قائلا: *"أيوة هنتجوز يا سناء، وهنجيب بنت جميلة زيك، وهنسميها نادية"*. هززت رأسي ورميته بنظرة ارتياب، وقبل أن أغادر سمعته يقول لي مبتسما: *"هذا تأويل رؤياي"*، فابتسمت وقلت له: *"ماشي يا عم يوسف"*، ثم غمزت له وقلت: *"أنت جميل برضه زي سيدنا يوسف"*.

***

(29)

الاثنين 16 يوليو 2001

غبت عن الكتابة بسبب مفاجأة سارة لم تكن في الحسبان. أثبتت أشعات مقطعية أجراها الدكتور "شادي حامد" براءتي من السرطان. لم أصدق النبأ عندما جهر به وهو يمسك ملفا جديدا أعده بشكل مبدئي قبل تلقي العلاج. قال الطبيب السمح الرقيق إن ما توهمته المعامل الأخرى ورمًا ليس سوى التهابات طبيعية في المثانة، وأنها يمكن أن تزول بأدوية تقليدية. رقصت طربا، وسرت الدماء في شراييني مرة أخرى، وشعرت بأنني قادرة على الوقوف وحيدة، بل والسير لمسافات دون أن أتعكز على رفيقة الأيام الصعبة. تنفست الصعداء، وشعرت بامتنان عظيم للإله الخالق، القادر على كل شيء، غافر الذنب، وقابل التوبات، ومَن بيده كل شيء.

قالت لي "حُسن" بأنني يجب أن أطعم مئة مسكين

من مساكين السيدة زينب. قُلت لها: *"تعالي نبتعد أكثر، لأن كل الناس تذهب إلى السيدة زينب والسيدة نفيسة لتطعم الناس"*، وسألتها ما رأيها في الإمام الشافعي؟ بررت اختياري بأن الصدقة ربما يكون ثوابها أفضل كلما ابتعدنا عن الصخب ولجأنا إلى الأضرحة المنسية، فهناك يُمكن أن يكون إطعام الغلابة أكثر نفعا.

قررت أن أفي بوعدي أيضا، وأكتب لفتاتي ما تبقى لديّ من أموال، بما يكفل لها ألا تخدم أحدا من بعدي، فلو عشت عشر سنين أخرى، فستكون "حُسن" على مشارف الخمسين، وستحتاج أن ترتاح من الشقاء. قلت في نفسي أيضا بأنني سأسافر إلى فاتح الأبواب الموصدة، النبي الكريم الذي سيقف أمام الخالق يرجوه أن يشملني بعفوه.

علاوة على ذلك قررت أن فعل الكتابة بمثابة واجب ملزم لتدوين شهادة قد تنفع بشرا آخرين لا أعرفهم.

أتذكر الآن بوضوح كيف تسلل إلى قلبي الأديب الوسيم فاستلبه، ذلك "الأحمد نصر الدين أيوب"، الشاب الوديع، والمبدع الصوفي الذي اختبرته مرتين وثلاثًا وأكثر، فوجدته مخلصا عفيفا كولي. سلطت عليه "سعاد" لتبعث إليه بعض فتياتها، فحاولت التملص وادعاء التوبة، لكنها سلمت في النهاية أمام إلحاحي وقالت بأنها ستفعل هذه الخدمة من أجلي بُحسن نية، فربما ينجح الهدف في الاختبار ويتضح إخلاصه الحقيقي، وهو ما حدث بالفعل بعد أن قدم الشاعر

الوسيم درسا أخلاقيا للفتاة الصائدة.

قابلته مرة أخرى بالمجلاب حقيقي لكثير مما يرويه من أحلام يرى فيها الحقيقة كاملة، وسألته مباشرة عن رأيه في "جمال عبد الناصر"، فأجابني بعد لحظة صمت طويل قائلا: *"هو رجل يؤمن بسيادة الخير، لكنه يسعى إليه بكثير من الشر"*. ضحكت وقتها، وقلت له: *"إن ذلك لا يفهم منه إن كان مدحا أم ذما"*. فقال: *"إن الناس تتقلب بين الخير والشر، وكل ابن آدم قابل للتغيير كل يوم. سبحانه وحده، هو الذي لا يتغير أبدا"*.

وشعرت بألفة غريبة تجاهه، فسألته إن كان يعرف ما هي طبيعة عملي بالضبط، فردَّ بأنه يعرف أنني أكتب تقارير تخص الشخصيات العامة وأقدمها إلى السلطة تحت شعار الحفاظ على استقرار الأمن العام، فتسارع هي إلى وأد المخالفين، وهم صغار قبل أن يكبروا بطريقتها الخاصة. سألته إن كان قد رأى ذلك في منامه، فهز رأسه بالإيجاب، ثم أكد أن هذا الأمر واضح أيضا لكل مَن يعرفني. سألته في مكاشفة: *"إذن يا أيها الفارس النبيل: كيف تحب عميلة أمن تكتب التقارير ف الناس لتدخلهم المعتقلات والسجون؟"*. فلاذ بصمت حزين ثم أجابني قائلا: *"أولا: الحب ليس اختيارا. مَن يُحب يقبل مِن يحبه بأبيضه وأسوده، وحلوه ومره، وخيره وشره. ثم أنا كما قلت لك من قبل مكلف ومأمور بك"*، فقلت: *"من الخضر؟"* ثم أضفت بنبرة إنكار: *"هترجع تاني للتخاريف دي؟"*، فهز رأسه وقال: *"هذه هي الحقيقة"*. عدت بعد هنيهة، لأقول

له: "طيب يا أحمد يا جميل.. ممكن تحكي لي بجد عن موضوع الحضر ده. أنا لسه مش مصدقة. وهل ممكن اشوفه؟ وهل ممكن يقولي إيه اللي هيحصل بكره؟". رد أحمد قائلا: "اسمعي يا سناء. أنا عارف إنك مش هتصدقي أبدا موضوع العبد الصالح. بس هو حصل. والمفروض ما أحكيش الأمور دي. وعارف إني مش هشوفه تاني. لكن أنا مؤمن أن في إرادة وحيدة مدبرة للكون كله، وهي تعمل كل ما لا نتخيله أو ما نتصوره امرا خارقا. وموضوع تقابليه أو لأ.. دا مش قرارنا لا انا ولا أنتِ. دي نعمة من ربنا. لكن أنت تقدري نعملي إيه. تقدري تجددي حياتك. كل يوم نقدر نتولد من جديد".

اقتربت منه أكثر وقلت له: "ولا أنت إخوان ولا إيه؟". فهز رأسه ضاحكا وقال: "لا طبعا. هو إحنا لما نقرب من ربنا نبقى إخوان؟".

حاصرتني عيناه، وشعرت بانجذاب ساحق لأشب وأتعلق برقبته معانقة، لكنه بأدب شديد قال لي: "أنا عاوز نتجوز.. أنا بحبك بجد". فكرت بجنون سائلة نفسي لمَ لا؟ وقلت له: "طيب والتقارير اللي باكتبها؟". فقال: 'بلاش تكتبي تاني. بهدوء شديد انسحبي".

قلت معلقة: "بالبساطة دي؟"، ثم سألته: "تفتكر هما هيقبلوا؟". فأجاب قائلا: "في كتير ف البلد ممكن يقوموا بالدور نفسه".

قلت له المقولة الشهيرة التي تربيت عليها: "يا عزيزي: في سبيل الوطن، فإن كثيرا من الأخطاء مباح".

رد قائلا: "ومين اللي يحدد إن أي شيء في سبيل الوطن أو لأ؟ هل المسئولين عن السلطة أنبيا؟ بعدين انتي متعرفيش إن كانت تهاريك بتخدم الأمن العام والبلد ولا بتخدم أشخاص بعينهم". قلت مبررة: "أنا ما باتبلاش على حد بكذبة. أنا باقول اللي بيحصل بالظبط".

قال: "انتي بتتبعي عورات الناس وأسرارهم وبتمسكي لحظات ضعفهم وتسلميها لناس وانتي مش عارفة بيعملوا بيها إيه". شعرت بأنه يهدم كل حصوني، وتساءلت بيني وبين نفسي إن كان موجها من المؤسسة ذاتها لاختباري أو هدمي، فالدرس الأهم الذي لقنني إياه "سمير بك" هو أنه لا شيء مستبعد في أعمالنا، فكل فرضية ممكنة.

نظرت إلى عينيه مرة أخرى لكن انتابني شبق حقيقي، وقلت له: "اسمع يا أحمد. أنت عاجبني. وأنا معنديش مشكلة إننا نتجوز. ممكن نقدر نكمل بعض. أنت اديب حقيقي وشاعر فلّ وأنا كاتبة مشهورة وعندي مجلة، وممكن نبقى ثنائي مبهر. لكن خلينا نتفق اتفاق محدد لو عاوز فعلا إننا نتجوز بكره. ياريت ملكش أي علاقة بشغلي التاني. أنا مؤمنة إني باخدم الوطن، وأنت متشكك، خليك زي ما أنت، وأنا زي ما أنا، ومحدش هيجبرك تتعاون معاهم". أتذكر جيدا أن "أحمد نصر الدين أيوب"، الرقيق، الحالم، ذا الوجه المشرق نظر إليّ طويلا وقتها قبل أن يقول لي كلمة واحدة نطقها بصعوبة وكأنها تخرج من ثقب إبرة: "موافق".

أخبرت "حسن باشا رفعت" صديقي الأقرب بالأمر.

قلت له إنني سأجرب ما عشت عمري رافضة تجربته. لم يعلق الرجل كثيرا لكنه سألني بوضوح: *"ماذا لو تعارضت هذه التجربة مع نشاطك الوطني؟"*.

فقلت على الفور: *"اسمع يا باشا.. قدام كل الخيارات.. مختار النشاط الوطني"*. وبرهنت بالفعل على كلامي، بسهرة خاصة نظمتها لقناصل ودبلوماسيين عرب لاستقراء مواقف بلادهم بشأن الأزمات الناشئة داخل سوريا نتيجة وحدتها مع مصر. كُنت مؤمنة بأن جميع الدول تتآمر ضد هذا الزعيم العظيم الملهم، الصاعد بقوة وسرعة، والذي حررت كلماته الشعوب المستعبدة شرقا وغربا. قال لي "حسن رفعت" وقتها: *"في النهاية.. انتي ميتخافش عليك. ولا زم أبارك"*. وقبلني كابنة.

شعرت بامتعاض شديد من جانب "مليحة" لفكرة الزواج عموما ولاقتراني بـ"أحمد" بشكل خاص، وأخبرتني الشاعرة الجميلة بأن رغبتي في معاشرة هذا الفتى الوسيم لا تكفي وحدها لاتخاذ قرار مصيري مثل هذا، ثُم سألتني عن موقف المؤسسة و"سمير بك" من الأمر، فأجبتها بأن أحدا لم يعترض. وسألت "مليحة" أيضا: *"إنتي بلغتيهم؟"*. فأجبت قائلة: *"مش بالظبط. بس انا عارفة أنهم عارفين. كل حاجة بيعرفوها. ولو عندهم اعتراض هيقولوا من غير ما أبلغهم"*. وحده "ماجد شهدي" الذي كان متحمسا لحكاية زواجي، وقال لي بتشجيع غريب: *"إن أجمل شيء هو أن تعيشي كما لو كنت حرة"*. وأضاف: *"طبعا كان نفسي تجوز زي ما عرضت عليك كتير. لكن على كل حال ما دمتِ*

هتبقي سعيدة أنا بابارك وأهني".

اتفقت مع "أحمد" على جميع الترتيبات. رتبنا لحفل صغير في فندق على النيل، وطبعنا دعوات الفرح، وحرصت أن أضع فيها اسم "أحمد" مسبوقا بلقب الأديب، وصفة مدير تحرير مجلة "أقلام جديدة"، واقتصر الحفل على مشاركة عدد محدود من العاملين في المجلة، ربما كانت أبرزهن "مليحة"، ولم يدع "أحمد" أحدا من معارفه سوى جار وحيد اسمه "منير" يعمل ببنك التسليف الزراعي، سافرنا إلى أسوان لقضاء أسبوع يُلائم شتاءً قارسًا، ونسيت مهامي، وطبيعة شغلي، و"نور سالم" و"سمير بك" والمؤسسة وكل شيء، معتبرة أسبوع العسل هو أسعد أيام حياتي على الإطلاق. وخلاله، استعدت إنسانيتي كاملة، فرحت من قلبي، واستعذبت مشاعر الأنثى المُرتكنة على سند قوي يتحمل المسئولية، وأوغلت في سكرات الهيام والمحبة، وتذوقت بتلذذ أجمل قصائد حب تلاها شاعري الوسيم، مشبها إياي بكثير من التشبيهات اللذيذة والجديدة مثل حبة الكرز، وطائر السنونو، والقصيدة الساحرة. كان فتاي رقيقا في حديثه، لطيفا في احتفائه واهتمامه، يُمسك أصابعي برقة شديدة ونحن نسير سويا، يفتح لي باب السيارة لأركب، يسحب لي الكرسي لأجلس، ويبتسم كلما أطل في وجهي، مُكررا كلمات الاطراء، لكنه كان يسرح في بعض الأحيان، فإذا انتبه إلى انتباهي إليه، استحضر ابتسامته وكرر كلمات الحب في ترنم مُحبب. كان ماتعا في الفراش، لا بقوته الجسدية أو تكراره للمضاجعة مرات ومرات، وإنما بكلامه العسلي

الذي كان يصبه صبا في أذني ونحن نهيم في لجاج اللذة. كيف حفظ هذا الكائن الاستثنائي كل هذه الحكايات والأقاصيص المفعمة بالرغبات والملذات بعد أن التقطها من التراث العربي الأصيل، ثُم رسمها بقصه اللافت وأسلوبه المشوق لتختزنها الذاكرة بعد أن تشعل في النفس رغبات ورغبات! ما الجنس سوى لحظة التحام روحي قائم على تلاصق واتحاد جسدين يكافئ كل منهما لامتاع الآخر.

انقضت الأيام الجميلة سريعا، وعُدنا نواجه حقائق العالم القاسي، وتحديات الزمن الجديد. استأجرنا شقة جديدة في شارع شريف، على مقربة من المجلة وواصل "أحمد" عمله التقليدي بمدرسة الخديوي إسماعيل نهارا، إضافة لعمله الثاني بالمرور على المجلة مساء لمراجعة المقالات الواردة قبل أن نلتقي في العاشرة مساء كل يوم عدا الجمعة الذي نقضيه كله سويا. كنا نتحدث في كثير من الأمور بحرية وعمق، لكنه كان يتجنب أي حديث في السياسة إلا إذا سألته بشكل مباشر.عاهدته ألا أخونه أبدا، وعاهدني أن يُعلمني التأمل في ملكوت الله، والتحدث إليه كلما ضاقت بي الخطوب. أخبرني أنه لن يطلب مني أن أحكي له كل شيء، وإنما أصارحه فقط بما أرغب في مشاركتي إياه. أقلعت مؤقتا عن الشراب، وإن لم أقلع عن التدخين، وظل هو حريصا على ممارسة رياضة الركض كل صباح كشاب عصري.

كُنت أستغرب شخصيته التي تكشفت يوما بعد الآخر،

ففي عقله انفتاح شديد على كل شيء، وإيمان مطلق بالحرية، ورغم ذلك فداخله إنسان عفيف، رافض للانفلات، حريص على الصلاة والاستغفار، مُكررا أمنيته أن يكون شابا نشأ في طاعة ربه. كان يعرف كثيرا عن البوذية، ويحفظ بعض عبارات الإنجيل مثلما يحفظ عن ظهر قلب خواتيم كثير من سور القرآن، وكان يقرأ أيضا عن الفلسفة الوجودية. ولم تكن آراؤه عن كثير من أساطين الأدب غريبة، فمعظم أبناء جيله كانوا يشعرون بتمرد شديد تجاه كتابات المنفلوطي، وكانوا يستثقلون مقالات طه حسين، ويرفضون تأويلات العقاد فيما يخص عبقرية الأنبياء، وأصحاب السير المضيئة في الإسلام مثل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب. صارحني "أحمد" يوما بأنه لا يجد فيما يكتبه العقاد من نظم، شعرا جميلا، كما لا يشعر بانبهار تجاه كتاباته النثرية، وأخبرته بأنني أتفق معه تماما.

وفي ذلك الوقت، بدأ الحلم يتكور في بطني ويكبر رويدا. أنبتت النطفة التي غرسها حبيبي كائنا في رحمي لم أحسب حسابه، غير أني لم أمنع مجيئه، فقد وصلت إلى قناعة نهائية بأنني نلت مرادي من الرجال، وأن "أحمد" فيه كل مزايا الزوج المحب المخلص، وأنه يجب اختياره والدا لابن واحد أعيش به الدور المفترض للأم الحنون.

كبر البطن، ومعه الحلم، واستكمل الجنين تكونه، وطرق أبوابه ليخرج لأبويه، مضيئا كزائر منتظر جميل

الطلة. وافقت زوجي على تسمية مولودنا الجميل "نادية" تماما كما حلم قبل بضعة شهور. احتفلنا معا بفتاة ضعيفة البنية، كثيرة البكاء، مُنكسرة النظرات، وضعتها "مليحة" في غربال، وغنت لها برقة، ثُم تلقيت جنيها ذهبيا من "سمير بك"، أرسله بصحبة سائقه كهدية للمولود وكأنه يُقر الزواج والإنجاب، وقدم لي "نور سالم " صورة للرئيس جمال عبد الناصر مكتوب عليها "هدية الزعيم جمال عبد الناصر إلى نادية أحمد نصر الدين أيوب". وطاولت بقامتي السماء راضية بمن لم أتخيلها، وبنجاحات لم أحلم بها، حتى حدث ما حدث لأتشظى إلى الأبد.

***

(30)

الخميس 19 يوليو 2001

جاءني التكليف من الرجل الكبير مباشرة. أخبرني بأن هناك مجموعة جواسيس جُدد يعملون لصالح دولة أجنبية لم يسمها، ويجب الإيقاع بهم. حُددت المهمة بالسيطرة على زعيم المجموعة وهو محامٍ شاب يكتب الروايات البوليسية، وتحويله إلى شاهد مُعترف خلال أقل من أسبوع. استدعيت "مليحة" لمكتبي وأعطيتها صورة "محمد عبد الحميد إبراهيم"، وثلاث من رواياته البوليسية هي "مقتل مريم"، و"خيوط متعرجة"، و"أحلام فاضحة"، وطلبت منها قراءتها قبل الاتصال به. قدم لي "مُرقص أفندي" كما طلبت منه تقريرا مبدئيا عن تحركات الهدف: يستيقظ مبكرا، يذهب

إلى النادي الأهلي في السابعة صباحا، ثم يذهب إلى مكتبه بالزمالك في التاسعة والنصف، ويعود للبيت في الواحدة والنصف، ثم يذهب مرة أخرى في السادسة إلى المكتب ويبقى حتى الحادية عشرة مساء. وفي أيام العطلات تخرج معه زوجته "نسرين" وهي سيدة ثلاثينية شديدة الجمال، ابنة لعائلة أرستقراطية عريقة، ويذهبان إلى السينما أو الأوبرا. يطبع المحامي الروائي رواياته على نفقته الخاصة، لكنه يحقق أرباحا خيالية منها نتيجة إقبال الشباب عليها. قرأت إحداها، فوجدته يُحاكي أجاثا كريستي في الكتابة عن جريمة ما ثم اكتشافها من خلال محقق ذكي يعمل محاميا.

هاتفته "مليحة" أمامي مُبدية إعجابا برواياته، ثم سألته إن كان يرغب في نشر قصصه مسلسلة في مجلة "أقلام جديدة" لكنه اعتذر، فعادت وطلبت لقاءه. وبعد أيام، فاجأتني الشاعرة الحسناء بالعبارة السخيفة التي لا أحب سماعها *"حفرة ف الطريق"*. فاستوضحت منها الأمر، فقالت: *"مُخلص أوي لمراته. بيحبها جدا"*. ثم حكت بوضوح قائلة: *"بامسك إيده سحبها مني، ملت عليه بصدري ولا اهتم، ولما قربت شفايفي منه، قال لي بغرور: على فكرة أنا متجوز وباحب مراتي جدا"*. قُلت لها بدهاء: *"ممكن تكوني معجبتهوش. مش لونه"*. وفكرت قليلا ثم قلت لها: *"مش داخله دماغي حكاية باحب مراتي دي.. أنا هاجيبه زاحف"*. نشرت خبرا في المجلة بعنوان "اتهام محامٍ شهير بسرقة روايات لبنانية وتمصيرها"، ووضعت أغلفة الروايات الثلاث، وقلت في الخبر: إن م. ن، وهو أديب لبناني كبير تقدم ببلاغ

إلى وزارة الإرشاد بشأن قيام محامٍ شهير بسرقة مؤلفاته وتغيير أسماء شخصياتها ونشرها في القطر المصري. ولم تمض ساعات على صدور المجلة حتى أبلغني "مرقص أفندي" بأن "محمد عبد الحميد إبراهيم المحامي" يطلب موعدا للأهمية، فأجبته بمنحه موعدا نهاية الأسبوع.

تباعدت زيارات "أحمد" للمجلة قبل أن تنقطع نهائيا، فبعد ميلاد "نادية" كان يعود من عمله في المدرسة ليجلس معها مدللا ومحتفيا. كانت تشبهني أكثر مما تشبهه، وكان يتحدث إليها كما لو كانت إنسانا يعي، وكنت ألحظ أنها تبتسم كلما رأته، كان يضعها على فخذه، ويقرأ لها عبارات مُحيي الدين بن عربي الأثيرة في فتوحاته المكية، ويقضي الساعات إلى جوارها يُغني كمجذوب، ويمسح بأصابعه رأسها الصغير. وحتى عندما استعنت بمربية أطفال يونانية للاعتناء بها، فقد أبى أن يتركها معها، حتى أن الغيرة انتابتني لبعض الأحيان، وشعرت أن البنت الصغيرة أخذت رفيقي مني. ففتر لهيب الحُب، وخمدت عواصف العشق، وتحول مطر الإطراء إلى قطرات تُقطر بحساب، وردت الأنثى داخلي على ذلك بمشاعر نفور بدأت صغيرة ثم كبرت مع الوقت. كان تملل الملل سريعا في غزو علاقتنا الجسدية، في ظل انشغالي بمهام خطيرة، وانشغاله بابنة جميلة، حتى لاحت المواجهة الأولى.

ذهبت لموعد المحامي الجاسوس في المجلة لأجده جالسا مع زوجي، يحتسيان القهوة. رأيت الرجل طويلا، مهندما، وعلى درجة من الوسامة، وحملت نظراته

بعض الكبرياء. أغضبني تصرف زوجي بالتطفل على الزائر المجهول والجلوس والحديث معه قبل حضوري، فرميته بنظرة عتاب، فهمها لكنه لم يُحرك ساكنًا. قال "أحمد" مُستفزا عقلي: *"تصوري يا هانم. الأستاذ محمد بيقولي إن محرر في المجلة كاتب عنه اتهام شنيع بالسرقة، وإن القصص البوليسية اللي بينشرها هي أساسا قضايا حقيقية اشتغل عليها"*. لم أنطق احتجاجا، فواصل قائلا: *"أنا بلغته إننا هننزل اعتذار له في العدد القادم ونقول إن الخبر غلط"*. استفزتني الكلمة فصحت: *"غلط"*، ثم أضفت: *"أنا مينفعش أبدا إني أقول إن المجلة نشرت خبر غلط"*، ثم تمالكت نفسي، وقُلت: *"بعدين يا أحمد. مش إنت عندك ميعاد. سيبني مع الأستاذ محمد هنتناقش في اللي ممكن نعمله، والحق إنت ميعادك"*. رمقني بنظرة غضب، ثُم لم يلبث أن ابتلعها، ورسم نصف ابتسامة صفراء، وغادر. جلست مع الهدف، وأخبرته بأننا نستطيع أن نُسوي الموضوع بحوار خاص يُدلي به للمجلة، واستدعيت "مليحة" التي ما إن رآها حتى انتبه وتغير وجهه، فقلت له: *"هتقعد مع الأدبية المحررة في مكتبها وتجروا الحوار وكل شيء يتصلح"*. لكن المحامي العنيد نظر لي بارتياب شديد، وقال: *"أنت عاوزين إيه بالظبط؟"*. ثم أشار لـ"مليحة" قائلا: *"الهانم حضرت لمكتبي تعمل معايا حوار وكانت سكرانة"*. نظرت باستغراب لـ"مليحتي" وقلت: *"ياه. إزاي الكلام ده؟ طيب هي دلوقتي مش سكرانة.. ممكن تقعد معاها"*. رمقني الرجل بنظرات فاحصة، اخترقتني، وجابت جسدي كله، وقرأت في فريستي

رغبة متأججة لابتلاع الطُعم، فقلت ببعض التدلل: *"ولا تحب تعمل الحوار معايا؟"*. اختلس نصف نظرة لمفرق نهديّ المكشوف للضوء، وقال بعد أن وضع ساقا فوق الأخرى: *"آه ياريت. أفضل الحوار يكون مع صاحبة المجلة. أنا أديب كبير ولي قراء. وكمان عشان تأكد ان الخبر اللي اتنشر ميخصنيش"*. ثم قال لمليحة: *"لا مؤاخذة يا هانم"*. وأشرت إليها بطرف عيني فاستأذنت، واتفقت مع الهدف على موعد مساء الغد في فيلتي بحدائق القبة.

عندما عُدت المنزل وجدت "أحمد" كما عهدته نائما على ظهره، وبين يديه "نادية" يتحدث إليها. رد تحيتي باقتضاب، ثُم أعاد الطفلة الرضيعة إلى غرفتها، وسألني عن حكاية الرجل الغاضب، فقلت له: *"لا شيء. انسى الموضوع"*، لكنه كرر سؤاله بأنه فقط يريد أن يفهم، فقلت له: *"مش من حقك يا أحمد. إحنا اتفقنا"*. قال سائلا: *"يعني دا شغلك التاني؟"*. فقلت بحدة: *"من غير ما أقولك إنه شغلي التاني. لازم تفهم"*. أشعلت سيجارة لتمتص بعض الغضب المتدفق من وجهي كدم نازف، وقام هو بامتصاص الباقي منه ببعض الصمت المتعمد، ثم هشت قسمات وجهه واستعاد صفاءه، وجلس إلى جواري مائلا برأسه فوق كتفي، ثم حكى لي قصة "أبو الفتوح برجوان". كان هذا الرجل وزيرا طموحا من أهل الذكاء والدهاء، خدم في بلاط الفاطميين، صاعدا على سلالم السلطة ومتنقلا من سيد إلى آخر حتى وصل إلى خدمة الخليفة نفسه، والمُسمى العزيز بالله، فاستأمنه على رعاية ابنه الولد الشقي، غريب الأطوار،

فكان خير مُربٍ ومعلم. وفجأة مات الخليفة العزيز، وحاول شقيقه اختطاف الحكم، لكن برجوان استجمع قدراته، وأوفى بعهده، وسارع بتهيئة الولد الغريب والباسه رداء الخلافة، وأخذ البيعة له، ثم تنصيبه أميرا للمؤمنين، ليحمل اسم الخليفة الحاكم بأمر الله، وخلص الأمر للخليفة الغلام له وصار برجوان وصيا عليه حتى يبلغ. ولما بلغ الصبي أشده، وظن أنه أوتي حكما وعلما، استدعى برجوان وأمره أن يركع، فاستغرب الداهية ألاعيب ربيبه، ثم امتثل للأمر ليهوي سيف بتار على رقبته، فيطير برأسه تماما. وألقى الخليفة برأس برجوان إلى الحرس، وقال لهم إن وزيرنا خدمنا فأكرمناه ثم سعى لخياناتنا فعاقبناه، فأيده الناس واستحسنوا ما فعل.

قُلت له بعد أن سمعت الحكاية: *"جميلة.. سأكتبها في باب قصة الشهر"*، فرد قائلا: *"المهم نتعلم"*. فقلت له بثقة: *"أنا بقى نصيحتي لك. إوعى تحاول تبقى زي برجوان"*. قبلني، واستعاد رقته وقال لي: *"أنا بحبك يا سناء. ونفسي تحرري.. و..."*. قاطعته بوضع كفي على فمه، وقلت: *" يا حبيبي: احنا اتفقنا قبل كده. صح ولا لأ؟"*. هز رأسه تسليما، فقلت له بابتسامة متعمدة: *"قولي يا حماده.. أنت لسه بتشوف الخضر ولا خلاص؟"*. فرد وهو يهز رأسه بالنفي قائلا: *"خلاص يا سناء"*. ثم قام ذاهبا إلى غرفة "نادية".

في الموعد المحدد مع المحامي المتهم بالتجسس، هيأت الجلسة لأخذره قبل أن ينال ما استشعرته من رغبة متأججة تجاهي، وفي حركة ماكرة، بدل كأسي بكأسه،

لكنني لم آبه بما فعل، وشربت حتى الغياب، لأني كنت أتوقع فعله، فكان كلا الكأسين ممتلئ بالويسكي المخدر. بعد أن أفقت، عرفت بأن رجال "سمير بك" سيطروا على الضحية تماما، عروه، وصوروه، وأخذوا توقيعاته على شيكات وإيصالات أمانة، واعترافات بالتجسس والتورط في تنظيمات سياسية، وبدا لي أن الأمر لا يتعلق بشبكة تجسس فقط وإنما قد يمتد لتورط المُحامي في محاولة انقلاب.

عندما خرجت من غرفة النوم، وجدت سمير بك يجلس في الصالون يُدخن ببرود وكأنه روائي ينتظر الإلهام بحبكة درامية لروايته الجديدة. نظرت إليه بتعمق وفكرت عما يدور في رأسه: هل يؤمن حقيقة أنه يخدم الوطن؟ وهل ينام كل ليلة بيسر؟ جلست معه صامتة محاولة استقراء ملامح وجهه الساكنة التي لا تبدي أي تعبير. تذكرت أمنيين كُثرًا عملت معهم لأجزم أنه مختلف تماما. ظل صامتا ينفّث دخان سجائره، لتراقب عيناه في يقظة الزفير الدخاني، وهو يرسم طريقه في الهواء. قُلت له: "كُله تمام؟". فهز رأسه بابتسامة صفراء: "تمام". سحبت سيجارة، فسارع بإشعالها بذوق آخاذ، ونظر لي بتركيز وسألني: "إنتي مبسوطة يا سناء؟". فهززت رأسي بالإيجاب. لكنه فاجأني قائلا: "إنتي عمرك ما كُنت مبسوطة". لم أرد، لكنه واصل: "عارفة يو إنتي مبسوطة. كانت هتبقى في حاجة غلط. حاجة ف الدنيا كلها. إنتي بتمثلي إنك مبسوطة. يمكن حتى بتمثلي قدام نفسك". شعرت بمهانة، وانتابتني حالة قرف، وتذكرت أنني لم أعد أشعر بمتعة مع أحمد، ولم أشعر

بشغف تجاه أي رجل. صار الجميع سواء بالنسبة لي. كنت أحمل في داخلي إنسانا ميتا، أو كائنا حيا لكنه منزوع الشعور. خواء يملأني كبئر في الصحراء جف ماؤها.

وكأنه شعر بحالي، لمحت رقة نادرة ارتسمت فوق قسمات وجهه، ثم امتدت كفه الغليظة ليمسح على شعري بحنان غريب، وقال بعد كبت ابتسامته الصفراء: *"متخافيش الواد ما لحقش يـ.."*. وأشار بيده نحو فتحة صدر فستاني، مضيفا: *"قومي روحي لبنتك وبيتك"*. ابتسمت ساخرة وعلقت: *"ولو لحق"*. كنت متعبة ودائخة، فقمت وأنا أردد: *"الصباح رباح. هنام احسن. راسي لسه تقيلة"*. وعدت لغرفة الكنترول لأرتمي على السرير خائرة القوى.

في الصباح التالي رجعت إلى البيت، فلم أجد "أحمد"، ولا "نادية"، ووجدت المربية اليونانية ذات الردفين الكبيرين مكومة على كنبة الصالون. شعرت بلطمة قاسية على وجهي عندما لمحت ظرفا أزرق، فوق مكتب "أحمد" الذي اعتاد أن يكتب عليه أشعاره وقصصه. فضضته بلهفة، وقرأت ما لم أكن أنتظره أبدا: *"آسف جدا يا سناء. حاولت إنقاذك مرارا وفشلت. فأنعمت مهمتي بإنقاذ جزء هام منك.. نادية. من أجلها.لا تبحثي عني أبدا. سأربيها تربية نقية. لقد رأيتك في المنام بأحضان آخر، ورغم ذلك أسامحك. فوداعا"*. هززت المربية السمينة، ثم صفعتها، فتنهدت وكان من الواضح أنها سُقيت مخدرا مثلما فعلت مع "محمد عبد

الحميد إبراهيم". جلست متململة كأن النار تحتي، وبإباء كاذب رفعت سماعة الهاتف، وأدرت رقما، وقلت في عصبية ظاهرة: "*يا افندم. أنا عاوزة بنتي، جوزي أخدها وطفش*".

***

(31)

السبت 21 يوليو 2001

عاودتني أوجاع الظهر، فشعرت بفقراته تطقطق مثل قطع منثورة من الزجاج المُهشم، والملتصقة معا لتجميع صورة بقايا امرأة تعبر نحو أرذل العُمر. في شرفتي المُطلة على الميدان الشهير، جلست "حُسن" تُدلك عظام ظهري بمرهم "هيموكلار". أدركت أن الألم يتوقف قليلا كلما اقترب منه عقار مُميت للإحساس، لكنه سرعان ما يُهاجم بأسلحة أشرس، وضربات أعنف متى مر وقت الخدر المتوقع. تأوهت مع ضغط رفيقتي الطيبة بأصابعها الدقيقة على مواضع متفرقات من هيكلي العظمي. أظنها قالت لي سائلة: "*باوجعك؟*" فرددت على الفور: "*لا يا حبيبتي*". ثم أوضحت قائلة: "*زعلانة إن نظرية " مرسي الشيخ" طلعت فشنك*". سألت هي: "*مين مرسي الشيخ ده؟*". أجبت بتنهيدة: "*واحد عرفته زمان وقال لي مرة بفشخرة: الإنسان ممكن ما يحسش بالألم خالص، لو فرر بنفسه ده. قلت له: إزاي؟ قال لي: بالتدريب. في فص في المُخ مسئول عن الألم، لو ركزنا أوي فيه مُمكن منحسش بأي ألم. وعطاني إيده وقال لي: اقرصيني، وقرصته وما اتوجعش*". واصلت "حسن" فرش مرهم

التسكين على رقبتي من الخلف، فضحكت وقلت لها مكملة: "الغريبة بقى يا ستي، إن مرسي ده جاله سرطان. يمكن بعد النكسة على طول. رحت أزوره في المستشفى بس عشان أشوفه عامل إيه. لقيته واكل المخدة من الوجع. كان بيخبط راسه في حديد السرير، وكان بياخد مسكنات تهد أسد، لكن الألم مكانش بيتهد".

قالت لي الرفيقة الماكرة: "جايز كان بيضحك عليكي، وكان بيمثل ساعة ما قالك أقرصيني إنه ميتوجعش". قلت لها وأنا أستذكر الماضي: "لأ يا "حسن" أنا عندي نظرية تانية. الإنسان وهو في مجده ومركزه وهيلمانه ممكن ينسى فعلا الألم، ولما يبقى مخلوع من أي قوة وبعيد عن أي سلطة، شكة الشوكة بتخليه يسح دموع". وأضفت قائلة: "تخيلي بقى يا "حسن" أنا محستش بوجع هروب جوزي ومعاه ضنايا وما اتألمتش زي الناس التانية، وكإني مش أم، أو كإن جوزي خطف لعبة من لعبي، وخلاص".

عادت ذاكرتي للحظة اختفاء "أحمد نصر الدين أيوب" ومعه "نادية نصر الدين أيوب" من الوجود كأنهما كانا مجرد خيال. رأيتني أمام "سمير بك" أسأله في ثبات عما فعل ليرد لي ابنتي، فقال بعتاب مر: "دي آخرة إنك تمشي ورا رغباتك يا سناء. حابة الواد كنت جربيه، لكن مش إنتي اللي تعملي بيت وتجيبي كمان بنت وتشيلي همها. أنا عارف إنها قصة غلسة. أنا عندي ولاد ومبشفهومش بالأسابيع الطويلة". ثم قال باهتمام أقل: "على العموم ما تقلقيش. أنا بلغت المنافذ والمطارات

كلها والواد هنعرف نجيبه، ونفهمه غلطه وتطلقي منه".

انتهى اهتمام الرجل الكبير بالموضوع، ورسم خطوط الجدية على وجهه، وهو يُحدثني عن أمرٍ آخر اعتبره هاما جدا، فالرئيس "جمال عبد الناصر" يُريد الاحتفال بالمرأة العربية، وسأكون مُنسقة عامة للاحتفال، وعليّ أن أدعو شخصيات نسائية من بعض الدول العربية مثل الجزائر ولبنان والعراق ومصر ليقوم بتكريمهن، ثم قال لي: *"شوفي كده أسماء الستات المعروفة. يعني واحدة زي الست بتاعة الجزائر دي. جميلة بوحيرد ممكن نجيبها".* سألته وقتها إن كان الرئيس سيُكرمني مع من يتم تكريمهن، فقال: *"طبعا طبعا. إنتي لازم تتكرمي".* ثم منحني ابتسامة رضا وقال لي: *"إنتي متعرفيش إنتي لأي حد بتفيدي البلد. خدماتك عظيمة جدا، والريس وكل القيادات ممنونين لها".*

انطفأ موضوع هروب "أحمد" كعود كبريت طائر في سماء ماطرة، فلم أسمع حسا ولم أعرف خبرا، غير أني بنفسي نشبت أظافري في كل مكان باحثة ومنقبة، لدرجة اختطافي لـ "منير" جار "أحمد" الوحيد الذي حضر زفافنا ليُخبرني بأي شيء يعرفه عنه، لكنه لم يقل سوى أنه أغرب شخص قابله في حياته، فهو يمتلك طيبة ورحمة وشفافية غريبة لدرجة أنه بشره بقدوم ولد كان يتمناه بعد ثلاث فتيات أنجبهن، كما حرضه لزيارة والده في الصعيد، الذي لم يره لخمس سنوات، وذهب بالفعل وكان الوالد في كامل صحته، لكنه توفي بعد ساعات من رؤية ابنه. قلت له في عصبية شديدة بأنني لا أريد أن

أسمع كرامات الأستاذ "أحمد"، وإنما أريد أن أعرف شيئا عن معارف وأصدقاء آخرين لعلي أصل إلى ابنتي المختطفة.

لم أجد شيئا ذا بال، حتى في المدرسة التي كان يخدم فيها، استغرب الناس انقطاعه المفاجئ، وقال أحد زملائه إنه كان يُحدِّث الطلبة عن ضرورة السعي في الأرض والسفر والترحال، وذكر أحدهم أبيات شعر كررها أمامهم تقول: *"سافر تجد عوضا عمن تفارقه.. وانصب فإن جميل العيش في النصبِ. إني رأيت وقوف الماء يُفسده. إن ساح طاب وإن لم يجرِ لم يطبِ. والأُسدُ لولا فراق الغاب ما اقترست.. والسهم لولا فراق القوسِ لم يصبِ"*.

اقتلعني مؤتمر المرأة العربية من بحثي عن ابنتي، هنأني الرئيس بنفسه على حسن تنظيم المؤتمر، وصافحني بحرارة، ومنحني نظرة امتنان شعرت معها بتقديره الكبير لما أقوم به من أعمال في سبيل الوطن. عاتبت نفسي مرارا أنني لم أشي بكراهية زوجي الهارب لزعيم الثورة العظيم الذي ترجرج كلماته عروش الشرق قاطبة. انشغلت عن البحث لأسبوع كامل، وفي لقاء عابر مع السيد "نور سالم"، سألته بشكل مُباشر عن "أحمد نصر الدين أيوب"، فقال بلا اكتراث: *"فص ملح وداب"*. لأتذكر أنني سمعت العبارة ذاتها من الشخص نفسه عندما سألته قبل سنوات عن تلميذتي المختفية "تيتي شيري".

"لا يُمكن أن يتبخر في الهواء" قُلت لـ"مليحة" التي

نظرت لي بلوم مشابه للوم الرجل الكبير، فدعتني لاستشارة "مصطفى أمين" مرة أخرى، ففعلت، لكنه كان مُحبطا وحزينا بعد أن تعرضت مؤسسته للتأميم، وأبعد عنها لصالح دخلاء على مهنة الكتابة، تم تعيينهم لقيادتها. قال لي الصحفي الكبير بإخلاص حقيقي: *"أعتقد أنهم قادرون على إعادة ابنتك مرة أخرى، لكنهم لن يفعلوا"*. سألته عن السبب، فشرح وجهة نظره بأنهم يحتاجون أن يبقى مَن يعمل معهم في حاجة دائمة لهم. وتنبأ الصحفي الكبير بأن أكلف بتكليفات كبيرة وصعبة وخطيرة في المرحلة القادمة. وصدق حدسه إذ فوجئت بعد أيام قليلة من المؤتمر باستدعاء عاجل من "سمير بك" سألني فيه عن أحوالي وأخبرني بأن زوجي سافر بأوراق مزورة إلى لبنان، ومنها إلى السعودية، وهو مستقر هُناك، لكنهم سيعيدونه قريبا. سألته: *"أين يقيم بالضبط؟"*. فقال: *"في الرياض نفسها"*. ثم استدرك مكررا بألا أقلق، وأن المهم هو أن أركز في المُهمة التالية لأنها مصيرية وستحدد مستقبل عملي في الفترة القادمة. وكشف لي الرجل عن المهمة بوضوح قائلا: *"نُريد أن نُسيطر على صانع القرار الحقيقي في البلد"*، انفلت مني اسم الرئيس بتلجلج، لكن السيد أشار بكفه أن أصمت وقال مبتسما: *"الرجل القوي في البلد ليس هو الرئيس"*. ثم أوضح التكليف بأنهم يريدون فتاة مبهرة الجمال، لها قوام مغرٍ، ولباقة ولطف، وتمتلك ذكاء حقيقيا للدفع بها في طريق الرجل القوي ليتم التحكم فيه عن بعد. قلت له: *"لو كانت تيتي شيري موجودة لاستعنت بها فهي ذكية ولبقة"*. لكنه قاطعني

قائلا: *"انسي الناس دي كلها. عاوزين واحدة جديدة".*

نفذت التكليف بعناية واهتمام، واخترت بالفعل فتاة ساحرة تبحث عن نجومية فنية، لكنها أصرت أن تعمل مباشرة مع الرجل الكبير، الذي وافق على الفور، فذهبت إليه واتفقت معه، لكنني اندهشت عندما أخبرني "سمير بك" ضاحكا بعد بضعة أيام بأن البنت الذكية ضحكت على الجميع. استفسرت منه عما حدث، فقال لي: *"هتتجوز الرجل".* ثم قهقه وقال: *"مش مهم.. عملتي اللي عليك".*

كررت حديثي عن ابنتي دون جدوى، فقد كانت الاستجابات ضعيفة حتى صور لي خيالي يوما أن "أحمد" نفسه يعمل معهم، وأنهم متفقون جميعا ضدي.

وبعد إلحاح أخبرني "نور سالم" بأن زوجي مقيم بالفعل في السعودية، وأنه لا فرصة للتدخل في الوقت الحالي، لأن العلاقات بين البلدين متوترة، وأن الأسلم أن أطلق نفسي منه.

قصاصة:

يتداول الناس نكتة عن زيارة المشير عبد الحكيم عامر إلى الجزائر تقول أنه عندما التقى الرئيس الجزائري هواري بومدين في المطار احتضنه وقبله ثم قال له: "إنت عملتها إزاي؟". (يشير ذلك إلى نجاح بومدين في الانقلاب على بن بله).

من تقرير رأي عام في يوليو 1965.

***

(32)

السبت 28 يوليو 2001

أدّبني الألم. غلبت كل خصومي لكن الزمن أبى أن أربح حتى النهاية. مسلوخة كأرنب، وممددة على طاولة الكشف، بلا خرقة واحدة تستر عُري روحي. سحقت كرامتي لأنزع كل ثيابي، وأكشف مخازي أرذل العُمر. شعرت بالخجل لما لامست سبابتي جلدي المكرمش، وفاض بي التقزز من ازرقاق الفخذين والساقين. قرأت في عيني طبيب شاب يمد أصابعه تحت قفاز طبي ليتحسس جسدي قرفا لافتا، وودت لو قلت له بأن رجالا عظاما اشتهوا في زمن آخر لمسة واحدة لهذا الجسد المُهترئ، فنعهتم كبرا. قلبني يمينا ثُم يسارا، وقال بآلية مقيتة: *"القُرحة كبيرة أوي وعميقة. لازم تلتزمي بالمرتبة الطبية والمراهم اللي كتبتها"*. فاض بي الكيل، وقلت بسري "ما العذاب يوم القيامة إن كان هذا الأدنى بكل هذه البشاعة!".

عُدت خائرة مهزومة مثل كل زيارة تُجرجرني فيها "حُسن" نحو طبيب ما تقول إنه عظيم ومُجرب. بدا كُل شيء مريرا، وكأن الستار بدأ انسداله لأودع المسرح، فرغم طمأنة طبيب الأورام لي، قرأت بحسي المباحثي في عيني "حُسن" نظرات الوداع. سرحت فيما كتبت من مذكرات، ونسيت أين توقفت وطلبت من رفيقتي أن تجلب كراسة التدوين من دولابي، فأطاعت في صمت. قلت لنفسي إنني على عجل، فرصاصة النهاية توشك أن تصل إلى الجسد المُنهك الذي يئس من

المعاناة.

رميت نظرة مُسرعة على آخر ما دونته، وسرحت وتذكرت وفكرت في صراعات الأفيال الجديدة التي تولدت فجأة في زمن سطوع الحلم الناصري. كان البلد يكبر ويتسع وتطول ذراعاه بسرعة وتتنامى تأثيراته، ويعلو صوته في كل مكان بحق وبباطل وبكل وسيلة مُمكنة. ومع التمدد والصعود تولدت صراعات شرسة بين ضباط وساسة، ياقات وستر أنيقة، عيون موحية وألسنة لبقة، صفوف من البشر، ألوان وأصناف، شلة في مواجهة شلة أخرى. كان الكل يلعب، ويتحرك، ويكذب، ويخدع، ويخون، ويزوّر، ويقتل أحيانا. حرت وقتها مثلما حار كل العاملين في المؤسسة في وجهات ولاءاتهم. أسرّ لي "حسن رفعت" بعد أن بلغ من الكبر عتيا، وترك العمل وانقطع للعبادة والتصوف، منتقلا لمزرعة مهجورة بأطراف الجيزة بأنه قلق على كل شيء، وأنه يتصور أن أعداء الدولة صاروا ضلوعا مغروسة فيها ولم يعد أحد قادرا على التفرقة بين الضلوع المساندة والضلوع الدخيلة. لفت الرجل نظري إلى ضرورة أن أخفت حدة حماسي بجمال عبد الناصر حتى لا أثير حفيظة كارهيه وخصومه السريين المنتشرين في كل مكان، وقال لي ذات يوم: *"إن مصر لم يحكمها أبدا فرد، حتى في زمن محمد علي. هناك شلة تتسع وتضيق وكثيرا ما تبدل شخوصها ومراكزهم"*. وهمس لي قائلا: *"إن عبد الناصر جريح بعد انهيار الوحدة مع سوريا، ومريض وليس في يده سوى الميكرفون، لكن البندقية مع صديق عُمره الذي صار خطرا على حياته"*. لم

أكترث كثيرا لتحليلات "حسن رفعت"، الذي اعتدت منه التّرثرة العبثية خاصة بعد أن تدروش. ولاحظت أن "نور سالم" يُعاملني ببرود متعمد، بينما تباعدت لقاءاتي "بسمير بك"، الذي أبلغني رجاله بأنه منشغل جدا، وأن عليّ العودة مرة أخرى لتقديم تقاريري إلى "نور"، وهو سيرفع له ما يراه مهما. أصبت بصدمة موجعة عندما طالبتني الضرائب بسداد مئة ألف جنيه عن أرباح المجلة في السنوات الماضية، واستغثت بـ"نور" فأخبرني أنهم لا يمكن أن يتدخلوا في عمل الضرائب. وفي الوقت ذاته تغيرت معاملة "مليحة" لي، وطلبت مني رسميا زيادة راتبها وتعيينها مديرا عاما لتحرير المجلة، ولم تلبث "وداد" أن سارت على خطاها حتى أصبحت لا أطيق النظر إليهما. وعلى مدار سنة كاملة لم تطلب مني المؤسسة تنفيذ أي مهام، وحتى عندما أصدرت كتابا عن تاريخ المساجد في العالم، ودعوت بعض رجالها لم يحضر أحد، وفجأة أخبرني "مرقص أفندي" بأن معظم الشركات المعلنة في المجلة أبلغت إدارة الإعلانات بإلغاء تعاقداتها. وحتى يوم الاحتفال بالثورة لم أدع كما كان يحدث كل عام، وهو ما أثار غيظي لدرجة أنني ذهبت في اليوم التالي إلى قصر إقامة "سمير بك" في الهرم، وصممت على الدخول وعلا صوتي، لكنه لم يكن موجودا. وظللت بعيدة أو مُبعدة لأسابيع طويلة حتى حملت نفسي ذات صباح إلى مبنى المؤسسة وكررت طلبي مقابلة "سمير بك" لأمر غاية في الأهمية، وبعد قليل جاءني "نور سالم" وأخبرني أن الرجل الكبير مشغول كثيرا، وأن عليّ أن ألتقيه مساء في قصر الهرم.

شعرت بحاجتي لصديق، فررت على "ماجد شهدي" في عيادته، وفاجأني بما لم أتوقع عندما أخبرني بأنه تلقى خطابا من زوجي، تركه مجهول في عيادته، يطلب فيه منه أن يطمئنني على "نادية"، ويطلب مني مسامحته. طلبت الخطاب، وفضضته ولم يكن فيه سوى ثلاثة أسطر تقول: *"عزيزي الدكتور ماجد: أعرف أن لك مكانة عظيمة عند زوجتي المصون، وأطلب منك أن تطمئنها على ابنتنا. ستكون أفضل حالا. وقُل لها إنني ما زلت أحبها، لكن واجبي تجاه ابنتنا دفعني لمغادرة البلد. أتصور أن الفتاة ستعيش حياة أفضل بعيدا عن عمل والدتها. سأخبرها عن أمها كل جميل وحسن.. اتمنى أن تكرر رجائي لها أن تسامحني. احترامي".*

قُلت لـ"ماجد" بكل غيظ: *"كلب. غدر بي"*. فردَّ بأنه معذور كأب يحاول رسم طريق مثالي لابنته، وكانت هي المرة الأولى التي أشعر فيها أن "ماجد" يعرف كل شيء عن عملي السري. سألته عن تصوره للمكان الذي ذهب إليه "أحمد"، فقال لي: *"في الغالب هو خارج مصر. ورأيي إن بعده وبعد نادية عنك ممكن يكون هو الأفضل. مصلحة بنتك ف كده"*.

- *"حتى مصلحة بنتي مش أنا اللي باقررها"*.

ابتسم واحتضنني بحنان حقيقي، وأيقنت أنه ما زال واقعا في غرامي.

في المساء ذهبت إلى الموعد المحدد، واستقبلني "نور سالم" على بوابة الفيلا، كما لو كان ينتظرني، ثُم أدخلني إلى غرفة صالون وجلس معي ننتظر إذن "سمير بك"

بالدخول. مرت ساعة كاملة حتى دق جرس معلق على باب الغرفة، وقمنا معا، ودخلنا لنجد امرأة حسناء تميل إلى السمنة تجلس أمام "سمير بك" كصديقة عتيدة. نظرت في وجهها فوجدته مُشربا بحمرة ساحرة، وبدت عيناها تشعان إغراء مُدهشا. قالت لي إن اسمها "ميمي" وأنها تعمل في مجال تحميض الأفلام السينمائية إذ تمتلك وتدير معمل تحميض حديثا. بدت محاولاتها التدلل بتكلف على الرجل مثيرة للاشمئزاز ولم أطق حركاتها حتى غادرت. لم أتخيل وقتها أن تُصبح هذه الحسناء مخلب قط يُمزق وجه "سمير بك" نفسه فيما بعد، وتشوه كل أعمالنا الوطنية. لقد كانت هي نفسها التي سجلت -بعد تبدل إدارات ورحيل أسماء كبيرة- كتابا خياليا حول الرجل وأعماله ضمنته كثيرا من الحكايات الملفقة، وقدمت نفسها باعتبارها ضحية تعرضت لتعذيب وإرهاب.

كان "سمير بك" يرتدي بدلة زرقاء أنيقة، غير أن كرافتته كانت نصف محلولة ولاحت قسمات وجهه لتظهر نوعا من الإرهاق كما لو كان عائدا من ماراثون طويل، فخمنت بحسي الأنثوي أن يكون الرجل قد فرغ توا من ممارسة الجنس، غير أن ظني الأمني استبعد ذلك، فلا يوجد ما يجبر رجلا مُحنكا وخطيرا مثله على الوقوع في مثل هذه الترهات التي يقع فيها ضعاف النفوس. قلت لنفسي: إنه يبدو في حالة قلق لم أشهدها من قبل، وفي أغلب الظن فقلقه لا يخرج للعلن إلا لو كان هناك منافسون أقوياء يحاولون إخراجه من المشهد، وكما تعلمت في مدرسة الأمنيين، فإن الحل دائما يكون

في حبكة درامية لمؤامرة ضخمة يكشفها لسادته ليبقوه باعتباره صمام أمان. رميت إليه بنظرة عتاب، لكنه بدا منفعلا وهو يقول لي: *"أنا مش مبسوط بأدائك في الفترة الأخيرة، وشايف إنك لازم ترتاحي"*.

شعرت ببدايات تقريع، وحاولت أن أنطق، لكنه أشار بكفه إشارته المعتادة لأصمت، وواصل قائلا: *'إحنا معندناش حد يمشي براسه، اللي بيمشي براسه لازم نقطعها له. ومع ذلك سامحناك وعديناك كتير، لكن نروحي تزوري مصطفى أمين بتاع الأمريكان، فمعنى ده إننا منقدرش نثق فيك"*.

- *"أنا طلبت منه يساعدني عشان أحمد و..."*.

رفع حاجبا دون الآخر ومد كفه مرة أخرى مُحذرا أن أتكلم، وقال بصوت غاضب: *"بس"*، ثم واصل قائلا: *'أنا عاوز أقولك إن مصطفى أمين اتقبض عليه عشان بيتآمر على الريس، والنيابة موجهة له تهمة التخابر. شفتي إزاي كنت هتوقعي معاه"*.

شعرت بكم غل شديد يطفح من محدثي تجاه "مصطفى أمين" وقلت بصوت هامس: *"مكنتش عارفة"*. وحاولت التبرير قائلة: *"كُنتم بتستقبلوه وتكلفوه وياما كتبت لكم إنه مبيحبش الريس وكُنتم مبسوطين وساكتين"*.

خبط على مكتبه بعصبية قائلا: *"قلت بس. متنطقيش خالص"*.

حاول تهدئة نفسه، فرفع سماعة الهاتف وتحدث لشخص قائلا: *"روبي. البت اللي بتمثل دي عملتم معاها*

إيه. عاوز همة شوية".

شعرت أنه يُرسل لي رسالة، نظر لي بتجهم شديد، ثُم وضع السماعة وقال:

"بصي يا سونا هانم. لازم تعرفي إننا ما بنلعبش. إحنا مسئولين عن بلد. وإحنا عندنا عميلات كتير زيك وأحسن منك كمان. صح؟".

هززت رأسي، فواصل قائلا: "إنتي متعرفيش الناس كلها. وكل واحد بياخد دوره ويركن. أنا بقى شايف من غير ما نحاسبك على غلطاتك إنك خلصتِ طلقتك. وشايف إن المجلة بتاعتك مبقتش مؤثرة زي الأول. دي على العكس بقت خطيرة. بقى عندك شيوعيين بيكتبوا فيها، وسيطرتك عليهم مش كاملة. في كل عدد بتنشري قصايد للولد الشاعر اللي اسمه الأبنودي بقى موجود كمان عندك السيد شوشة، وعبد المنعم شميس. وإنتي مبقتيش تستأذني حد ف الناس اللي بتكتب في المجلة".

فكرت للحظات ثم قلت بنبرة امتثال: "خلاص يا فندم.. أمشيهم كلهم".

- "لأ لأ. نقفلها أحسن".

قُلت بقلق حقيقي: "متنساش يا سمير بك إني نفذت مهمات كتير عظيمة للبلد من خلال المجلة دي".

أطفأ سيجارته، وقال في برود: "مش ناسي. إحنا مقدرين كل اللي عملتيه قبل كده. وهو دا اللي هيغفر لك. لكن من هنا ورايح. إحنا منعرفكيش،

ومعرفناكيش أصلا قبل كده".

رددت على الفور: "أنا بنت المؤسسة، وولائي لها وحياتي بعيد عنها ولا حاجة".

- "معدش ينفع خلاص يا سناء. الكلام انتهى".

- "طيب والريس؟".

- "الريس ميعرفكيش أساسا. إوعي تكوني فاكرة أنه عارفك عشان سلم عليك. وإوعي تحسبي أنه كتب لك مقدمة كتابك. إحنا اللي كتبنا. واللي زيك كتير، هو حتى ميعرفش إنك عملتي عنه كتاب فيه قصة حياته. دا كله شغل يا سناء. هنقفل بقى الصفحة".

- "كده هاموت".

- "ولا هتموتي ولا حاجة. وبعدين يا ستي حتى لو هتموتي ما كلنا هنموت".

كان هذا هو اللقاء الأخير لي مع الرجل المرعب الذي تحدثوا عن جبروته فيما بعد، ولم أره مرة أخرى إلا بعد عامين وهو في قفص حديدي بمحكمة الثورة، وأنا أدلي بشهادتي أمام سترات داكنة ووجوه شاحبة، وعيون متقدة. وقف الرجل هصورا كأسد ما زالت أنيابه قاطعة، وظلت عيناه تحملان النظرات ذاتها التي لا تهاب أحدا، وكأنه يُدرك أن المحاكمة كلها مجرد مسرحية، ولم يلبث أن أفرج عنه وظل مقيما في منزله، مُدانا في نظر الناس، لكنه مؤمن في قرارة نفسه بأنه قدم دورا عظيما للوطن.

لقد اتهموه بالخروج عن مقتضى عمله الفعلي،

وباستغلال السلطات المخولة له لأغراض شخصية، ولم يلفت نظري في ذلك سوى قضية الأديب المحامي "محمد عبد الحميد إبراهيم"، حيث اتضح أن واحدا من السادة الكبار كان واقعا في غرام زوجته الفاتنة "نسرين"، وأنه طلب إزاحته بأي ثمن، لدرجة أنه بكى أمام "سمير بك" مستعطفا. وفيما بعد كتب سمير بك ما يشبه المذكرات، وقال فيها إن جميع الأخطاء التي ارتكبت خلال مسيرة المؤسسة تمثل ثمنا زهيدا أمام ما حققه لصالح الوطن، وقال أيضا أن ضرورة العمل السري تجعله يتقبل وصمه بأحط التهم وأبشعها في نظر الناس عوضا أن تتكشف تفاصيل أعمال سرية تمس أمن البلاد.

في يونيو 1967 لم تكسرني الهزيمة المريرة وكأني كنت على يقين من وقوعها. مات "حسن رفعت" قبل أيام من المعركة بعد أن تنبأ بسقوط عبد الناصر ومشروعه ودولته سقوطا مُزريا. أغلقت المجلة أبوابها، وصالحت مُحرريها في أسى، وودعني أحدهم واسمه "عبد الله" ولقبه "ميكي ماوس" بدموع دافئة قدرت أنها حقيقية. انفضت النساء من حولي، تاب بعضهن، وانتقلت أخريات للعمل في فنادق وملاه ليلية، سافرت "مليحة" إلى الأردن بعد أن تزوجت من شاعر فلسطيني وهب حياته للقضية، وأحيل "نور" إلى التقاعد ليتحول إلى "يوسف حسين" جديد لا هم له سوى الشراب والبكاء على ما فات. وفي يوم ما رأيته مصادفة في أحد الفنادق، وسألته مرة أخرى عن "أحمد" و"نادية" فقال لي في حيرة: *"الحقيقة يا سناء معرفش يقينا. الواد اتبخر فعلا. بس الحقيقة برضه إحنا ما اهتمناش*

بالموضوع أوي. كان سمير بك رأيه إنك لازم تدفعي تمن غلطتك".

فيما بعد زارتني لجنة إدارية عليا طلبت مني أن أوقع تنازلا عن فيلا حدائق القبة وأرض باسمي بالمرج، وأطعت في صمت، وانقطعت علاقاتي تدريجيا، وإن قاموا بترتيب معاش لي كموظفة سابقة بهيئة الاستعلامات، قبل أن تبلغني مصلحة الضرائب رسميا بقبولها حفظ النزاع القائم سابقا تحت زعم إفلاس المجلة.

قبلت برضا نفسٍ عرضٍ "ماجد شُهدي" بالزواج، شريطة ألا نُنجب معذبين جُددا في هذه البلاد، وقنعنا بدخله من العيادة إلى جانب محل أحذية قمت بشرائه وتأجيره.

ونقل لي الصحفي اللبناني "سعيد فريحة" يوما طلب "مصطفى أمين" بأن أسدد ديني له، حيث يرغب في تقدمي للشهادة في المحكمة لأؤكد بأن "سمير بك" قام بتعذيبه، ورددت عليه بأنني على استعداد لرد الدين بكل وسيلة غير الشهادة الزور، وأنني لن أشهد إلا بما رأيته بالفعل، وأنا لم أشاهد "سمير بك " يقوم بتعذيبه. وأخبرته بأنني حكيت كل شيء بصراحة أمام محكمة الوطن ولم أغير حرفا مما شاهدت. ولم تمر سنوات حتى انقلب "سمير بك" إلى ضحية يفترسها كل نمام، ووصل الأمر بشخوص كثر كانوا يبذلون كل غال للتقرب من الرجل أن تحولوا إلى منصات تشنيع عنيفة ضده ونشر بعضهم في صحف بيروت حكايات مُرعبة عن زمن

الخوف وعصر الفساد، وكان مما لفقه البعض أن ربيبتي وتلميذتي الجميلة "تيتي شيري" تم تصفيتها لأنها اكتشفت ضعف أحد السادة الكبار جنسيا وهددت بفضحه، وهو ما أيقنت أنه افتراء، خاصة أن "نور سالم" كشف لي في لحظة رضا، بأن الإدارة وافقت على طلبها لمحو تاريخها، بعد أن أحبت واحدا من القادة الثوار في أحد بلاد إفريقيا، واقترنت به، واختفى ذكرها كأن لم تكن.

ظللت أكتب مقالا شهريا ثابتا في إحدى المجلات العربية مستدعية قصص الفخر والنصر في تاريخنا العربي حتى وقعت حرب أكتوبر، وعبرت قواتنا قناة السويس، ومن بعدها لُذت بالصمت ولم أعد أهتم بأي شيء سوى الذهاب إلى السينما مع "ماجد" الذي زاره المرض الخبيث مبكرا، وطال عذابه وامتد علاجه لسنوات طويلة، ثم اعتزل الطب، وبات حبيس شقتنا في وسط البلد حتى وفاته قبل أيام قليلة من مظاهرات الغضب ضد الغلاء والتي أطلق عليها الرئيس السادات "انتفاضة الحرامية". قُبيل موته بأيام قليلة اعترف لي بأنه عمل لفترة وجيزة في حياته بالمؤسسة، وكانت مهمته غريبة جدا إذ كُلف يوما من قبل زائر غامض تبينت أنه "نور سالم" بكتابة ما يوحي به بعض الشخصيات الشهيرة خلال إفاقتهم من البنج عقب إجراء عمليات جراحة عظام، واقتصر الأمر على شخصيتين فقط، ثم انقطعت صلته بالمؤسسة تماما عقب هزيمة يونيو، وهو ما أراحه كثيرا.

ظل "مرقص أفندي" حريصا على زيارتي كل أول

شهر، ليتسلم مبلغا من المال يرسله إلى أشقائي الذين لم أرهم مرة أخرى، واستمر الرجل مخلصا في مهمته حتى رحل عن الدنيا تماما نهاية السبعينيات، فلم أجد أحدا غيره يمكن أن أئتمنه على سري الأعظم.

لم أخجل من مسيرتي ومن كل خطاياي ما دامت في سبيل الوطن، ولم يوجعني سوى لقب "ابنة الديكتاتور" الذي أطلقه عليّ يوما مصطفى أمين، فبعد تفكر وتدبر اقتنعت تماما أن أقسى ما بُليت به بلاد العرب هي الديكتاتورية، فهي تُجهض كل مشروع طموح لصناعة المجد، ولولاها لسبقنا أوروبا في المدنية والتقدم. صحيح أنه أطلقه عليّ كوني ابنة إسماعيل صدقي، لكنني شعرت أيضا أنني ابنة لجمال عبد الناصر، ونظامه الذي انغرس بتربة مصر مُغيرا لأدمغة وسلوكيات وثقافات إنسانية، وللبلد كله.

غلبني الزمن كما قلت مرارا، فنسيني الجميع، ولم يعد أحد يذكر مجلتي، قصصي، كتبي، أفلامي، صوري، وحتى مقالاتي، وكأنني تعرضت لعملية محو ناعمة، فعشت منسية ووحيدة لكن مستورة، وكل أملي أن يعود يوما ما "أحمد" ومعه ابنتنا ليجتمع شملنا مرة أخرى. لقد سامحته تماما والتمست له ألف عذر وعذر، فما فعله رغم مواجعه، كان في صالح قطعة السكر الوحيدة في حياتي. الحبيبة "نادية".

***

فيروز الصاوي

ربيع 2022

رمّش بطرف عينه، لما سمعني أُدندن بصوت عال وكأني فيروز الجبل لا فيروز الصاوي "غيبي ولا تغيبي.. يا نجمة كفر غار.

يا قمر حبيبي. زهرة ع باب الدار". ارتخت قسمات وجهه المُكرمش، وشعرت بابتهاجه. جلس مُنتبها وأنا أحمل بين يدي ملف "سناء بكاش". شعرت بعذابه، على فعل لم يكن أمامه سواه، فقد غاب بإرادته عن حبيبة قلبه، من أجل أن يُحافظ على صورتها في عيني ابنتهما. أو ربما خاف أن يكرهها وهو المُحب العاشق أن تخدش قصة الغرام العظيمة التي تصورها. ابتسمت ادعاء، وأنا أغني: "نامي ولا تنامي.

يا زغيرة الربيع. نامي بالسلامة قبل الدني ما تضيع".

قبل ساعتين بالتمام شرحت لزميلي حسن بشير الطبيب المتخصص في الأمراض العصبية، الذي انتدب للعمل في القاهرة، عبر الواتساب حالة جدي، فكتب لي مُشخصا: "حالة من حالات "ألزهايمر" الشائعة، وفيها تفقد خلايا المخ وظائفها تدريجيا، فتبدأ الذاكرة الحديثة تتأثر ثم يتأثر الإدراك والتركيز بعد ذلك، ويلي ذلك سريعا تأثر مراكز الكلام، فيصبح هناك صعوبة في النطق، ومع الوقت يصبح السير عسيرا جدا، ثم يتأثر التحكم في الإخراج، ويختلف الأمر من حالة إلى اخرى. ففي بعض الأحيان يصاحب "ألزهايمر" قصورا

في الدورة الدموية في المخ. بالقطع لا يوجد علاج نهائي، لكن يمكن تقليل تدهور المرض بشكل كبير، ويمكن عبر جلسات محادثة وحكي تستقر الحالة بعض الشيء، لكن هذا الاستقرار مرحلي إذ لا يلبث أن يتدهور الأمر سريعا عند أي نوبة اكتئاب".

شاكستني نفسي قبل أن أقرر إلقامه في الحكاية. في البدء شعرت أنني أزيده عذابا وأحمّله وزر الفرار في يوم وليلة بفتاة رضيعة، وحرمانها من أمها تحت لافتة الحب. لو ناقشته لقلت له إن الحب لا يعني الوصاية، وهو بنفسه علمني في الصغر أن أختار ولو اختاروا لي، وأن أقرر بإرادتي الحرة ما آكله وما ألبسه. فكرت أن ما فعله جريمة وتذكيره بجريمته يوجعه، وهو ذاته يبكي كل حين ربما ندما على حرمان ابنة من أمها وأم من ابنتها. وربما شوقا لأيام ولّت كان يدق قلبه بنبض الحب. دوختني الحكاية، ولم أشعر بقدرة على المشاغبة معها. من الجاني ومَن الضحية؟ مَن الظالم ومَن المظلوم؟ ولمَ لم يواجه ولم لم يحاول مرة أخرى؟

زاد شعوري بأن في الورق مُسكّنا لأوجاعه ودواء له. تصورت أن اطلاعه على ما دونته سناء ربما يُريحه، خاصة أنها تجلد ذاتها وتلتمس له بعض العذر فيما فعل، وهو ما قد يُطيب خاطره ويشعره بمسامحتها إياه.

رفعت كفه وقبلتها، فأغمض عينيه أسفا، قبل أن أفتح ببطء شديد أمام ناظريه الملف الأصفر، ثم أقرأ بصوت عال. ركّزت عيناي على قسمات وجهه محاولة استنطاق علامات تكذيب أو تصديق لما هو مُدون.

طاف برأسي هاجسٌ غريب استعدت فيه جانبا مما روته لي الحاجة حسن، إذ قالت إن الإعلان تم نشره يوم الرابع من إبريل الماضي. تذكرت أن هذا اليوم كان في شهر رمضان، وأنني لم أشتر أي صحيفة خلال رمضان، كما أن جدي لم يخرج بتاتا خلال الشهر الفضيل. سألت أم إبراهيم إن كانت رأت جدي طوال الشهور الماضية، وهو يقرأ صحفا، فعقدت حاجبيها استغرابا ونفت تماما. فكرت بصوت عالٍ مع منى وسألتها عن تفسيرها، فقالت: *"يمكن ورقة الجورنال جت صدفة وهو بيطلب أي دوا م الصيدلية"*. استبعدت التفسير وقلت لها: *"محصلش قبل كده إنهم نفوا أي أدوية بجرايد. بعدين اشمعنى يعني الورقة اللي هتوصله مخصوص صدفة هي اللي فيها الإعلان الغريب بتاع الست حسن"*. بدا الأمر محيرا وظل كذلك مثل كثير من تفاصيل الحكاية.

أخذت صورة سناء بكاش الصغيرة التي عثرنا عليها في مكتب جدي، وقمت بتكبيرها بواسطة برنامج تصوير، ثم طبعتها على لوح خشبي جميل لأعلقها لجدي على يمين فراشه. أخبرته أن سناء لم تفارقه طوال الستين عاما الماضية، وهي تستحق رد اعتبار تأخر كثيرا بالسطوع علنا أمام حفيدتهما، حتى لو كانت قد رحلت عن الدنيا. كنت أدرك إيمانه الحقيقي بأن الموتى يشعرون بنا ويعرفون عنا الكثير، وهو ما سبق أن شرحه لي يوما وهو يذكر لي آية ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. شعرت بابتهاجه لما فعلت، وعلى مدى أيام تالية لاحظت تعلق

بصره بالصورة لينظر إليها فور استيقاظه ويُتمتم بشفتيه كأنه يرتل القرآن، وهو ما جعلني أرجح أنه يقرأ الفاتحة على روحها فور مطالعتها. وظل طقس جدي اليومي مكررا كما كان إذ أحمله صباحا إن كنت في البيت، ثم أحضر له أجندته ليقرأ الفاتحة على أرواح الأسماء المدونة فيها، ومنها اسم سناء مرة أخرى، ثم يتناول طعاما خفيفا، ويبتلع حبوب الأدوية التي تكاثرت بعد زحف ألزهايمر، ثم يغفو ثانية، دون أن يبس بينت شفة.

***

سرت إلى جواره، وأنا أعرض عليه حالات القسم وما تلقتها كل حالة من علاج على مدى الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، وكان ونحن سائران، وأنا الأطول قليلا يهز رأسه بتعجرفه المُعتاد، محافظا على نظرات القرف الكريهة التي توزعها عيناه المتقدتان على المرضى يمينا ويسارا. لاح الدكتور محمود شديد صباحا مُفتشا علينا تفتيشه المعتاد، بزعيقه المُتعمد، وعصبيته الفائضة، ثم توقف فجأة خلال سيره معي، كأنما تذكر شيئا ما، والتفت نحوي وسألني عن زميلي حسام، مسبقا اسمه بكلمة "الواد"، فأخبرته بأنه متعب ويشعر بالإنهاك من البقاء لست وثلاثين ساعة متصلة دون نوم.

منحني رئيسي نظرة اشمئزاز، ومط شفتيه اعتراضا، ونظر لي وكأنه يضمني لعموم الوصف قائلا:

- "جيل مهبب تعبان ومخوخ".

قُلت له في غيظ مكتوم: *"على فكرة.. الدكتور حسام جد جدا، ومُجتهد ومخلص للشغل بس هو ساعات بيتعب من كتر الحالات وقلة الإمكانيات".*

ولم أكمل شهادتي، فقد أشاح بوجهه، وعلا صوته قائلا:

- *"متدافعيش عنه.. دا واد طري".*

وشعرت بالتلميح الذكوري الفج في كلمة "طري" وضبطت أعصابي، فلم أرد.

واصل الطبيب الغاضب جولته التفقدية سابا ومنتقدا إهمال الممرضات، وكسل المترجيات، واستهتار المس نبيلة، ووضاعة البنت فتحية، وجهل الدكتورة حليمة، وضعف الإدارة، وتراخي قسم التفتيش، ولا مبالاة مديرية الصحة. تطايرت شذرات من لعابه اللزج لتلوث وجهي، وأنا أحافظ على ثباتي بصبر، ما زاد انفعاله ودفعه لتكرار امتعاضه من زمن الحريم السمينة التي خربت كل شيء في هذا البلد.

"الجواميس اللي أنت شايفاها دي"، وأشار بيديه كأنه يرسم مؤخرات ضخمة، مضيفا: *"كل واحدة بتتعلف، وتتكور، ومفيش مخ، وعاوزين حقوقهم. طب افهموا الأول".* كتمت غيظي، وتساءلت عما تكون عليه بنات هذا الرجل من حال وهن يرينه هجرا صلبا، لا تزوره ابتسامة، ولا تخرج من فيه كلمة طيبة. كيف يُمكن لإنسان أن يُعايش كُلة قبح بهذا السوء؟ وكيف تتحمل فتاة أبا قاسيا حادا إلى هذا الحد؟ فكرت وأنا أتملى في قُبحه الروحي أنه لو كان إنجابه ثلاث فتيات دون

ذكور اختبارا من الله، فقد أعلن الرجل رسوبه مبكرا.

قالت لي مس نبيلة بعد مغادرته حاكية:

- "على فكرة يا دكتورة.. البت هيام ملوعة الدكتور شديد على الآخر، وبتقولي عليه...".

ثم خفضت صوتها واقتربت من أذني وهمست: 'مبيعرفش".

ابتلعت النميمة على مضض، وشعرت برغبة آثمة في الانتقام من هذا الذكر المتعجرف وأكل لحمه نيئا على كراهتي، فسألتها بخبث:

- "يعني إيه يعني.. مش فاهمة قصدك".

فواصلت إذاعة لندن الجديدة بثها قائلة:

- "إمبارح.. كان بينادي على هيام، وهي في أوضتها، بتغيّر أو عاملة نفسها بتغيّر، بعدين ما ردتش، ففتح الباب بشويش ودخل عندها وأنا شفته، وبعد عشر دقايق خرج عرقان وبيرتعش، وخد شنطته ونزل علطول، رحت للبت وقلت لها مش هتبطلي شغل الشمال، فحلفت لي بالعظيم إنه معملش أي حاجة عشان مبيقدرش".

- "معقولة؟!".

- "أيوة يا دكتورة. عشان كده باحمد ربنا على نعمته. أنا إمبارح الرجل ماسبنيش غير لما قلت له كفاية. إحنا ممكن نكون على قدنا ف التعليم والفلوس صحيح، بس ربنا عوضنا بالصحة والشدة".

سلتني حواديت مس نبيلة الغرائبية والفضائحية، وشعرت معها بسرعة وقت العمل وهو يمر كلا شيء، لأحسب كم ساعة يجب أن تمر حتى أنهي هذا التكليف المُتعب كدواء مُر. تذكرت المنحة، وبلاد الإنجليز، والطب، والمستقبل، ولاح لذهني مشهد جدي، وما استجد عليه من حال، ثُم ما وصلني من حكاية عجيبة لجدتي، التي ما زالت تُمطرني بأسئلة مفتوحة. شعرت إنني كنت فجة كثيرا في لقائي بالحاجة حُسن، وأن الواجب يُحتم عليّ أن أعتذر لها وأطيب خاطرها. جال بخاطري ما استقبلتني به من بشر وما أبدته من سرور لرؤيتي. تذكرت رسالة بعث بها مصطفى عبيد على هاتفي أمس ذكر فيها أنه سيرسل قريبا نتائج بحثه عن الكاتبة الغامضة في رسالة مفصلة بالبريد الإلكتروني. لم أجبه، وشعرت أنني أخطأت بمنحه نسخة من مذكرات جدتي.

شكرني الدكتور حسام بليغ في الصباح، لدفاعي عنه أمام رئيس القسم، فعلمت أن مس نبيلة تنقل له كل شيء مثلما تفعل معي، ثُم سألني عن صحة جدي حمد، وعن انفعالاته عندما أقرأ له من مذكرات حبيبته السابقة. أخبرته أن ألزهايمر بات جدارا سميكا بيننا يجعل من الصعب استقراء مشاعر المصاب به، لذا فأنا ما زلت أسيرة لظنوني وافتراضاتي الخيالية. فاجأني حسام بسؤاله إن كانت زمالتنا وصداقتنا تسمح بأن أمنحه نسخة من مذكرات السيدة اللغز، فسعدت لذلك، وأنبأته أنني سبق وفعلت ما هو أصعب إذ أتحت المذكرات لكاتب صحفي لا أشعر تجاهه بأي ثقة، وقلت

له بصدق: *"أتصور أن المذكرات التي كتبتها هذه الأدبية الفاتنة، رغم كل ما فيها من اعترافات وأسرار، كُتبت لتقرأ"*.

نظر لي حسام نظرة ألفة حقيقية، وأنجلني أن يسألني بتلعثم واضح إن كُنت أراه طريا كما يزعم الدكتور شديد، فأجبته بابتسامة تشجيع نافية وقلت له: *"أنت رجل. قلبك طيب صحيح، لكن رجل، وكفاية إنك بتقرأ"*. شعرت بالراحة معه وهو يصبرني بأن المنحة في الطريق، وأنه يثق بأنني سأصل إلى ما أريد وأحقق ما أستحقه. وبدا الزميل جريئا قليلا على غير العادة وهو يفسر لي سلوك الدكتور شديد من منطق أنه يشعر بنقصه المخجل تجاه النساء، فيتحول ذلك إلى نقمة وازدراء للنساء كافة. وافقته ممتنة وقلت: *"هو كذلك"*. وعندما جلست وحيدة، وبين أصابعي قلمي ودفتر المتابعة اليومي كتبت بيت المتنبي *"سرورك أن تُسر الناس طرا.. تعلمهم عليك به الدلالا"*.

***

سكنتني حكاية سناء بكاش، وغبت فيما خطته يداها من أسرار واعترافات، ثُم تذكرت زيارتي للست حُسن وما كشفته وهي تقدم لي شهادة جدتي. فتحت الموضوع مع مُنى بعد أن حققت فضولها في قراءة السيرة المحرمة لسيدة العمل الخاص، وهي على عتبات الآخرة.

قالت لي مُنى ونحن نتناول الكابتشنيو في شرفة منزلها بعد يوم طويل من العمل، والوقوف، وتحمل تأوهات

المرضى، وثرثرة الممرضات، ورائحة المُطهرات المدلوقة على الأرضيات دون تدبر:

- "لازم نتأكد أن الست حُسن مبتكدبش علينا. أنا قلت لعُمر إننا بسهولة نقدر نجيب عدد الأهرام في 4 أبريل اللي فات، ونتأكد لو ف إعلان ولا لأ. بعدين نفكر إزاي الجورنال نفسه وصل لجدك. صعب أوي يكون كل دا صدفة".

قُلت وأنا أشعر بالحيرة:

- "ممكن يكون دا قدر".

ردت بعد أن هزت رأسها معترضة:

- "مش إنتي اللي قلت لي قبل كده كتير. لازم نفسر كل الأمور حوالينا بعلاقة السببية زي الناس المتحضرة.. كل حاجة بتحصل بسبب. وصدف زي دي لازم نستبعدها".

قُلت بعد أن تذكرت ما دونته جدتي:

- "والله يا مُنى أنا متلخبطة عالآخر. بقيت أحس إن في أمور كتير خارقة للطبيعة ممكن تحصل.. وبقيت أعتقد أوي ف شفافية أهل الله وقدرتهم على كسر قوانين الطبيعة".

- "يبقى بلاش تسافري إنجلترا تكملي تعليمك. واطلعي على السيدة زينب".

مضغت سخريتها المعتادة، وذكّرتها أن الحكاية المدونة تضم كثيرا من الأمور غير المفسرة، وذكرت لها قصة سيدنا الخضر الذي قابل جدي، والمهمة التي كلفه

بها، وكيف اخترق جدي حياة جدتي بكل هذه الثقة، وكيف أقنعها بما لم يكن ممكنًا لأحد إقناعها به، ثم كيف تزوجها وهي المضربة عن الزواج لسنوات نظرا لطبيعة عملها السري. والأغرب من ذلك كيف هرب من مصر، وهو المُدرس البسيط الذي ليس لديه علاقات ولا أصدقاء أو أقارب، وكيف غيّر اسمه بسهولة وظل بعيدا عن أم ابنته صاحبة النفوذ والعلاقات طوال هذه السنوات؟!

رن جرس الباب، وانفتح ليدخل عمر الذي ابتسم وجهه فور رؤيتي، وصافحني في ود ظاهر، ثم سألني عن جدي، وصحته، قبل أن يجلس جوارنا ويفتح محموله، مُدققا في ملفاته قبل أن يقول:

- *"صاحبي اللي عنده كل الصحف على المحمول بعت لي أهرام أربعة أبريل، وفيها فعلا الإعلان اللي اتكلمتم عنه. بصوا".*

وأنار هاتفه ليتصفح العدد، ويقف عند الإعلان المراد، لكنه علق قائلا:

- *"بس الغريب إن الاعلان مكتوب بخط صغير أوي، يعني صعب يتخيل حد إنه ممكن يلفت النظر".*

- *" ومعنى كده إيه؟".*

سألت مُنى، فقال:

- *"أعتقد إن الحاجة حُسن ممكن يكون لسه عندها إجابات. مش معقول تكون بالسذاجة دي. مش معقول تكون فعلا بتعمل كده وتنشر إعلان بالصيغة*

دي كل سنة، دا شغل أفلام أجنبية".

- "جايز دي عقليتها".

هكذا قلت، بعد أن أدركت أن عمر قرأ المذكرات كاملة رغم مشغولياته، وقلت لنفسي بأن شغف البحث عن المخبوء يجرجر الناس بيسر مهما كان وقتهم مشغولا.

سألني عمر إن كان لدى جدي أي تفسير للأسئلة التي تطرحها المذكرات، فنفيت بهزة رأس. وقلت له:

"لسه حبيبي مينطقش". وانفلتت مني دمعة دافئة، حاولت مقاومتها بابتسامتي المفتعلة. تذكرت آخر سؤال سألته إياه قبل يومين وكيف لمعت عيناه قليلا قبل أن يزيغ بصره وتتجمد ملامحه. كان السؤال المُباغت ساعتها: "هو أنت لسه يا جدو بتشوف سيدنا الخضر؟".

قال لي عمر وهو ينطق كلماته ببطء كأنه مُنظر ماركسي تليد:

- "هو طبعا أنا مبصدقش حكاية الخضر دي، ومش قادر أبلع فكرة الأحلام اللي الإنسان بيشوف فيها المستقبل. حاسس أن كل ده خيال".

"خيال مين؟ جدي؟" سألت.

فأجاب:

- "وممكن يكون خيال سناء بكاش نفسها".

- "طيب هي ليه تتخيل دا ف مذكرات المفترض بتحكي فيها حكايتها وبتخلص ضميرها؟".

هكذا سألت مُنى، فرد عمر مادا شفتيه إشارة إلى أنه

لا يعرف، ثم قال:

- *"الحدوتة كلها ألغاز ف ألغاز"*.

أخبرتهم أنني سأنتظر ما سيرسله مصطفى عبيد من بيانات ومعلومات، ثُم سيكون عليّ زيارة الست حُسن مرة أخرى قبل أن أسافر أنا وجدي إلى أوروبا.

التفتت مُنى نحوي وسألتني إن كنت أصر على اصطحاب جدي معي بعد تدهور حالته الصحية، فهززت رأسي بالإيجاب.

كان عمر كريما وودودا وهو يُقسم عليّ أن أبقى معهم لتناول العشاء الذي سيحضره بنفسه، لكنني اعتذرت لألحق بجدي للاطمئنان عليه قبل أن ينام. كان سؤال مُنى يدور في رأسي كنحلة أفلتت توا من خليتها بحثا عن رحيق حياة، فأنا لا أعرف يقينا إن كان بمقدوري السفر بهذا الرجل المُسن، شبه العاجز إلى الخارج أم لا، فالإجراءات صعبة، وهناك مخاطرة كبيرة في أن يستقل الطائرة، ثُم ماذا أفعل إن ساءت حالته هناك، وكيف أواجه احتمالات موته، وأنا وحيدة في الغربة؟

قُدت سيارتي سارحة في تحذير حسام بليغ لي اليوم بأن أضع ضمن حساباتي وجود احتمال مُرجح بسوء تقييم الدكتور شديد لي في تقريره الرسمي. كانت فيروز تترنم بأغنيتها *"بحبك ما بعرف من قالوا لي"*. لتلتمع في مخيلتي صورة حسام بروبه المكرمش، ووجهه المضطرب، لأشعر أن الأيام الأخيرة شهدت تقربا مبالغا منه تجاهي. سألت نفسي إن كان يقصد ذلك، ثُم فكرت أنني لست في حاجة للمزيد من الأسئلة في الوقت

الحالي. غنيت مع فيروز "لأ دخلك هيأتني راح طير، مرجحتني بقلبك.. تركتني بعد بكير. بكير تركني بحبك. بحبك يا حلو بحبك".

***

لم أنم. دخلت غرفة المكتب لأبحث عن مُسكن لأوجاع الأسئلة المفتوحة. هل يُمكن للأحلام أن تصدق؟ وهل بالفعل رأى جدي أحلاما دفعته دفعا للدخول في حياة جدتي كما حكت هي؟ هل يُمكن أن تقدم الأحلام رسائل للبشر؟ ومَن هو المُرسل هنا.. هل هو الله أم الشيطان؟ ما الأحلام؟ وما قيمتها في ميزان العلم؟ وهل تمثل إطلالات مبكرة على ما يمكن أن يحدث في المستقبل؟

تذكرت حكاية الملك الذي رأى حلما وفسره له سيدنا يوسف، وكيف ذكر القرآن والتوراة الحكاية برمتها. لقد تمثلت مُعجزة النبي يوسف في تفسيره لأحلام البشر، وتحقق بالفعل حلم صاحبيه في السجن، فأُعدم أحدهما، وحُر الآخر مثلما تنبأ تماما، وفي النهاية تحقق حلمه هو عندما رأى إخوته يسجدون أمامه.

رنوت إلى المكتبة الكبيرة التي طالما اغترفت منها صنوف الأدب، وعرفت فيها ما قاله الشعراء العظام وأميرهم المُتنبي، ولامست بأصابعي المُنهكة مجلدات الكُتب المرصوصة، لألتقط كتابا طالما استبعدته من قبل لتناقضه مع العلم الذي آمنت به طوال عمري، وهو كتاب "المنامات" لابن أبي الدُنيا. كان المُجلد صغيرا، مُتربا كحرز دُفن عقدا، ورجح ورقه الأصفر طباعته

قبل أكثر من نصف قرن، فتحته وقرأت لتستغرقني الحكايات تلو الحكايات عن قوة الأحلام، مُحطمة قوانين الطبيعة في يُسر. تساءلت في صمت: كيف تقبل السابقون هذا الكلام؟ كيف صدقوه؟ ألم تنته المعجزات بتوقف الأنبياء؟ لماذا واصلت المعجزات شيوعها في زمن الصحابة ثم في أزمنة التابعين وتابعيهم؟

قرأت في الكتاب عن واقعة للصحابي ابن عباس يستيقظ فيها من النوم ليقول لأهله إن الحسين ذبح اليوم، فيسألونه كيف عرف، فيقول بأنه رأى النبي، وبين يديه زجاجة دم، وأخبره أنه دم الحسين. فكتب الحاضرون تاريخ اليوم وانتظروا بعد شهر ليأتيهم تاجر من العراق ويخبرهم نبأ استشهاد الحسين، محددا التاريخ ذاته.

وفي طرفة أخرى يدخل رجل على عمر بن عبد العزيز ويخبره بأنه قادم إليه برسالة، ويحكي له بأنه رأى النبي في المنام، وعلى يمينه أبو بكر الصديق، وعلى يساره عمر بن الخطاب، ثم دخل عمر بن عبد العزيز، فقال له النبي عليه السلام: "اعمل بعمل هذين مشيرا لأبي بكر وعمر"، وهنا قام الخليفة من مجلسه وأمسك يد الرجل، وقال له: "أستحلفك بالله. هل رأيت هذه الرؤيا حقا؟"، فأقسم له الرجل أنه صادق، فبكى عُمر. وتتكرر عبر الكتاب رؤى الراحلين ليحكوا عن أمور نجهلها مثل الموت وما يحدث فيه والحساب بعده، وغيرها من الماورائيات.

استغرقتني الحكايات، فشعرت برغبة في سؤال

"جوجل" عن الأحلام الحديثة ومدى تحققها فخرجت لي حكاية غريبة عن ذهاب الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق، وكان رجلا صوفيا إلى الرئيس السادات قبل حرب أكتوبر 1973، وقوله له بأنه رأى رسول الله في المنام، وهو يعبر مع الجيش المصري قناة السويس، وشجعه على اتخاذ القرار.

ثم واصلت بحثي فقرأت عن قادة تاريخيين استغلوا حكايات الأحلام وفكرة رؤية النبي لتأكيد سلطان دولتهم، ففي يوم استيقظ السلطان العثماني سليمان القانوني من نومه وحكى لقادة جيشه بأن النبي أوصاه في المنام إن فتح الله على يديه بلجراد ورودس أن يعمر المدينة المنورة، ففعل. والحكاية الأغرب ما كان يقصه الفارس المملوكي قُطز على أصدقائه وأصحابه بأنه رأى النبي وبشره بحكم مصر وبالانتصار على المغول، وهو ما حدث لاحقا.

راجعت تاريخي مع جدي، واكتشفت أنه لم يقل لي يوما عن حلم رآه ليُبشر بأمر أو يُحذر من آخر. صحيح أن جدي كان وما زال رجلا طيبا جدا، صالحا وسمحا ومواظبا على الصلاة، ومُكثرا للاستغفار، ولا يُخرج كلمة نابية من فيه، لكنه لم يحك لي يوما رؤيا في المنام آمن بتحققها. كان الرجل يُعلمني دوما الأخذ بالأسباب، وكان يُفسر لي التوكل على الخالق، بمنهج علمي واضح يقوم على فكرة "ازرع تحصد"، و"افعل تجد". سألت نفسي: هل كانت لديه نبوءات وهو شاب ثم تغيرت أحواله بعد معرفته بسناء بكاش، فانطفأت لديه

المنحة الربانية؟ ثم شعرت بالخجل أن ينزلق بي التفكير إلى الاعتقاد بصحة المعجزات وكسر قوانين الطبيعة في زمن المدنية الحديثة، وخلصت إلى أنني غير قادرة على الإجابة عن تساؤلات كان يُمكن لجدي أن يحلها لنا لو لم يصبه الخرس.

فتحت الإيميل فوجدت اسم مصطفى عبيد في الرسائل المرسلة فاستبشرت خيرا عندما لاحظت ملفا مرفقا يحمل اسم الكاتبة سناء بكاش، لكني لم ألبث أن قرأت تعليقا مصاحبا يعتذر فيه لعدم توصله لما هو أكثر من ذلك، خاصة أنه لا يوجد أرشيف باسمها في دار الكتب، ولا الأهرام. فتحت الملف على الفور، وقرأت البيانات المدونة بشكل تقريري، والخالية من أي سر جديد أو معلومة إضافية يمكن أن تُجيب عن تساؤلاتي الحائرة.

اكتفى الملف بالبيانات التالية: الاسم سناء بكاش. كاتبة مصرية من مواليد 1929. صدر لها ثلاثة وثلاثون كتابا، منها عشر قصص في التاريخ الإسلامي، وأربع روايات في التاريخ المصري القديم، وكُتب عن شخصيات سياسية معاصرة مثل إسماعيل صدقي، جمال عبد الناصر، الملك فيصل.

حصلت سناء على جوائز ثقافية في مصر سنة 1958 مثل جائزة أفضل كتاب وجائزة أفضل رواية، كما حصلت على أوسمة وتكريمات من بعض الدول العربية، وظهر اسمها ككاتبة على أفلام تاريخية، فضلا عن مسلسل درامي إذاعي. اكتسبت شهرة خاصة بكتاباتها

في مجلة العربي الكويتية خلال السبعينيات والثمانينيات، واختفت تدريجيا في التسعينيات، ولم يرها أحد حتى رحلت سنة 2001.

وكتب الراسل تحليلا لمذكراتها قائما على مطالعته لبعض أعداد مجلتها المتاحة في دار الكتب ذكر فيه أنه استطاع التثبت أن الخط الموجود في المذكرات هو خطها، خاصة أن المجلات والكتب القديمة اعتادت طباعة توقيع الكاتب على بعض مقالاته بخطه، وهو ما أفصح بوضوح عن خطها. وهو يرجح بيقين ما أشارت إليه في ما دونته باتخاذها اسم عائلة، "بكاش" خاصة أن هذه العائلة ما زال لها حضور قوي في بعض محافظات الصعيد مثل أسيوط، ولا يذكر أي من مؤرخيها معرفة مباشرة بها. وتمكن الباحث من التثبت من واقعة استدعاء الكاتبة للشهادة في قضية انحراف المؤسسة عقب هزيمة يونيو، حيث ما زال هناك محامون ممن شهدوا القضية على قيد الحياة، وقد أكدوا رؤيتها، لكن أوراق القضية محجوبة حتى الآن. وقال الراسل إن دور سناء في الإيقاع بجمعية إخوان الحرية الموالية للاحتلال البريطاني يمثل عملا وطنيا عظيما، خاصة أن هذه الجمعية تمددت بقوة نهاية الأربعينيات بهدف محو فكرة الجلاء لدى الأجيال المصرية الشابة والترويج لاعتبار مصر وبريطانيا كيانا واحدا، وأنفق على الجمعية بسخاء من جانب الحكومة الإنجليزية، وفجأة خبت وتوارت، ولم تقم لها قائمة بعد فضحها بالصحف وفضح زعيمها المختار الشيخ يوسف الزواوي. كما يبدو أن سناء ساهمت في كشف بعض التنظيمات السرية

ذات التوجهات اليسارية الراديكالية، فضلا عن أدوار أخرى غير موثقة قامت بها ضد عملاء الحركة الصهيونية. ويمكن القول أن الكاتبة أقامت جسر تواصل بين أجهزة الدولة وكثير من الشخصيات العربية ذات الثقل السياسي، خاصة في الستينيات. ورغم تطور عمل الكاتبة مع المؤسسة في وقت اتهام المؤسسة بالانحراف عن الدور الرئيس لها، فإنه لم توجه لها أي اتهامات بشكل مباشر للكاتبة.

شكرت الباحث في رسالة قصيرة، ورأيت المُتنبي يبتسم لي مُرددا *"قد ذُقت شدة أيامي ولذتها... فما حصلتُ على صابٍ ولا عسلِ"*.

***

فاجأني حسام بليغ بما كنت أخشى. همس في أذني فور رؤيتي بأن السيد الدكتور رئيس القسم، غدر بي وكتب تقريرا ينتقد فيه أدائي العملي رغم كل ما أفعله. سألته كيف عرف، فأجاب بأن الرجل المنفوش كديك بلدي استدعاه إلى مكتبه، ثم حرضه ضدي متصورا أنه قادر على بث الكراهية بيننا، وإقناعه بأن صعودي ومدح أدائي يخصم من صورته. أخضعت عيني زميلي لجهازي الحساس لكشف الكذب، فقرأت فيهما صدقا ونقاء. قُلت له مُعلقة: *"تصور إن الرجل دا بيصلي الفرض بفرضه قدامنا.. أنا باستغرب إزاي الناس دي بتمثل حتى في علاقتها بربنا"*. ابتسم رغم الإنهاك البادي على وجهه من نوبة عمل شاق، وقال لي: *"أنا فاكر لصديقك العزيز المتنبي بيت مشهور بيقول*

"أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم"، فصححت له قائلة: "أن تحفوا شواربكم".

نظر لي بإعجاب فضاح وقال لي: "المُهم يا أديبة. لازم نفكر ف مواجهة الرجل دا"، وعقد يديه خلف ظهره، وأضاف: "الشارع اللي ورا فيه كوم زبالة..الناس بتعدي تأفأف وتبص له بقرف، لكنها بتمشي وتكمل سكتها. تصوري لو كل واحد معدي قرر يشيل الزبالة بعيد أو يحرقها أو يقف ويمنع حد يرمي زبالة تاني، اكيد الكوم دا هيختفي".

"أنت بقيت فيلسوف كمان". قلتها وأنا أشعر بالقلق الحقيقي من غدر الدكتور شديد. وأضفت قائلة: "أنا حاسة إن المكان هنا كبرك كتير عن سنك".

قال وربما كانت المرة الأولى في حياته التي يغازل فيها امرأة:

- "وإنتي ف كل مكان سنك بيصغر، قلبك جميل زي قلب طفلة مفيهوش حقد وكراهية لحد".

سكنت مستريبة وأنا لا أكاد أصدق، وقلت معلقة:

- "ميرسي يا دكتور".

أبلغني أنه سيضع خطة لمواجهة سياسة التمييز التي يمارسها رئيس القسم ضدي، فهو من منطلق أخلاقي بحت لا يقبل تمييزا ضد إنسان لنوعه أو مذهبه.

نظر لي حسام نظرات إعجاب وقال لي:

- "أنا مبهور بشخصية سناء بكاش. المذكرات جميلة جدا، وأجمل ما فيها الصدق الإنساني. كل إنسان

محتاج يتعرى كل فترة بحض إرادته عشان يحس بنقاء الروح".

جلس أمامي، ورانت لحظة صمت شعرت فيها برعشات ساحرة، واستنشقت روحي مشاعر دافئة لحب دفاق صاخب رافض لجميع القوانين يبثني إياه، لأنكر أنني أكبره بعامين أو أكثر، وأرفض تجمدي عاطفيا سنوات وسنوات لصالح حياتي المهنية. لمحت في عينيه شبقا وولها جعلني أتمنى لو احتضنني، واعتصرني. كُنت أستحث ذراعيه على أن تطوقني، وأنادي شفتيه للثمي، وأُعلن له بعفوية وجرأة ووقاحة استعدادي للتعري. بثثته تشجيعا عبر نظرات حانيات، متوسلات أن يواصل غزله لي ويمدد اشتهائي، مُتقبلة، ومُتمنية وراغبة في ملامسة خلاياه، والانسحاق تحت ذكورته. ما الحياة سوى عشق محموم، مُتعة قصوى، ذكر وأنثى ومشاعر حقيقية.

ابتلع ريقه كَمَن يُسيطر على عنفوانه، وأنا أنادي بكل خلاياي دون صوت "قبّلني يا رجل". نظر إلى باب الغرفة الموارب، وحدثت نفسي لأوصده غير أن وجه مس نبيلة المار كغراب لا يستثدن زائريه لاح أمامنا مغتالا وهج اللحظة. عاد حسام بأداء تمثيلي يعرض عليّ تقريره عن تطور حالات القسم طوال نوبته، وكيف تصرف معها، وما طلبه من المديرية من أدوية ناقصة، ثم استلمتني مس نبيلة كالعادة لتواصل حواديتها الهوليودية.

تكلمت نبيلة ولم أكن معها، وحكت ولم أنتبه، فقد

سرحت تماما ولساعات في الطبيب الزميل، الخجول، المرتبك، العاشق، المُتشكك، الغريب، وسألت نفسي إن كان يحبني بالفعل، ثم تذكرت المنحة، وتقرير الدكتور شديد، ومرض جدي حمد، وسناء بكاش، وقصتها الغريبة، ورأيت المُتنبي ينظر لي مُحفزا، ويقول *"فَمَن شاء فلينظر إليّ فنظري.. نذير للذي ظن أن الهوى سهل"*.

***

لم أصدق ما فاجأتني به أم إبراهيم وأنا أجلس مع منى في بيتها أشرب الشاي الأخضر في طريق عودتي للبيت. قالت لي السيدة الطيبة عبر الهاتف همسا: *"بابا في البيت، وقاعد مع الأستاذ حمد، وبيقرا له قرآن"*. أجبتها بأنني في الطريق، ومنحت مُنى ابتسامة استغراب وأنا أخبرها.

وبهدوء اعتادته منى، رشفت رشفة من الشاي، وأنا أكرر لها حيرتي من مشاعري تجاه حسام بليغ.

"أنا متلخبطة خالص". قلت لها وأنا أستعيد نظراته المحُبة نحوي، وواصلت قائلة: *"أول مرة أحس إني ممكن أرتبط بحد أصغر مني. والحقيقة كان رأيي فيه في البداية سلبي، وشايفة إنه غريب ويخاف، وبيمشي جنب الحيط، لكن اليومين دول حسيت إن جواه مارد، وإن تفكيره بشكل عام متحضر جدا، وعنده حس أخلاقي"*.

ابتسمت صديقة العمر بخبثة خبيرة، وقالت سائلة: *'طيب أنت هتعملي إيه لو متكلمش، ودا احتمال وارد، وبرضه لازم تعرفي هتعملي إيه لو اتكلم"*.

قلت لها وأنا أهز رأسي كغصن يهدهده الهواء:

- "صح لازم أعرف".

ثم أضفت قائلة: "بس مش عارفة".

فكرت أن أي شيء في الدنيا لا يجب أن يغير مسار سعيي للمنحة. الحب جميل وضروري، لكنه لا يجب أن يغلق بابي الوحيد للنجاة. كُنت أشعر بأن أحلامي وآمالي في الطب كمهنة إنسانية عظيمة ستتحطم إن دُرت في المدارات ذاتها التي دار فيها القابعون حولي من أطباء وعلماء وأساتذة. وصرت واضحة تماما بأنني لن أكرر القطيع، ففي مثل هذه الأجواء والظروف يلزم كسر المألوف والخروج إلى النهار. فالعلم الحقيقي ليس هُنا، وهنا لن يتحسن دون احتكاك مباشر بالآخرين. هناك.

بدأت أخطط كعادتي مع صديقتي المقربة حول سبل إفشال مخطط الدكتور شديد لتعطيل المنحة. بدت لي نقطة القوة الأولى في الأمر قول حسام بليغ لي بأنه معي، وخلصت إلى أن الدكتور شديد لا يعرف أنه معي، والمصلحة تقتضي ألا يعرف. فكرت أنني يجب أن أسبقه بخطوة. ثم تجلت نقطة القوة الثانية في كون رئيسي المباشر مكروها من الجميع مثل حاكم ديكتاتور يتصور أن كل مَن يحكمهم لا يستحقونه. تذكرت حكاية سناء بكاش، ولقب "ابنة الديكتاتور" الذي حازته، وكيف كان مصطلح "ديكتاتور" في الماضي محل فخر، ربما لأننا لم نر وقتها ديكتاتورا عنيفا ومستبدا، ثم صار المصطلح مرادفا للسفاحين والمتجبرين ومبعثري

كرامات البشر بعد أن عاصرنا حكام ثورة يوليو حاكما خلف آخر.

التفت إلى صديقتي سائلة عما تقرأه الآن، فقالت: *'لا شيء.. فالأوضاع الاقتصادية غير المسبوقة جعلت القراءة ترفا".* وافقتها، وسألتها مداعبة: *"تفتكري اللي زينا ممكن يتحاسب في الآخرة؟".* وعلى الفور مطت شفتيها للأمام وهي تحرك رأسها يمينا ويسارا وأجابت: *"أكيد لأ. اللي يعيش في بلادنا وزمننا ربنا يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر".* وضحكنا، ثم رنت مني ناحية النافذة واقتربت قبل أن تخبرني أن الباص أحضر ابنيها، فاستبشرت نفسي أن أراهما، لأستمع لكلمة "طنط" طفولية طيبة من التوأم البريء، قبل أن أغادر لألحق بذلك الزائر المفاجئ الذي لم أشعر أبدا أنه أبي. بشرتني صديقتي بأنها سترافقني في زيارتي المرتقبة للست حسن في القاهرة لنسد بعض الفراغات التي أوجدتها مذكرات الكاتبة الغامضة: جدتي.

***

احتضنني أبي كأب، وإن لم أحسه، فوالدي الحقيقي ممدد إلى جوارنا لا يتحرك ولا ينطق. سألني بشغف عما جرى لجدي حمد، فقلت له بإنجليزية طيبة: "باركسونيزم" مشيرة لمرض خاص بكبار السن، ومضيفة: *"مع ألزهايمر في مرحلة متوسطة"*، فهز رأسه أسفا.

حكى لي عن أحواله، وتعقيدات عمله، وظروف الأسرة، وأشقائي الصغار الذين لا أعرفهم ورغبته

في جمع شملنا مرة ثانية، مُلمحا أن هناك فرصا عظيمة للطب في الكويت، خاصة بعد الوباء، ومُكررا بأن أحوال البلد لا تَسر. وكعادتي استمعت ولم أعلق، وهو ما جعله يفهم أنني لن أفعل إلا ما يدور برأسي.

سألني عن أحوالي، فأجبت، وسأل عن المنحة، فأخبرته بأنني أتممت مراحلها كافة ولم يتبق سوى تقرير رئيسي في الشغل، وهو في الغالب سيعطله، فقال ناصحا: *"مش مهم.. قدمي استقالتك وروحي"*، فكررت أنني لن أفعل لأنني أستحق المنحة، وأريد أن أرجع للمستشفى لأنفع الناس. ابتسم إعجابا، ومسح بكفه على رأسي في حنان مفتعل، لم يرضني، غير أنني لمحت في عينيه بوادر دمعة مُنكتمة، ففيرت الحديث عن مدة إجازته وفرص لقائي بزوجته وأشقائي، فأخبرني بأنهم لم يأتوا. وفهمت أن الوالد الطبيب كان في مؤتمر سريع بالقاهرة، وانتهز الفرصة سريعا لزيارتي أنا وجدي كالتزام أخلاقي وأبوي.

لفت نظره صورة جدتي المعلقة على الجدار، فسأل في دهشة عنها، فأخبرته بأنها جدتي، فقال: *"ماما ثريا؟"*، فصححت له مبتسمة: *"لأ، ماما سناء"*، فسأل ثانية: *'مين؟"*. فقلت له ضاحكة بأن ماما ثريا طلع اسمها سناء، فهز رأسه دون اهتمام بالتفاصيل، ثُم قبل رأس جدي حمد في تقدير مبالغ فيه، واستأذن بعد أن ترك لي ظرفا منتفخا بالدولارات.

جلست مع جدي شاكية وحاكية، بثثته شجني وقلقي ثم حيرتي في قصة زميلي العاشق المتردد. أدرت الساوند

كلاود على أغنية فيروز وهي تشدو "*حد القناطر محبوبي ناطر. كسر الحواطر يا ولفي ما هان عليا*"، ثم جلست إلى جواره مُلقية برأسي فوق كتفه أحكي له دون خجل أو تردد. قُلت له بحرية: "*كُنت فاكرة إن ممكن أقفل قلبي لحد ما أخلص اللي عاوزاه. بس الدنيا دمها تقيل. نفسي ف رجل جميل وذوق ومثقف زيك، وحسام فيه بعض الصفات دي. تقريبا يا جدو الدكتور الوحيد اللي لقيته بيقرا بجنون. وحاسة إنه بيحبني أوي*". وتذكرت ما دونته سناء بكاش فسألته: "*هو أنت فعلا يا جدو كنت بتحب سناء بكاش؟ حبيتها فعلا وهي أكبر منك؟*". لاحظت أن عينيه اتقدتا، وتجمدت ملامحه، ثُم ابتسم وهز رأسه بالإيجاب، ما أبهجني. قلت في نفسي "إن الحب أقوى من ألزهايمر".

أمسكت بكفه وقبلتها وهمست في أذنه بأننا سنسافر قريبا إلى إنجلترا، لكنه أغمض عينيه احتجاجا، فتوقفت وسألته إن كان حزينا لأنه سيترك شقته فقلت له باسمة: "*هناخد معانا صور سناء بكاش، وروايتها ومذكراتها اللي أنا جبتها لك*". فابتسم صامتا. وعُدت أفكر في ما برأسي من مخاوف عرقلة البعثة على يد الدكتور شديد، فهمست مرة أخرى لجدي بأن هناك شخصا مؤذيا يُريد تعطيل المنحة بلا سبب، فلمعت عيناه وشعرت أنه يُطمئنني، قبل أن أغوص في نومٍ عميق، ففي الصباح سأستغل العطلة الأسبوعية في زيارة الست حسن التي تستحق مني اعتذارا بعد أن قرأت ثناء جدتي عليها في مذكراتها.

أبهجتني مُنى باهتمامها بالتفاصيل، اشترت شيكولاتة سويسرية أنيقة، ومعها قاروصة سجائر "كنت"، وبرطمان عسل، وبعض لفائف المكسرات. لم تصدق السيدة السمراء المتكومة على كنبة بلدي بسيطة أمام الباب المفتوح دائما عندما رأتنا صاعدتين ننهج تعبا من السلالم العتيقة. احتضنتني بحجة عارمة كتمرة إفطار رطبة في شهر رمضان. قبلتني بشوق صادق، وأنا أرجوها أن تتقبل اعتذاري على سوء ظني وتشككي السابق. قالت لي إنني أشبه جدتي تماما، حتى في طريقة المصالحة بعد خصام يطول.

سألتني حُسن عن جدي، وصحته، فأخبرتها بأن حالته مستقرة، ثم جلسنا لتحكي لنا كل شيء، كأننا نلقاها للمرة الأولى. شجعتها مُنى بابتسامة وأسئلة تؤكد كونها واحدة من الأسرة. أخبرتنا أن المرض الخبيث زار جدتي عدة مرات، وأنها عانت منه معاناة شديدة في أيامها الأخيرة، وهو ما دفعها أن تطلب منها مرارا أن ترحل عنها لأنها لن تتحمل ظروفها القاسية، ومزاجها المتقلب، لكنها أصرت على البقاء معها حتى النهاية. وقصت علينا جانبا ملتبسا في المذكرات بشأن مرضها إذ كشفت أن الطبيب اخترع فكرة خطأ التشخيص المبدئي كذبا بعد أن أيقن أن أيامها على الأرض صارت معدودة، وأنه لا أمل في الشفاء. وحكت أنها أخبرتها قبل رحيلها بثلاثة أيام فقط بأنها تتجهز للموت، وأوصتها أن تدفن في مقبرة صغيرة تخص جمعية شرعية للفقراء

بجوار مسجد السيدة نفيسة، وقالت إنها اتفقت مع مدير الجمعية الشرعية على الترتيبات كافة، وأن ما يجب عليها فعله هو أن تتصل به عندما تصعد الروح إلى بارئها.

التمعت في ذهني فكرة زيارة قبر سناء بكاش، فسألت حُسن إن كانت تعرف مكانه، فأجابت: "*طبعا.. وبازورها كتير*"، فنظرت لمنى نظرة رجاء، وقلت: "*النهارده لازم نزورها*"، فسُرت حُسن وبان ذلك على تجاعيد وجهها المُرتخية ثم سحبت سيجارة احتفالا وأشعلتها بعد أن احتوتها بشفتيها المكتنزتين في دلال.

سألتها إن كانت قرأت كل ما في المذكرات، فهزت رأسها نافية، ثم قالت: "*مش محتاجة.. هي قالت لي كل حاجة*".

نظرت إليها بتمعن وقلت:

- "*بُصي يا ست حُسن. أنا لما قريت المذكرات اتفتحت قدامي أسئلة كتيرة عاوزة أعرف إجابات عنها*". ابتسمت حُسن ولمعت عيناها وقالت: "*طيب اسألي يا دكتورة.. وأنا بأمانة ربنا هاقولك كل اللي أعرفه*".

من البداية سألت: "*هو أنت عارفة إزاي جدي اتعرف على الست سناء؟ وإزاي حبها؟ وبعدين ليه هرب منها؟*".

هزت رأسها نافية، وقالت: "*مش عارفة بالظبط.. لكن فاكرة إنها مكنتش بتحبه أوي. يعني كانت معجبة بيه بس. قالت إنها شافته إنسان كويس، زي*

الدكتور شهدي الله يرحمه. مش فاكراه طبعا. بس أمي كانت عارفاه وكانت بتقول عليه كان إنه كويس.. لكن ارتباطها بجدك كان أساسه نادية اللي كانت روحها فيها، ونفسها تشوفها. يمكن عشان غابت عنها حبتها أوي، فالست الله يرحمها كان قلبها قوي، ومش بتضعف بسرعة، وطبعا إنتي عرفتي إنها كانت بتشتغل مع المباحث عشان أمن البلد، وكان ناس كتير بيخافوا منها ويتجنبوها. وهي قالت لي إن جدك أخد البنت وهرب علشان مش عاوزها تتربى زيها. بعدين كانت بتقول ف آخر أيامها إنها سامحته".

- "طيب هي إزاي مادورتش عليهم كويس.. لو كانت سألت كانت هتلاقيهم".

- "صح بس هي كانت مكسورة ف الآخر وزهدت ف الدنيا، ومش عاوزة تقابل بنتها بعد السنين دي عشان مش عارفة هتشوفها إزاي. وكانت شايفة إن دا تكفير ضروري عن ذنوب وقعت فيها".

دققت في وجه محدثتي الجامد وتفرست ملامحها الخشنة، وذاكرتي تعيدني لإشارات جدتي عن علاقات حُسن غير الشرعية ببعض الجيران، ووددت لو سألتها لكني وجلت، ثم عدت للتركيز على ما يخصني، فسألت:

- "طيب.. هو مكانش في أي حد بيزورها، ولا يسأل عليها، أو يكلمها ف التليفون؟".

صمتت قليلا لتتذكر ثم قالت:

- "لأ، كان في ستات بيكلموها بس كل فين وفين..

وفاكرة مرة كلمها صحفي كبير مكالمة طويلة، وقالت لي إنه اتفق معاها عشان تحكي له أسرارها ويكتبها، ويديها مبلغ كبير، بس بعد شوية قالت لي إنها رجعت ف كلامها".

- "محدش كان بيسأل عليها من الناس المهمة؟ مفيش حد غريب خالص كان بيزورها".

ابتسمت وكأنها فهمت مغزى السؤال، وقالت:

- "فاهمة قصدك. بس خليني أقولك إن آخر تلات سنين مكانتش بتخرج غير للدكتور فلان والدكتور فلان، نروح ونرجع بس، وساعات كنا نمر على ضريح السيدة نفيسة أو السيدة زينب، ومرات بسيطة رحنا السينما. وطبعا لما كانت بتتكلم ف التليفون كانت بتهمس همس، ومش فاكرة خالص إني شفت صاحباتها اللي كانت بتكلمهم. حتى ساعة الجنازة مشفتش حد".

شعرت أن حُسن لا تعرف شيئا أكثر مما تحويه المذكرات، بل إنها لم تهتم حتى بقراءة ما دونته سيدتها، ظنا منها أنها تعرف كل شيء. تدخلت مُنى في الحديث، وكررت سؤال حُسن عن أي شيء خاص تعرفه عن السيدة سناء، يُمكن أن تطلعنا عليه، فصمتت لبرهة ثم أشعلت سيجارة أخرى وقالت: "بصوا. هي الله يرحمها كانت شكاكة أوي لدرجة إنها ياما شكت فيَّ. وكانت متأكدة إن ف ناس بتراقبها، وساعات كان بيتهيألها إنهم ممكن يئذوها، لكن قبل ما تموت بحاجات بسيطة قالت لي خلاص هما قفلوا صفحتي خالص، وقالت كمان إن كل اللي الناس كانوا بيخافوا منهم أساسا جبنا".

سألتها في تردد: "هل كانت ندمانة؟".

فردت: "ساعات وساعات تانية كانت بتقولي لو حياتي رجعت كنت هختارها بكل ما فيها. وقالت لي إنها عملت حاجات عظيمة للبلد. اشتغلت ضد الإنجليز، ووقعت صهاينة، وكشفت ناس كتير كانوا عاوزين يخربوا البلد. بيتهألي كان عندها رضا كامل".

تبلل خداها بالدمع وهي تقول: "حاسة إنها لسة معايا.. حبيتها أوي رغم شدتها".

سألتها إن كان لديها أي متعلقات أو أوراق أخرى يُمكن أن تعطيني إياها تخص الجدة الغامضة، فنفت ثم قالت وكأنها تذكرت: "معايا قلبها. باركر بتاع زمان. ممكن تحتفظي بيه".

ودعتني بعد إلحاح أن أبقى معها، وإصرار مني على المغادرة، ثم قبلتني قبلة طويلة وهمست في أذني: "قولي لجدك إنها سامحته خالص.. حالته هتتحسن". ثم اقتربت مني وهمست كما لو كانت تمنحني سرا: "على فكرة أنا شفتها ف منام من يومين وكانت مبسوطة أوي، وقالت لي سلم لي على حفيدتي الدكتورة، وقولي لها أنا لقيت نادية، وأحمد".

***

على مقعد إلى جوار حبيبي جلست أقلب هاتفي وأحكي له عن زيارتي لحسن. بدا رائق الوجه، طيبا كما عهدته، وشعرت لوهلة أنه يهمس ببعض الأشعار، أنصت فرحة فتبينت مقطعا من بيت المتنبي يحاول

تلفظه، فاستكملت نطقه ثم أعدته مشجعة ليبتسم راضيا. كان البيت يقول *"والموت آت والنفوس نفائس.. والمستغر بما لديه الأحمق"*.

فتحت إيميلي لأجد رسالة من جامعة يورك البريطانية تفيد بقبولي في منح الماجستير للعام 2023. راجعت الورق المطلوب، وتأكدت من طلبهم خطاب توصية من رئيسي في العمل، فضلا عن موافقته بالإجازة. رنوت إلى وجه جدي مرة أخرى، وقصصت عليه مرة أخرى. قلت وأنا حائرة: *"تفتكر أعمل إيه. الرجل مصر يئديني، وأكيد هو مش مستني يستفيد مني وكل الحكاية أنه يقرفني بس. أنا مش عارفه أعمل إيه"*. ولأول مرة منذ عدة أسابيع أستعيد صوت جدي واضحا وهو يتمتم بصعوبة: *"متخاااافيش.. هتسافري غصبا عن عين أي حد"*. أمطرت السماء سرورا، وانسابت دموعي فرحا فقد تكلم الرجل الذي علمني الكلام، احتضنته بشدة، وقبلت يده، فكررها ثانية بأنني سأسافر. هتفت في أعماقي ما دام قالها فستحدث، فقد علمتني أيامي معه بأنه لم يخذلني حدسه أبدا. كُنت أخاف بشدة أنني لن أحصل على التفوق اللازم لدخول الطب، لكنه بشرني حتى جاءت النتيجة أفضل كثيرا مما توقعت، ثم شعرت بخوف من دخول المشرحة، وظننت أنني لن أتمكن من الاستمرار في الطب، لكنه أخبرني أن الأمر سيكون سهلا أكثر مما أتصور، وبالفعل شعرت أن الأجسام الممددة في المشرحة أشبه بدمى بلاستيكية، ولم أشعر بأي خوف في فحصها وتقليبها ومد أصابعي في داخلها.

نظرت إلى جدي، فابتسم وقال لي بصوت واضح: *"أنا كويس يا فيروز. حاسس إني كويس"*. وعاودت تقبيل كفه، وأنا لا أكاد أصدق وأقول له: *"أنت خفيت يا جدو أنت خفيت"*، وأردفت قائلة: *"عارف يا جدو اهم حاجة طلعت بها من زيارة الست حُسن، هي انها قالت إن تيتا سامحتك وعذرتك ف اللي عملته"*. تهلل وجهه، وامتد كفه مرتعشا إلى كوب ماء فوق الكومودينو، ليزدرد بضع رشفات ماء، ثم قال لي مُشجعا: *"روحي خلصي الورق، ومتحمليش هم الدكتور بتاعك"*.

بشرت حسام ومُنى بتكلم جدي، وبعثت برسالة صوتية لحُسن أشكرها فيها على الاستقبال والضيافة والمحبة، ومررت على عُمر في مكتبه ليعطيني صيغة قانونية مترجمة لشهادة أطباء آخرين كبار كإجراء احتياطي لو أصر الدكتور شديد على الوقوف ضدي. أخبرتني مس نبيلة بأن الدكتور شديد رائق المزاج في مكتبه، وأنني يمكن أن أدخل إليه ليعد لي تقريرا خاصا يحفز قبولي في المنحة. سويت خصلة شعر منكوشة على جبهتي ورسمت ابتسامة كاذبة وافتعلت رقة غائبة لأخطو نحو هدفي، ثم أجلس أمامه بعد تحية صباحية سريعة. رنا نحوي بتكبر، وأمعن النظر في وجهي، كأنه يستقرئ ما بداخلي، وبقصف غير متوقع قال لي: *"على فكرة أنا عارف إن إنتي جاية عشان تاخدي رسالة ترشيح للمنحة، ودا مستحيل يحصل. بصي يا بنتي.. القسم ضايع وبتعاني من قلة الكوادر، وزمايلك مش هيستحملوا ضغط الشغل"*.

لاح لي المُتنبي واقفا أمام كافور الإخشيدي وهو ينشده "أبا المسك هل في الكأس فضلٌ أنله.. فإني أُغني منذ حينٍ وتشربُ".

حاولت المجادلة، لكنه كان مخيفا بنظرته قبل أن يلحق بنا حسام الذي جلس على الفور، واستمسك به الدكتور شديد قائلا: "تصور يا حسام يا بني.. الدكتورة فيروز عاوزة تسيبنا في الظروف المنيلة دي. عشان تاخد منحة. أنا قلت لها حاجة القسم لا تسمح، وتقريرها كمان سلبي، فمفيش نصيب".

نظر حسام نحوي بتشجيع ثم اكتسى وجهه بصلابة لم أعهدها وقال بثقة غريبة: "على فكرة يا دكتور.. الدكتورة فيروز كفاءة عظيمة جدا، وشايلة القسم كله على راسها. وطبعا إحنا محتاجينها لكن محتاجينها أكفأ وأعلم والمنحة هتفيدنا كلنا مش هتفيدها بس".

ران غضب سريع على وجه رئيس القسم ورد مُطلقا بعض رذاذ لعابه في الهواء قائلا: "بلاش كلام فاضي.. اكفأ إيه وقسم إيه اللي شايلاه على راسها. أنت حصل لمخك حاجة". احتد صوت حسام وخبط بيد نحيلة على المكتب، وقال بعصبية مدهشة: "مينفعش يا دكتور نعطل مستقبل إنسان بلا سبب. أنا على استعداد أتحمل جهد مضاعف عشان أسد أي غياب للدكتورة خلال المنحة. ثُم لازم تشجع إنسانة عظيمة ومجتهدة زيها مش نحاربها".

وقف الرجل الستيني كثور هائج لِينهي الجلسة بعد أن صاح في وجهينا: "على جثتي.. المنحة دي ممر"، لكن

حسام أغاظه أكثر وهو يُرد: "هتمر".

وقلت له بعد أن خرجنا: "تصدق يا حسام كلامك نفس كلام جدي. هو الصبح قالي هتسافري، والمنحة دي هتمر، على جثة الدكتور شديد، وعلى جثث كدابين الزفة اللي حوالينا".

بدا اليوم شاقا مع مسحة التوتر السائدة، لكن خفف حدتها تواجد حسام إلى جواري، ما دفعني أن أشكره برقة شديدة آخر اليوم، وقلت له: "عارف يا حسام. صاحبتي منى دايما تقولي باللبناني أنا حدك، يعني جنبك"، فقال على الفور: "وأنا كمان حدك".

ولم أصدق ما قاله وأنا مغادرة، فأنكرت العبارة ولم أرد، لكن بعد دقائق رنت في أذني بقوة، فقد كان يقول: "على فكرة يا فيروز.. أنا بحبك أوي".

***

عدت إلى المنزل لتخبرني أم إبراهيم أن جدي طلب منها تركه وحيدا وسمعته يتكلم في الهاتف بصوت مرتفع، ثم دخل في نوم عميق.

" كان بيكلم مين؟" سألتها، فهزت رأسها يمينا ويسارا مجيبة: "مش عارفة".

دلفت إلى غرفته في هدوء، وضعت حقيبتي على السرير، وجلست على المقعد الملاصق له، كان وجهه ساكنا كملاك، لم أتمل من قبل في جمال ملامحه، فأنفه الدقيق، وفمه الصغير، وجبهته المتسعة أبانت وسامة لم يشوهها تقدمه في السن. التقطت هاتفه الصغير بعفوية

ونظرت لآخر رقم اتصال، فوجدته "الصيدلي"، فقمت مبتعدة قليلا، واتصلت به لأسأله عن الدواء الذي طلبه جدي، فرد أحدهم بعد عدة رنات، وسألته عن آخر اتصال أجراه جدي له قبل ساعات، فأجابني إن أحدا لم يتصل، وأن الرقم خطأ فهذا رقم كشك عمومي.

عُدت إلى الرجل الناعس، جلست إلى جواره، لاحظت أن أصابعه تقبض على قلم حبر، واكتشفت أنه قلم سناء بكاش الذي أحضرته له من زيارتي لحُسن. مددت يدي ببطء لأنتزعه، فشعرت ببرودة أصابعه، كأن الدماء تجمدت داخلها. سرت في أوصالي رعشات الفزع، فوضعت كفي بسرعة على جبهته، لأجدها باردة تماما، تحسست رقبته، لم يكن هناك نبض، فتحت عينيه وأبصرت الموت مُطلا كزائر ليلي كريه. حاصرني شعور مخيف بالخواء وظننت كما لو أن فأسا مباغتة قصمت ظهري، ففتفتته. سكنت سكون المستسلم طوعا وكرها للقدر، ثم تفكرت فيمن أحدثهم: والدي البعيد، ومُنى وعُمر، وحسام بليغ. سرى في ذهني شعور غريب لم أذقه من قبل وقلت لذاتي لقد كان جميلا ومطمئنا في الصباح. سألت دون فائدة للسؤال إن كانت أزمة قلبية قد باغتته وحاول الاتصال بالصيدلية التي أخطأ من قبل في تسجيل رقمها، فلم يصل لشيء، وانتهى بالأزمة المتوقعة لمن هو في عمره. نظرت إلى قسمات وجهه وشعرت أن موته كان سهلا وسلسا، لم يتوجع، ولم يتعرق، والمخطفت روحه فجأة. ناديت أم إبراهيم وأخبرتها، فأجهشت ببكاء مرير لم يلبث أن فتر، ولسانها يُكرر: *"إنا لله وإنا إليه راجعون"*. تسربلت بصلابة طبية

عملت لسنوات في قسم الحالات الحرجة، وبعقلانية وعملية هاتفت الجميع، ثُم فتحت مصحف جدي لأقرأ سورة يس، لحين وصول الناس. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساء، وقدرت أن الوفاة حدثت بين الثامنة والتاسعة، وأن ذلك يعني أن يتم الدفن صباح الغد بعد صلاة الظهر.

هرع إليّ عمر ومُنى، وحسام، وبكى والدي في الهاتف مُؤكدا أنه سيقطع كل أعماله ويأتي في أول طائرة، وتذكرت منام الست حسن، وشعرت أن اجتماع شمل الأسرة التي تفرقت قبل عشرات السنين سيتحقق مرة أخرى. رنوت لجدتي في صورتها المعلقة، مبتسمة في دلال، ونظرت لمذكراتها الموضوعة فوق المنضدة، واستعدت كلامها عن الموت، ويقينها بغفران الله.

تعامل عُمر كأخ حقيقي، أنهى جميع الإجراءات، ورتب تفاصيل العزاء، واستقبل والدي في المطار، وظلت مُنى إلى جواري لعدة ليال، بينما خاض حسام غمار مشاجرات مُضنية في المستشفى حتى حصل لي على إجازة لأسبوع كامل. كرر لي حسام بوحه بحبه، وقال لي إنه على استعداد لينتظرني بعد عودتي من المنحة، لأنه يرى أن وجودي في حياته هو وحده ما يستحق أن يعيش من أجله.

مرت الأيام محزنة دون ابتسامته، وعدت لعملي خالعة ثياب الحداد، حرصا على مشاعر المرضى الباحثين عن لحظات أمل، دخلت في محاورات مس نبيلة المُسلية، وتابعت قراءات حسام الفلسفية، وغرقت في قراءة

مجموعة روايات جديدة أهدتني إياها مُنى، وكُنت أرجع بين فترة وأخرى لمذكرات سناء بكاش مستعيدة الحكاية، لأدعي لها ولجدي بالرحمة والمغفرة. وفي يوم فاجأني حسام بخبر لم أتوقعه، فقد حدث أغرب شيء في تاريخ مستشفى جامعي، وهو نقل الدكتور محمود شديد تماما من المستشفى بعد فترة عمل تجاوزت عشرين عاما، بل الأغرب من ذلك أن آخر ورقة كتبها الرجل قبل مغادرته كانت خطابا بترشيحي للمنحة، وأفاض فيها في الإشادة باجتهادي وتميزي.

قُلت وقتها لحسام مندهشة: "*هي القيامة هتقوم يا حسام؟*"، فهز رأسه مُتمتما: "*الظاهر كده. أنا حاجات كتير بتحصل حوالينا بتخليني كل يوم أغير أفكاري*"، واستغلها الطبيب الذي صار أكثر جرأة فرصة ليقول لي: "*عارفة يا فيرو.أنا كنت ناوي ماتجوزش أبدا. وكنت شايف أن أكبر جريمة حد بيعملها أنه بيتسبب في ميلاد بشر تانيين في الزمن دا والأرض دي. بس دلوقتي عندي قناعة أن حبك بيخليني نفسي أكون سبب ف إني أجيب للدنيا بنوتة زيك بالظبط أو أجيب ولد نربيه وتعلميه بدماغك. دلوقتي أنا شايف أن كل فكرة قابلة للتغيير. الحياة بتلف وكل شيء بيتغير*".

تجهزت للسفر بعد أن وعدني والدي بزيارتي في لندن، لأنه يسافر كثيرا إليها، وبدأت في التأقلم مع فقدان جدي، حتى لمحت يوما أجندة موتاه موضوعة على مكتبه، فقررت أخذها معي لأقرأ الفاتحة كل يوم لجميع معارفه كنوع من البر له بتكرار فعله بعد رحيله،

وبالفعل فتحتها وكتبت اسم "أحمد نصر الدين أيوب" في الصفحة الأولى ليكون أول اسم أقرأ له الفاتحة كل يوم، وقلبت باقي الصفحات لأجد ظرفا أزرق اللون مكتوب عليه *"إلى فيروز الحبيبة.. لا يُفتح إلا بعد وفاتي".*

***

أحمد نصر الدين أيوب

فيروزتي الحبيبة:

آن الرحيل يا حبيبتي. أراك بكل خير هناك، في الضفة الأخرى، حيث لا ضغائن، لا أحقاد، لا صراعات، ولا نهايات. لا تلاشي للموتى يا صغيرتي، وإنما مرور عبر عالمين آخرهما أعدل وأطيب وأجمل. وما الموت سوى غمضة عين، وسحبة نفس، وتحرر وانطلاق، وخفة.

أؤمن بالآخرة حيث يُمكن لقاء الأحبة، لنتعاتب ونتسامح ونمتن لله فضائله أن خلقنا ويسر لنا المسارات نحو السعادة الأبدية. داخلي يقين نما وترسخ في الأيام الأخيرة بأن هذا الإله العظيم الذي خلقني، وخبر أحوالي كافة، سيشملني برحماته مثلما شمل كل من آمن بوحدانيته ووجد في قلبه مثقال ذرة خير.

هذا ما أتركه لك يا حبيبتي. بعض الحقيقة، وبعض الوصايا. أحببتك كما لم أحب أحدا، ووجدت فيك تعويض الرحيم عن فقداني لحبيبتي الأولى بإرادتي، والثانية بإرادته، فكنت أنت لي بهجة أيامي وسلواني، ومهما شكرت والدك الطيب على صنيعه بسماحه لي بأن ترافقيني فلن أوفيه حقه، فوصيتي لك أن تبريه، وتعذريه، وتستعيدي فيه المرشد والناصح.

حكايتي طويلة، وغريبة ولن يصدقها أحد، ذلك لأنها لم ترد أي إشارات لها في مذكرات الساسة أو يتعرض لها باحث تاريخ من قبل، لكنها الحقيقة التي

عشتها، وأؤمن بلزوم البوح بها وأنا أغادر نحو الضفة الأخرى من الكون.

أنا ابن الباشاويش نصر الدين أيوب، وحيده كما يقولون، هو وزوجته حميدة، أنجباني بعد حرمان عشر سنوات، في واحدة من معجزات القرن العشرين، لأدلل كما لم يُدلل أحد، ولأنشأ في حمى أسرة فقيرة، لكنها طيبة ولديها قيم موروثة أصيلة تحافظ عليها جيلا خلف آخر. قدم والدي من الواحات في العشرينيات، واستقر في العاصمة ليعمل متطوعا بالشرطة تحت إمرة ضابط مُخضرم في مباحث العاصمة هو اللواء علي نجيب شقيق محمد نجيب الذي اختاره الضباط الأحرار لاحقا لقيادة حركتهم. حفظت القرآن الكريم صغيرا، ثم أحببت الأدب والشعر يافعا، ودرست بإرادتي الحرة في كلية دار العلوم، وكنت أرى نفسي سائرا على درب طه حسين في التفكير والبحث، وخططت بالفعل لاستكمال دراساتي للأدب في أوروبا غير أن حريق مصر العظيم في السادس والعشرين من يناير سنة 1952التهم هذا الأمل. ففي ذلك اليوم وقف أبي أمام شياطين مجهولي الهوية كانوا يرشون الكيروسين على واجهات بعض المحلات الكبرى ويشعلون فيها النيران، وأمام جروبي نجح في احتضان أحدهم والقفز به على الأرض محاولا فك لثامه ومعرفته، لكن مجهولا آخر باغته من الخلف بطعنة سكين لامست جدار قلبه. وقال لنا من شهدوا الواقعة فيما بعد أن الطعين لم يستسلم وظل قابضا على قدمي الجاني المستتر آبيا أن يفلته، بل إن يديه امتدتا إلى لثامه محاولا كشفه، غير

أن ذلك كان دافعا لمزيد من الطعنات لتخترق جسده، حتى أنني لم أصدق وأنا أغسله أن جسده الصلب احتمل كل هذه الثقوب في سبيل الحقيقة ولم ينلها.

رُبيت على الصبر، ولم تحتمل أمي المسكينة فقد الراعي كثيرا، فلم تلبث أن مرضت ولحقت بحبيبها قبل أيام قليلة من تخرجي. عملت في مدرسة رهبان بشبرا، ثم عُينت لاحقا في مدرسة الخديوي إسماعيل بالعباسية، في الوقت ذاته حرصت على كتابة الشعر والنثر ونشر بعض المقالات في الصحف. في تلك الأثناء كان واحدا من تلاميذ اللواء علي نجيب، واسمه الصاغ رفعت يزورني كل فترة ليطمئن عليّ ويساعدني بناء على وصية أستاذه الذي سُجن، ثم أُخرج من العمل بعد استيلاء الضباط الأحرار على السلطة. كُنت أشعر بغضب شديد تجاه حركة الجيش، وكنت على يقين أن هذه الخطوة ستُغير تاريخ مصر كله. ناقشني الصاغ رفعت يوما في قرار حل الأحزاب واستثناء الإخوان والمخاطر التي تحيط بمصر، وفوجئ بصراحتي، ولاحظت اهتمامه الشديد بكل ما أقول. ثم تقاربت الزيارات، واتسعت المناقشات، حتى أخبرني يوما بأن أفضل شيء ممكن عمله عند توقع هبوب العاصفة هو أن نكون جزءا منها لنغير مساراتها ونقلل أخطارها على الوطن. لم أفهم الأمر جيدا، لكنه كان عرضا واضحا بالعمل لدى الوطن. وكانت الفكرة هي أغرب فكرة أسمعها في حياتي، فالوطن سينشئ مؤسسة حديثة للعمل السري، وفي كل الدول المتقدمة في هذا المجال، يجب أن تكون هناك مؤسسة ظل، مهمتها مراقبة أعمال

المؤسسة الأصلية وكبح أي انحرافات تقع فيها وضبط أخلاقيات كوادرها. كان ثمة اتفاق غير مكتوب بين قادة البلاد بأن تكون هناك دوما مؤسسات احتياطية مهمتها سد الفراغات حال سقوط المؤسسات الأصلية، وتصحيح مساراتها. قال لي الصاغ "رفعت" الذي دربني وأهلني "إننا نختلف عن الآخرين، لأن الأخلاق هي حاكمنا الأول، ونحن يجب أن نراعي الله في كل فعل".

كان عدد كوادر مؤسسة الظل محدودا للغاية، لا يعرفهم أحد سوى المسئول عنها، الذي أُعطي اسما كوديا هو "الرجل الصالح"، وهو تحديدا يتم اختياره مرة واحدة من قبل رئيس البلاد، ثم يعمل في صمت، ويكون عليه أن يقدم تقريرا شاملا بعمل المؤسسة مرة كل عام، أو تقريرا خاصا عند الضرورة. من هذا المُنطلق حددت لي المهمة بوضوح، وهي مراقبة أكبر تنظيم نسائي سري أسسته المؤسسة الأصلية، واختراقه، وهو ما كان سببا لأعرف سناء بكاش، وأتابعها، وأتتبع خُطاها، ثم أحبها عن صدق، وأعرض على المؤسسة الزواج بها لأقترب أكثر وأكثر. كُنت دائما أسبقها بخطوة، وعندما عرفت ببحثها عن صاحب الخطابات الزرقاء، والمعجب بجمالها وأدبها، وذهابها إلى مصطفى أمين لتطلب منه المساعدة، سربت خطابا لأخبار اليوم بتاريخ قديم يتضمن اسمي وعنواني. وعندما جاءت لزيارتي كُنت أنتظرها وكنت على يقين بأن وسامتي وقدراتي التي حزتها بفضل تدريب متميز سيدفعها لقبول الزواج بي. وفيما بعد كانت أوراق

وتقارير وعمليات التنظيم التي اطلعت عليها هي بعض الأدلة الأساسية التي استخدمت في محاكمات بعض قادة المؤسسة وفي عملية تصحيح مسارها عقب هزيمة يونيو.

وبالرغم من ذلك فقد كانت محبتي لسناء حقيقية وكانت رغبتي في تقويمها صادقة، غير أن شيئا ما خرب داخل روحي عندما منحت المحامي الضحية محمد عبد الحميد إبراهيم موعدا وخدرته، وقبلت أن يتم تصويرهما عاريين في فراش واحد. كُنت أعرف أن هذا الرجل تحديدا يتعرض لعملية إفساد متعمد لإجباره على طلاق زوجته التي أعجب بها أحد الكبار. وقتها اتخذت قراري منفردا ودون الرجوع لمديري، وهو الانخلاع والمغادرة، لن أعمل ولو مراقبا للمراقبين، ولن أكون جزءا من سلطة قاهرة تفرض على الناس ديكتاتورا خلف آخر. وكان همي الحقيقي هو ألا تكبر ابنتنا نادية في هذه الأجواء. استعنت بخدمات خبير تزوير يعمل معنا ليمنحني جواز سفر جديدا باسم حمد نور الدين أيوب مجريا تغييرات بسيطة في بعض حروف اسمي الحقيقي، ثم سافرت بيروت ومعي نادية، ومن هناك أبلغت مديري بكل شيء، فاعتبر العمل بمثابة تقاعد مبكر، لكنه تقبل اختياري ورتب لي سفرا إلى الكويت، في الوقت الذي سُربت فيه أوراق أخرى تفيد سفري إلى الرياض.

هذه هي الحكاية بكل بساطة. نسيت العمل السري، والمؤسسة، والمؤسسة البديلة، وشطبت من تاريخي كل

شيء، متفرغا للشعر ولنادية التي صدقت حكاية أن أمها ثريا ماتت وهي تلدها. ثم جئت أنت إلى الدُنيا لتُنيري لي كل شيء. رحلت نادية ولم أمت لأنك حية وتحتاجين يدا حانية، وناصحا هاديا، وعقلا مُنيرا. بك استعدت سحر الأدب، وروعة الفكر، وجمال الإبداع.

نتذكرين كيف لعبنا بأبيات الشعر لعبا، وكيف كنا نتبارى بالتحاور معا بأبيات المُتنبي التي اعتبرناها كتابا لكل شيء. أقنعتك يوما ما بتحفظي على عبارة "أعذب الشعر أكذبه" فأخبرتني بأن المُتنبي كان نموذجا مكشوفا في الكذب، واستشهدت ببيته الشهير الذي يقول فيه "بعيني رأيت الذئب يحلبُ نملةً.. ويشربُ منها رائبا وحليبا"، فحكيت لك قصة البيت عندما شاهد المُتنبي في السوق أميرا ثريا يسأل بائعة سمك بائسة عن سعر الرطل، فأجابته بأنه خمسة دراهم، فطلب منها خمسة أرطال وترك لها عشرة دراهم فقط، وجرت المسكينة خلفه تطالبه بباقي الثمن، لكنه بغطرسة وتجبر ركب فرسه ورفسها فأخذت تولول وتبكي. وكتب المُتنبي بيت النملة ولم يكذب وقتها، فما حدث لا يوصف إلا بذئب يحلبُ نملة ويشرب منها حليبا. فهمتِ مقصدي، وكنتِ دوما بارعة في وصف مَن حولنا بالشعر، وكأن أبا الطيب ما زال حيا.

لقد أضأتِ حياتي وكنت لي عوضا عن حب قُتل بفعل أنظمة السُلطة القمعية التي تُسخر كل شيء في بلادنا لمصالحها. رأيت فيك استكمالا لحلمي القديم بتحصيل العلم من أهله، من أوروبا، الغرب، المُتمدن،

المُجل للعقل، والمُعتمد للسببية في كل شيء، والمتفق ولو شكلا على حزمة قيم أخلاقية يرعاها. من هُنا بدأت أتابع عن كثب سعيك للحصول على منحة لدراسة الطب في إنجلترا، ودعوت الله لك التوفيق، وتوقعت أن أغادر العالم خلال الجائحة، فتصبحين أقل حملا وأيسر في التحرك لنيل ما تطمحين إليه، لكن قدر الله أبى فامتد العُمر.

وقبل أسابيع قليلة جاءني اتصال نادر من صوت كُنت أعرفه في الماضي، وأخبرني بكلمة السر "الرجل الصالح"، وسألني عن صحتي، ثُم أخبرني بأن هناك سيدة كانت تعمل خادمة في بيت سناء بكاش ولديها بعض أوراقها وترغب في توصيلها لي، وأنهم فهموا ذلك من إعلان نُشر في أبريل الماضي. حادثت هذه السيدة لمرة واحدة فأخبرتني أن سيدتها تركت لي بعض خواطرها. وكان هذا أكثر ما أوجعني وذكرني بجرمي القديم عندما هربت بابنة من أمها سعيا للحفاظ عليها. هل كان ذلك صوابا؟ وهل كنت بالفعل على حق؟ حاصرتني الأسئلة وخنقتني الحيرة لدرجة فقداني أي رغبة في الكلام، وطلبت من ربي الرحيل، لكنك كُنت أسرع وأحضرت لي صك سماح من سناء بكاش نفسها، فشكرا لك.

سعدت ببوح زميلك حسام بليغ بحبه لك. تستحقين قلبا عطوفا وطيبا. إنني أشعر أنه إنسان نقي، يجالد ليبقى جميلا في زمن قاس وقبيح. لا أجد حاجزا في كونه أصغر منك بسنتين أو ثلاث، فقد كُنت أحب

سناء بكاش كثيرا وهي تكبرني بعدة أعوام. في الحب الحقيقي لا حساب لأي اختلافات عمرية أو مادية. ومثلما غفرت لي سناء بكاش ما فعلته، فقد غفرت لها كل شيء، وربما نلتقي معا نتعاتب ونتحاور وننتظر معا بشوق مطر الرحمة الإلهية.

بقي أن أخبرك أنني طلبت من رجل المؤسسة الذي هاتفني مؤخرا في اتصال أخير أن تُقدم لي المؤسسة مكافأة نهاية الخدمة قبل مغادرتي، ورجوته أن يفعل ما يستطيع ليدفع الدكتور محمود شديد أن يعزز ترشيحك للمنحة، ووعدني أن يحقق لي مطلبي الأخير.

سلاااام

السبت 7 مايو 2022

شكر خاص للجنة قراءة العمل، أصدقائي وأحبائي النبلاء الأوفياء، لما أبدوه من ملاحظات، وما قدموه من نصائح في سبيل التجويد الذي يبقى هاجسا دائما لدى كل مبدع.

(وفقا للترتيب الأبجدي)

أحمد عبد المجيد

أحمد مراد

أسامة عبد الرؤوف الشاذلي

جمال أبو الحسن

دعاء البادي

رشا شوقي

غادة العبسي

نرمين رشاد

وتحية امتنان لرفيقة الروح والقلب، نصفي الأجمل، سلوى ممدوح على عطائها اللا محدود ودعمها الدائم لأقرأ وأكتب..

كُتب مصطفى عبيد

وفقا للترتيب الزمني:

* ثورة العشاق - ديوان شعر - الوكالة العربية للنشر. سنة 2000.

*محمد الدرة يتكلم – شعر - الوكالة العربية للنشر. سنة 2000.

*وردة واحدة وألف مشنقة - شعر. مركز الحضارة العربية 2005.

*بكاء على سلم المقصلة - شعر. مركز الحضارة العربية 2009.

* التطبيع بالبزنس - دراسة عن أسرار علاقة رجال الأعمال بإسرائيل. ميريت للنشر 2009.

*مليارات حول الرئيس - دراسة. كنوز للنشر 2011 (ثلاث طبعات).

* موسم سقوط الطغاة العرب - دراسة. كنوز للنشر 2011.

* كتب هزت مصر - مقالات عن الكتب - كنوز للنشر 2012.

* الفريق سعد الشاذلي العسكري الأبيض – سيرة - الرواق للنشر 2012. (خمس طبعات).

* أفكار وراء الرصاص – سير رجال العنف السياسي في مصر من هنري كوريل إلى سيد قطب. ط 1 كنوز للنشر 2013.

- طبعة أخرى لدار إنسان للنشر 2021.

* ذاكرة الرصاص – رواية - كنوز للنشر 2013.

* انقلاب – رواية - الرواق للنشر 2014.

* زينب الوكيل سيدة مصر – سيرة - الرواق للنشر 2014.

* البصاص – رواية - الرواق للنشر 2016.

* نيتروجلسرين - رواية عن سيرة حسين توفيق - كيان للنشر 2017.

*هوامش التاريخ – مقالات عن التاريخ - الرواق للنشر 2018 (أربع طبعات).

*ليل المحروسة – رواية - الرواق للنشر 2019 (طبعتان).

*مذكرات توماس راسل حكمدار القاهرة (1902-1946) – ترجمة - الرواق للنشر 2019. (خمس طبعات).. وفاز بجائزة أفضل كتاب مترجم في معرض القاهرة الدولي للكتاب 2021.

*سبع خواجات – سير رواد الصناعة الأجانب في مصر - إنسان للنشر 2021. طبعة الدار المصرية اللبنانية 2023 (طبعتان).

* جاسوس في الكعبة – رواية - الرواق للنشر 2021. (أربع طبعات).

* ضد التاريخ - تفنيد أكاذيب السلطة وتبديد أوهام الشعب. دراسة - الدار المصرية اللبنانية 2022.

(ثلاث طبعات).

*قارئ الجثث - مذكرات سيدني سميث طبيب التشريح الإنجليزي في مصر الملكية - ترجمة. الدار المصرية اللبنانية 2022. (سبع طبعات).

* أبناء محيي الدين - سيرة ومسيرة عائلة من مصر - دراسة - الدار المصرية اللبنانية 2024. (طبعتان).